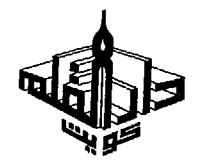
# في موكب النبيين

## الجزء الثاني

تأليف

سيد أحمد الكيلاني



في موكب النبيين
أحداث و عبر

تطلب جميع منشوراتنا من :
دار القلم الكويت
شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية
ص . ب : ٢٠١٤٦ ـــ هاتف / ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

# موسى ـ عليه السلام ـ قبل الرسالة

ـ مصر وفرعونها .
ـ فرعون يملك وحده كل خيرات مصر .
ـ فرعون يوزع عطاياه على من يخدمونه فقط .
ـ فرعون يحرم الناس التفكير .
ـ فرعون يبث الفرقة ، ويفرق الجماعات ، ويقتل من يشاء .
ـ قبيل ولادة موسى ـ عليه السلام .
ـ موسى ـ عليه السلام ـ طفلاً .
ـ موسى ـ عليه السلام ـ فى قصر فرعون .
ـ أم موسى ـ عليه السلام ـ ترضع ابنها ،
ويصدق وعد الله سبحانه لها .
ـ بلوغ موسى ـ عليه السلام ، وفتوته ، واكتماله .
ـ من مظاهر الرجولة والفتوة لموسى ـ عليه السلام .
ـ تطلب الرسالة اكتمال الجسم ، والعقل ، والسلوك السوى .
ـ قصة الرجلين المقتتلين .
ـ الخروج من مصر إلى مدين .
ـ دروس وعبر .

## مصر وفرعونها :

كانت مصر آنذاك ذات مركز تجارى ، وسياسى ، واجتماعى ، وما يتصل بذلك من تلك الحضارة المادية القديمة ، والتى أُستغلت حقبة طويلة فى قهر الشعوب ، وخاصة من يخالفون الحكام ، أو من يتخوف منهم الحكام من تعرضهم للسلطان بالنقد .

وتوالت القوافل من كل صوب ، وخاصة من جهة الشرق إلى مصر ؛ طلباً للقوت والطعام ، وتبادل السلع ، وكانت فى وقت إقامة نبى الله سبحانه يوسف ــ عليه السلام ــ رائدة فى هذا المجال ؛ بسبب ما حباها الله به من وجود هذا النبى ، ومسئوليته عن المواد التموينية فى سنواتها الخصبة ، وسنواتها الجدباء ، وبسبب ما آتاها من إمكانية أرضها على الإنتاج الزراعى الكبير .

والرؤيا التى رآها فتى السجن الأول ، تدل من بعيد على ما كان بالأرض من زراعة الأعناب . فالطاقة البشرية موجودة ، والقدرة على عصر العنب ممكنة .

والرؤيا التى رآها فتى السجن الثانى تدل على صورة مألوفة بين الناس ، وهى حمل الخبز على رأس المرء ، وما كان كذلك محمولاً فهو كثير ، عكس ما يرفع باليد ، ثم يقدم بها .

ثم رد نبى الله سبحانه عليها ، وتأويله لرؤييهما ؛ فقد ركز على الطعام الذى يرزقانه ، على الرغم من وجودهما بالسجن .

ثم رؤيا الملك نفسه ، فجزؤها الأول يتحدث عن البقر بنوعيه : ما كان منه سميناً معافى مكتظاً بالشحم ، واللحم ، مدراً للبن ، وما كان منه هزيلاً فقد صفات النوع الأول . والنوعان حين طرحا عند تفسير الرؤيا لم يكن السؤال عن ماهية السمان والعجاف ، فذاك مألوف للناس فى حياتهم ، وإنما كان من الغرابة فى أن تملك عجاف البقر القدرة على أكل سمانها ، وأن كلا منها سبع .

وجزؤها الثانى عن إنتاج القمح ذى السنابل الممتلئة بحباته ؛ والغرابة فى الرؤيا ، وجود نوعين فيها : من سنابل القمح ، خضر ويابسات متجاورات ، وأن

كلا منها سبع .

كما أن تكرر السبع فى الرؤيا له مغزى فيها ، ولكن يبقى الأصل وهو أن مصر نعمت بالإنتاج الحيوانى ، والزراعى ، والذى كان له من أثر الإسهام فى حل أزماتها ، وأزمات البلاد المجاورة .

وأهمية هذا الإنتاج وخطورته رغب يوسف ـــ عليه السلام ، حين قال له الملك : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ (١) فى أن يوضع على هذا المرفق المهم مسئولاً عنه ، قال : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم** ﴾ (٢) فقد وصل بهذا الإنتاج أن كانت له خزائن ، ولمسئولية مصر من هذا الجانب عن غيرها من الدول أضيفت الخزائن إلى الأرض ، ولم تضف إلى مصر .

وتلك هى الحالة الاقتصادية ، والتى لم تتوقف عند هذا الحد ، بل كانت سبباً فى زمن يوسف ـــ عليه السلام ـــ أن أسهمت فى نشر الأمن بين الناس ، والذى شمل الوافدين أيضاً فقد قال لإخوته : ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾ (٣) .

ودخل بنو إسرائيل الاثنا عشر مصر ، ولأول مرة ، تحت قيادة نبى الله يوسف ـــ عليه السلام ، كما كان معهم والدا يوسف أيضاً (٤) .

**ولكن ماذا كان من شأن من ملكوا مصر بعد ذلك ؟**

**هل استمر ذلك الأمن ، الذى نعم به الناس فترة قيادة نبى الله يوسف - عليه السلام ؟ .**

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٤ .
(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .
(٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٩٩ .
(٤) ظل بنو إسرائيل على التمايز فيما بينهم ، مكوئين اثنتى عشرة جماعة فيما بعد ذلك ، ولأمر أراده الله انفجرت اثنتا عشرة عيناً بعد ضرب موسى وحدد لكل جماعة العين التى تشرب منها ، يقول تعالى : ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ ( البقرة آية ٦٠)

**هل كان احترام الإنسان فكرياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ؟**

وتشهد أهرامات الجيزة بمصر أسوأ قضية فى تاريخها ، آلاف من البشر يسخرون سنوات طويلة لبناء مقبرة لملك عبَّد الناس له .

إن المرء وهو يُشاهد تلك الأهرامات ليتذكر بقلب يعتصره الألم حقبة سوداء فى تاريخ دولة ضاربة الجذور فى التاريخ . الملايين من البشر يعبدون فرداً ، ويقدسونه ، ويبذلون حياتهم رخيصة دون مقابل إلا رضا المتأله من البشر .

وسُخرت الخيرات التى نعمت بها مصر آنذاك لصالح فرد واحد ، وكل من اتصل به نفاقاً ، وبدل أن تكون الخيرات لمصر ، وغيرها ، كما كانت فى عهد يوسف ــ عليه السلام ــ كانت لفرد ، ولم تكن حتى لأبناء البلد المصريين .

## فرعون يملك وحده كل خيرات مصر :

**من المالك الأوحد لخيرات مصر فى نظر فرعون الطاغية ؟**

**ومن الذى يوزعها حيث يشاء ؟**

إنه هذا المتأله بالباطل ، ولا يشركه إلا من أذعن له بهذا الحق من أمثال هامان وغيره .

إن الأيام التى كان يوسف ــ عليه السلام ــ فيها على خزائن مصر التموينية قد مضت بما كان فيها من إسهام لحل مشكلات الناس داخل مصر ، وخارجها ، وتجمعت كل هذه الأرزاق فى قبضة هذا الفرعون ، فهو الملك الأوحد لمصر ، وأنهارها التى تكون سبباً فى إحياء الأرض بالنبات ، وفى إنماء الحيوان ، فضلاً عن ضرورية مائها لحياة الإنسان ؛ إن هذه الأنهار تجرى من تحته ، وتحت قصره ، وهم يبصرونها على هذا النحو .

وحين نادى قومه لمواجهة دعوة موسى ــ عليه السلام ــ مَنَّ عليهم بهذا .

يقول الله تعالى :

﴿ ونادى فرعون فى قومه ، قال : يا قوم ، أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى . أفلا تبصرون ؟ ﴾ (٥) .

وطالما أنه المالك ، والغني ، فهو الأحق بعبودية الناس له ، أو عبودية الناس لماله ، ولذا أثار فى نفوس قومه أن موسى فقير ، فلا يستحق هذا التكريم حيث قال الله تعالي علي لسانه :

﴿ فلولا أُلقى عليه أسورة من ذهب ﴾ (٦) .

وتمكن الغباء فى القوم فالإلحاح علي الاستخفاف بهم ، وحرمانهم من أى حق لهم جعلهم يتصورون أن هذا حق فعلاً لفرعون . فأطاعوه فى كل ما يزعم .

قال الله تعالى :

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (٧) .

## فرعون يوزع عطاياه على من يخدمونه فقط :

إن الأرض لله سبحانه ، يورثها من يشاء من عباده ، وإن المال مال الله سبحانه وهو مستخلف فيه عباده ، فناظر كيف يعملون ؟

كيف يكون توزيع الثروات هذه ؟ ، والتى نعمت بها مصر بالذات دون غيرها .

إن السحرة فى موقفهم الأول فهموا من الطاغية هذا ، ورتبوا عليه أمورهم . فتحرك لسانهم مخاطبين فرعون .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال : نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ (٨) .

---

(٥) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥١ .

(٦) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥٣ .

(٧) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥٤ .

(٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ٤١ ، ٤٢ .

فبذل الأجر والعطاء سبيله تقديم فروض الطاعة والولاء لفرعون ، والدفاع عن طغيانه ، وقد تعرض للإطاحة .

ولأن الطغيان قد تعرض لهزة ، كانت إجابة فرعون بنعم سريعة جداً ، فليبذل اليسير إذن للسحرة ليبقى الكثير له ، بل أعلن لهم أنهم سيكونون مقربين لديه ؛ شريطة أن يحققوا غلبة ، ولو بالباطل ، ولا قُرْب أبداً من هذا الطاغية إلا إذا تحقق هذا الكسب .

## فرعون يحرم الناس التفكير :

حين ينتشر الطغيان والظلم ببلد أى بلد ، فأول شيء يذبح ، والذى يجعل له ألف حساب التفكير الحر .

والطاغية يعلم علم اليقين قيمة التفكير الحر ، ووقوفه فى وجه أى انحراف فى السياسة أو الاقتصاد ، أو فى التوزيع ، أو فى اختيار المسئولين ؛ ولذا يجند من الأشخاص المنافقين الذين من السهل عليهم أن يزينوا للناس خطورة هذا التفكير ، وأن الذات العليا مقدسة لا يصح أن تُمس ، وبطول المدة على الناس يألفون هذا الظلام الذى يَلُفُّهمْ لفّاً من كل جانب ، بل قد يحارب الواحد منهم فى سبيل الحفاظ على بقاء ذلك الوضع العفن ، وتصبح النافذة الواحدة التى يخرج التفكير منها نافذة الإله المزعوم .

ويصور القرآن الكريم هذا الأمر بقوله :

**﴿ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾** (٩)

إن رأى الناس من خلال رأيه هو فقط ، بل هو الذى يعلن عليهم هذا الأمر ، ويدربهم عليه ، بل يصف هذا الحرمان من إبداء الرأى بأنه سبيل الرشاد ؛

---

(٩) سورة غافر ، الآية رقم ٢٩ .

لتنقلب الأوضاع ، فيصبح التفكير الحر ، ضلالاً ، والحرمان رشاداً فى الرأى والعقل وهداية للناس .

ولا نعجب إذا ما كان لأفعال هذا الفرعون تصفيق حاد من قبل البطون الجائعة ، والمحرومين من نعمة الرؤية والرأى والتفكير .

إن فرعون يحكم على الشعب بأسلوب الحصر ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ فله الحكم والأمر وعلى الشعب المسكين أن ينصاع له ، ويسجد خاضعاً ذليلاً له .

وإذا مرت بأفراد من الشعب يقظة بسبب نبوة ، وتحررت من عبوديتها لهذا الإله المزعوم ، كان الاستغراب الكبير جداً من فرعون وملئه . قال تعالى :

﴿ **قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم** ﴾ (١٠) .

إنه ينكر على السحرة فعلهم هذا ، ويزعم أنه هو المتصرف الأوحد فى شئون المسحوقين من البشر ، فحين أشير لكم ، أو آذن بفعل فليفعل ، وإلا فالويل ، والصلب ، والسفك ، والقتل الجماعى لمن يخالف رأيه .

ودور المنافقين خطير جداً فى نفخ هذا البالون ، وإقناع الطاغية بأنه العبقرى الأوحد وأن للعبقرية إلهامات خاصة . ومن مصلحة هؤلاء المنافقين ألا تدب فى الأرض حياة ، وأن يُحرم الناس إبداء الرأى ، بل يثيرون الطاغية على من فكر بإصلاح البشرية وإنقاذها من وهدة العبودية لغير الله سبحانه .

يقول الله تعالى فى شأن هؤلاء المنافقين ، بطانة السوء :

﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟** ﴾ (١١) .

---

(١٠) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٣ .
(١١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٧ .

- وصار التحرر من الطغيان ، والخروج من عبودية العباد ، إلى عبودية رب العباد ، فى نظر هؤلاء الدجالين إفساداً فى الأرض وهكذا يكون الحال حين تنقلب الأوضاع متى وأين كان ؟ .

## فرعون يبث الفرقة ، ويفرق الجماعات ، ويقتل من يشاء :

لا يمكن لمستكبر فى الأرض ، متمرد على سلطان الله سبحانه أن يستمر على ظلمه إلا أن يشيع الفرقة ، والإفساد بين الناس بالوشاية الكاذبة ، بواسطة زبانيته ، وأعوانه ؛ للدرجة أن يتصور الناس العاديون أن الفرقة هذه بسبب ضعف ذاتى فى جدار الجماعة ، وليس وارداً من خارجها . وتأمل فى قوله تعالى :

**﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ﴾** (١٢) .

فقد كان من نتيجة العلو فى الأرض ، أن جعل أهلها شيعاً وأحزاباً ، كل يكره الآخر ، وحسب فرعون أن يهنأ بالاً ، ويقر قراراً طالما أن مبدأه ( **فرق تسد** ) وجد مناخه الخصب بين الناس ، وأصبح مفعوله قوياً فيهم .

أيتصور إنسان أن شخصاً ما يتوجه بالقتل لكل مولود ذكر حين العلم بولادته ؟ إن هذا قد حدث فعلاً من فرعون ، فبعد أن وضع الفتنة بين جماعات الناس إذ به يتوجه إلى الضعيفة منها فيذبح الأبناء الذكور حيث تكون القوة ، والمعارضة منهم ويترك النساء لما عُرف عنهن من لين وضعف ، وذاك إفساد فى الأرض وأى إفساد .

يقول الله تعالى :

**﴿ إن فرعون علا فى الأرض ، وجعلِ أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾** (١٣) .

---

(١٢) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .
(١٣) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .

## قبيل ولادة موسى ـ عليه السلام :

ذلك هو الجو العام لمصر ، وفرعون قبيل ولادة موسى - عليه السلام - إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الانحطاط الذى تردت فيه مصر فى عهد فرعون سياسياً ، واجتماعياً ، وخلقياً ، وإن كانت قد نعمت بالإنتاج الزراعى ، والفكر الهندسى ، والمعمارى ، فقد أُستغل ذلك لصالح فرد واحد هو فرعون ، فضاعت القيمة منه لعلم استفادة الشعب من هذا التقدم .

وإذا تناول العقل البشرى هذه الأحداث فيمكن أن يجعلها سبباً فى فناء الأمة ، ودمارها ، وإهلاكها ، ولكن الله سبحانه هو صانع الأسباب ، وصانع فعاليتها للمسببات . نقل العقاد عن الغزالى قوله : إن الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ، ولا تجرى بحصول الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا إرادتها ، ولكن المادة وخصائصها جميعاً من فعل الحكمة الإلهية التى تُسخر كل شيء بمقدار (١٤) .

فكان فى هذا الجو الخانق والمعتم بداية الإنقاذ لمن تعرضوا لهذا الاضطهاد ، ويُمكّن لهم فى الأرض ، وتلك إرادة الله سبحانه التى نفذت وسجلها القرآن الكريم قبيل ولادة موسى ـ عليه السلام .

يقول الله تعالى فى أول سورة القصص مخاطباً نبيه محمداً ـ ﷺ :

**﴿ طسٓمٓ ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعفُ طائفة منهم يُذبّحُ أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان مَن المفسدين ، ونُريد أن نَمُنَّ على الذين اُستضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونُمكّن لهم فى الأرض ، ونُرى فرعون وهامان وجنودهما**

---

(١٤) مطلع النور ، أو طوالع البعثة المحمدية ، الطوالع والنبوءات ص ٩ . منشورات المكتبة العصرية .

منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (١٥) .

فالقرآن الكريم والذى تكوّن من تلك الحروف العربية التى استعملها العرب فى كلامهم ، جاء بالمعجز من الأخبار الغيبية ، والتى يَقُصها بالحق . وإن المؤمنين هم الذين يتلقونها بالقبول والرضا ، أما غيرهم فلا يملكون أيضاً أن يأتوا بما يخالفها فى الأخبار ، وتبدأ القصة فى عرضها ، فقد علا فرعون فى الأرض ، وفرّق الناس شيعاً ، وأحزاباً ، واستضعف بنى إسرائيل ، فذبح الذكور الذين ولدوا حديثاً ، وترك الإناث ؛ لما حُكِيَ له من أن رجلاً سيُولد تكون نهايتك على يديه ، وفرعون بهذا قد أفسد فى الأرض . وأراد الله سبحانه أن يَمُنَّ على هؤلاء المستضعفين من بني إسرائيل ؛ ليكونوا أئمة ، وليكونوا الوارثين لملك فرعون بعد هلاكه ، ويُمكّنَ الله سبحانه لهم فى الأرض ، ويُرىَ طاغية الكفر ومساعده هامان ومن عاونهما من الجنود العاقبة التى كانوا يحذرون منها ، حيث لم ينفعهم الحذر . فالله سبحانه هو الذى أنفذ ما أراد بولادة طفل صغير من بنى إسرائيل تتحقق هذه الأمور على يديه بإذن الله سبحانه .

ومما يلفت الانتباه هنا هو طول المدة بين الواقع المرير المؤلم ، وتكليف موسى وهارون — عليهما السلام — بأن يذهبا إلى فرعون ؛ لأنه طغى . وذلك يدل على الوصية بالصبر ، فمهما طال عهد الظلم فلابد أن يعقبه فرج ، وتأتى سورة القصص التى نزلت بمكة تعطى هذه الدلالة وتغرسها فى قلب النبى — ﷺ — وهى السورة الوحيدة التى تحدثت عن طفولة موسى — عليه السلام — أما السور المدنية الأخرى فقصلت القول فى تعامل بنى إسرائيل وعلاقتهم بنبيهم ، وبالنبى محمد — عليهما الصلاة والسلام — كما أن المناخ الذى عاشته المدينة المنورة من مكر اليهود وخبثهم كان سبباً فى نزول ما نزل من الآيات يفضح هذا الخبث ، وهذا المكر ، وأنهم بدلوا ، وحرفوا فى التوراة ، كما سنعرف فى المستقبل إن شاء الله تعالى .

---

(١٥) سورة القصص ، الآيات من ١ إلى ٦ .

## موسى ـــ عليه السلام ـــ طفلاً :

إن كانت تستطيع الأم أن تتخفى وهى حامل ، فسوف لا تستطيع أبداً أن تخفى طفلاً وليداً ، يصرخ إذا ما جاع ، وإذا ما ألمّ به شيء ، أو ألم به مرض. ولم يصلنا أى خبر من أمهات بنى إسرائيل أنهن قدمن أطفالهن عن طواعية . فذلك أمر يُخالف ما أودعه الله سبحانه فى قلب الأم من حنو نحو وليدها ، بل قد تعرض نفسها للهلاك إذا كان فى ذلك إبقاء على هذا الوليد . فلابد والحال هذه أن يكون فرعون قد جند لذلك جنوداً يخبرونه بما يُولد من الذكور ، وأنسب من يختار لذلك القابلات اللاتى يقمن بأمر الولادة ، وسهولة التعرف على المرأة التى وضعت حديثاً ، وتقوم بأمر إرضاع الولد ، ولا بد أيضاً أن أم موسي على إحدى حالتين :

( ا ) إما أن تكون قد ولدت وحدها ، ولا يعرف شأن هذه الولادة إلا أخص الناس من أسرتها .

(ب) وإما أن تكون قد ولدت على يد قابلة ، ورأت خوف أم موسي عليه ، فأسهمت فى كتمان هذا السر .

وربما يكون فى الحال الثانية أن ترى القابلة من الطفل من أمارات ، وسمات لم ترها فى غيره ، وشجعتها على ما تقوم به من كتمانه .

وفى كلتا الحالتين الموقف خطير على كل من تستر على هذا الأمر ، وعدم إيصال النبأ إلى الطاغية فرعون . والخطر هنا لا يقع على الطفل وحده ، بل سيقع عليه وعلى أمه ، وعلى أخته ، وعلى القابلة إن كانت قد شاركت فى إخفاء أمر الولادة ونوع المولود .

ولا يدور فى خُلد ذى لُب ، أنه ربما أن يكون قد ادَّعت الأم أن نوع المولود أنثى ، والواقع أنه ذكر ، فليس بعيداً والموقف متأزم جداً من فرعون أن يُرسل من يتعرف على حقيقة الأمر ، ولم يبق لنا إلا أن نرجح أحد الاحتمالين السابقين ، والله أعلم بالصواب .

**هذا هو الموقف ، فماذا كان من أمر السماء التي أعلنت بادئ ذى بدء أنها تمن على الذين أُستضعفوا فى الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم وارثيـن ، ومتمكّنين فى الأرض ؟**

أوحى الله سبحانه إلى أم موسى ــ عليه السلام ــ وإذا ما بدئ الأمر بوحى من السماء فذاك أول الفرج ، وأى فرج أكبر وأجمل منه ، وقد تسلمت السماء زمام الموقف .

أوحى الله إلى أم موسى – عليه السلام – أن ترضعه وهى مطمئنة ، وإن لم تستطع كتمان خوفها فعليها أن تقوم بتجربة ما سبق لأم أن فعلتها ، وهى إلقاؤه فى نهر النيل على نوع لا يمكن لأم أن تفعله ، وتأمن عليه من الغرق لساعات من وضعه فى صندوق (١٦)لا يظهر منه الطفل ، ويكون مُحكماً لا يصل الماء إلى داخله هذه الفترة الممكنة . فإذا ما علمنا أن نهر النيل بصفحة ملساء فى غالب أيام السنة أمكننا أن نرجح هذا الأمر ولكن لا يجوز لنا أن نجزم به طالما هو غيب ، ولم تأت النصوص مخبرة به ، فنحن أمام أم تلقى بوليدها فى النهر . إن أمنت عليه ساعات ، فلا تأمن عليه امتداد هذا الأمن .

ولكن الذى أوحى إليها أول الأمر وهو الله سبحانه وتعالى هو الذى يأمرها بإلقائه فى اليم إذا ما كان خوف ، وألا تخاف ولا تحزن من هذا ، وأن الله سبحانه يبشرها برده إليها ، بل سيجعل هذا الوليد رسولاً إلى قومه . فلا تردد من الأم إذن وقد صعدت البشرى إلى درجة الرسالة ، وها هى تنفذ الأمر . وتلقى الأم بوليدها موسي ــ عليه السلام ــ فى نهر النيل . وتبقى منتظرة تلك البشريات التى أعلنتها السماء لها بالوحى الكريم إليها .

---

(١٦) قال تعالى : **﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عينى ﴾** ( سورة طه ٣٨ ، ٣٩ ) .

**معنى الوحى :** =

= يُقال : وحيت إليه ، وأوحيت ، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز ، والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة بعض الجوارح .

والوحى : مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنين أصليين ، هما : الخفاء ، والسرعة ، ولذا قيل فى معناه : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه ، بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويُطلق ويُراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول ، والوحى بمعناه اللغوى يتناول :

١ - الإلهام الفطرى للإنسان كالوحى إلى أم موسى — عليه السلام — قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ﴾ ( القصص — ٧ ) .

٢ - والإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ، قال تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون** ﴾ ( النحل —٦٨ )

٣ - والإشارة السريعة على سبيل الرمز ، الإيحاء ؛ كإيحاء زكريا — عليه السلام — فيما حكاه القرآن الكريم عنه : ﴿ **فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم ، أن سبحوا بكرة ، وعشياً** ﴾ ( مريم — ١١ ) .

٤ - ووسوسة الشيطان ، وتزيينه الشر فى نفس الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾ ( الأنعام — ١٢١ ) . وقال : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ ( الأنعام — ١١٢ ) .

٥ - وما يلقيه الله سبحانه إلى ملائكته من أمر ليفعلوه ، قال تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ..** ﴾ ( الأنفال — ١٢ ) .

أما وحى الله سبحانه إلى أنبيائه — عليهم الصلاة والسلام — فقد عرفوه شرعاً بأنه :

كلام الله المنزل على نبى من أنبيائه . وهو تعريف بمعنى اسم المفعول ، أى الموحى .

ولاختلاف مدلول الوحى باختلاف القرائن لزم التنويه بذلك ، والله أعلم .

عن كتاب « مباحث فى علوم القرآن » للشيخ مناع قطان ، مؤسسة دار الرسالة — بيروت . الطبعة السادسة ص ٣٢ ، ٣٣ .

## موسى ــ عليه السلام ــ فى قصر فرعون :

مرت مفاجأتان ، الأولى : ولادة مولود ذكر ، والثانية ، توجه الأمر بالإلقاء في اليم إلى أم موسي . ونحن هنا إزاء مفاجأة أشد غرابة .

إن الطفل يمر بقصر فرعون ، فيلتقطه آله وجنوده ، ولازالت حالة الطوارئ معلنة على بنى إسرائيل بذبح من ولد ذكراً منهم .

ومن يجرؤ على إلقاء طفله إلا من ارتعدت فرائصه خوفاً ، وهلعاً فيتوهم فى اليم نجاة من القتل ، وسوف لا يدور بخلد من عنده مسكة من عقل أن هذا الطفل من غير بنى إسرائيل .

إذن فقد بقى الخطر محدقاً إذا ما تركنا للأسباب أن تعمل وحدها ، ولكن الذى صنع الأسباب هو الذى يملك إجراءها وهو الله سبحانه ، وها هى القصة تعطينا الدليل على أن الفرج الذى سيكون هنا سيكون لك أيها النبى الخاتم أيضاً ، وقد أحدق الخطر من قريش على القلة المستضعفة فى مكة .

ولو كان فرعون وهامان ومن تبعهما من جنود يملكون شئون أنفسهم لما سارت الأحداث على هذا النحو ، ويكونون هم عناصر تعتمد عليها الأحداث .

فكيف يزعم فرعون أنه إله إذن ، وهو لا يملك دفع الأذى عن نفسه ، ولا يعرف خطراً ينتظره هو بالذات ؟

وجند الله سبحانه لخدمة الطفل امرأة ، وما أشد حاجة كل طفل إلى امرأة حتى والخطر يحدق بالطفل فالناموس الطبيعى أن يخدم الطفل فى سنواته الأولى امرأة

وأى امرأة كانت هذه ؟ إنها رئيسة هذا القصر . أصحيح هذا ؟ . نعم صحيح ألم تسمع قول الحق تبارك وتعالى :

**﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو**

**نتخذه ولداً ﴾** (١٧) .

أترضى امرأة فرعون ، وهى من هى أن تتبنى ذلك الوليد الغريب ؟

إن الذى أنطق عيسى ـــ عليه السلام ـــ وهو فى المهد ، حرك مشاعر تلك المرأة نحو الطفل موسى ـــ عليه السلام .

إنها تتمناه لها فى الدرجة الأولى ﴿ **قرة عين لى** ﴾ ولا يكون الطفل قرة عين إلا فى حالات منها :

ـــ ألا تكون قد أنجبت قبل ذلك مثلاً ، فيكون الطفل تعويضاً لها ، وذلك جائز .

ـــ أن يكون الطفل الجديد قد تمتع بنصيب من الجمال والوضاءة والصباحة وذاك أيضاً جائز .

وسواء هذا أو ذاك فإن الذى هداها إلى إعلان ما أعلنت هو رب الأحوال ، والأسباب ، إنها تناقش وتحاور زوجاً تعلم عنه علم اليقين مدى تعذيبه لبنى إسرائيل بالقتل ، والسفك ، وتقترح عليه أن يترك الطفل لديها ، لأحد أمرين ؛ أن يكون :

( ا ) ابناً لنا بالتبنى ، فتقر عينى وعينك على السواء .

(ب) فتى يساعدنا فى أمور حياتنا المنزلية . وهذا يدل على كمال عقلها ورشدها ، فعن أبى موسى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ :

**« كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »** (١٨) .

---

(١٧) سورة القصص ، الآية رقم ٩ .

(١٨) أخرجه الشيخان : البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾ سورة التحريم ـــ ( ١١ ) جـ ٤ ص ١٩٣ . =

وتتنزل نعم السماء على الطفل الصغير ، حتى وهو فى قصر فرعون ، بصورة لم ينعم بها أى طفل آخر ، وتتبدل صورة الخوف ، والفزع على الطفل جزعاً ، وهرباً من الشر ، إلى صور العناية التى تأتى من كل صوب ، ويكون للأم التى افتقدت وليدها نصيب فى هذا الدور .

## أم موسى ــ عليه السلام ــ ترضع ابنها ، ويصدق وعد الله سبحانه لها :

لك الله يا أم موسى ، ألقيت بولدك فى اليم ، وفى اليم مكاره ، ومخاوف ؛ إنقاذاً له من المكاره والمخاوف . وأصبح تفكيرك خالياً من كل أمر إلا من طفلك الصغير .

ثم هنيئاً لك يا أم موسى وقد قرت عينك من جديد برد الطفل إليك وقد حُفَّ بالأمْن والتكريم ، وحفتك الهدايا والهبات .

**فكيف كان ذلك ؟**

بعد أن ألقت الأم بالطفل فى اليم أصابها الجزع الذى كاد أن يفقدها التوازن ، وكتمان سر ابنها ، وخيف أن تكشف حركاتها ، وتصرفاتها سر الصندوق ، وقد احتوى طفلاً مجهولاً فى نظر فرعون ، وقومه ، ولكن الله سبحانه ربط على قلبها ، وهدأ روعها ، وذكرها بوعده لها ، ﴿ **إن الله لا يُخلف الميعاد** ﴾ فأذعنت لربها سبحانه من جديد ، وآمنت صدق الإيمان ، وفوضت الأمر لرب رحيم ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير ، ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾ (١٩) ، ﴿ **فعسى أن تكرهوا**

---

= مختصر مسلم ، كتاب فضائل أصحاب النبى ــ ﷺ ، باب فضل عائشة ــ رضى الله عنها . رقم ١٦٦٧ جـ ٢ ص ٢٠٢ ، واللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٧٤ ص ٦٤٦ .

(١٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢١٦ .

**شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾** [٢٠] .

قال الله تعالى :

**﴿وأصبح فؤاد أم موسي فارغاً إن كادت لتُبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾** [٢١] .

والتفويض إلى الله سبحانه ، والتوكل عليه ، والإيمان الصادق بوعده للمؤمنين ليس معناه التقاعس عن بذل الأسباب المقدورة للإنسان ، واللازمة لكل ظرف من الظروف ، فإن كانت قد أُمرت بإلقاء الطفل فى اليم من ربها فلا مجال لها إلا أن تنفذ ، والله وحده هنا الذى يعلم مصير هذا التنفيذ ، فصار الإلقاء على عنفه سبباً فى النجاة .أما والأمر الجديد فى طوق الإنسان فليبذل الإنسان ما يمكن أن يبذله .

إن الأم قد اختارت شخصاً يستخبر عن الطفل ، إن هذا الشخص أخت الطفل ، وتحركت لأنها أخت لا لأنها بنت لأم ، لتفيدنا الآيات الكريمة أن شخص الاستخبارات تلزمه الرغبة الذاتية فيما يقوم به من عمل ، وما يصادفه من صعوبات كما تفيدنا أن الشخص المسئول يلزمه أن يختار الأَكْفَاءَ الصالحين لمثل هذا العمل ، كما اختارت الأم الأخت لتتعرف على أحوال أخيها ، وأوصتها الأم بأن تعرف قصته .

## فماذا صنعت فى هذا التكليف الصادر إليها من الأم ؟

تحسست الأخبار عن قرب ، برباطة جأش ، وشجاعة نفس ، وتلك مهمة صعبة ، حتى وصلت قريباً من القصر ، وحتى بصرت به ، واطمأنت على أخيها ، دون أن يشعر زبانية فرعون الذين ظنوا أنهم قد ملكوا كل شيء ، فإذا هم لا يملكون أى شيء مما حذروا منه ، وليتأمل كل منا مسيرة طفل فى اليم حتى وصل داخل القصر ، ومسيرة أخت حتى تصل قرب القصر ، وقرب الطفل ، ويسجل

---

(٢٠) سورة النساء ، الآية رقم ١٩ ، (٢١) سورة القصص ، الآية رقم ١٠ .

القرآن الكريم تلك المسيرة في آية كريمة ، قال تعالى :

﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ (٢٢)

وتصل الأخت إلى ما هو أبعد من ذلك ، إنها تسهم فى التفاوض بشأن الطفل ، ودخلت إلى عمق المهمة المنوطة بها ، وهم لا يشعرون . فماذا أبصرت ؟ وماذا اقترحت ؟ . أبصرت طفلاً صغيراً لم تتردد فى أنه أخوها الذى أُلقى ليلاً فى اليم ، وقد ظهرت عليه الرغبة فى الرضاعة ولكن عجباً له ، وقد أبى فمه أن يلتقم ثدى أى امرأة على الرغم من جوعه ، إنه لغز لا يعرف حله من البشر غير الأخت . وأعلنت الحل بهدوء ، بسؤال تقريرى فيه نصح دون إلحاح ، فالإلحاح مجال شك ، ومضمون النصح بيت يكفله ، لا أم تكفله ، وإن كانت النتيجة واحدة ، ولكن الظرف يختار التعبير الأول ، ويأبى الثانى لما فيه من توهم افتضاح السر .

وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كي تقرعينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢٣)

ويقول :

﴿ إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ﴾ (٢٤) .

هنيئاً لك أيها الطفل الكريم كنت قرة عين لامرأة فرعون .

وكنت محظوظاً حتى من أعدائك ، وقد كان منهم إكرام .

وتمنتك امرأة غير أمك أن تكون ابناً لها .

---

(٢٢) سورة القصص ، الآية ١١ (٢٣) سورة القصص ، الآية ١٢ ، ١٣ .

(٢٤) سورة طـه الآية رقم ٤٠

ثم رُددت إلى أمك فقرت عينها بعودتك سالماً إليها ، وغانمة بأجر إرضاعك .

ذهب بك الحزن ، وحل بك الفرح .

وصدق وعد الله سبحانه معك .

وصدق الله حيث يقول :

**﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾** (٢٥)

وإذا ما تعرفنا على جانب من تلك الرعاية الإلهية بالطفل ، فقد توالت عليه أيضاً وهو فتى .

## بلوغ موسى ، وفتوته ، واكتماله :

يأتى الوصف بالفتوة أو الرجولة إذا ما كان اكتمال الجسم ، واكتمال فى العقل .

فى قصة أصحاب الكهف المؤمنين ورد قوله تعالى :

**﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ﴾** (٢٦) .

وفى قصة يوسف ـــ عليه السلام ـــ قال تعالى :

**﴿ وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾** (٢٧)

وفى وصف الناس بالتوازن النفسى والسلوكى يقول تعالى :

**﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... ﴾** (٢٨) .

---

(٢٥) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٤ .
(٢٦) سورة الكهف ، الآية رقم ١٣ .
(٢٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٠ .
(٢٨) سورة النور ، الآية رقم ٣٧ .

وقد جمع موسى — عليه السلام — من مظاهر الرجولة ، والفتوة ، ما يلزم لأداء الرسالة وما يبعده عن اللمز والطعن ، ولذا لم نسمع عن رسول كان به عيب جسمي أبداً ، ولله سبحانه الحكمة في ذلك .

## - من مظاهر الرجولة والفتوة لموسى — عليه السلام :

( ا ) يقول الله تعالى :

**﴿ ولما بلغ أشده ، واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾** (٢٩)

ولكن بني إسرائيل فسروا الأمور على غير وجهها ، حين رأوا به حياءً .

وفي ذلك يروى أبو هريرة — رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال :

**« كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسي يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسي في أثره ، يقول : ثوبي ، يا حجر . حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسي ، فقالوا : والله ما بموسي من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً »** (٣٠) .

---

(٢٩) سورة القصص ، الآية رقم ١٤ .

(٣٠) حديث متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع / محمد فؤاد عبد الباقي ، مراجعة / عبد الستار أبو غدة ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، حديث رقم ١٥٣٢ ص ٦٢٥ كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى — عليه السلام — وورد في هامش مختصر مسلم تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رقم ١٦١٠ ص ١٨٦ جـ ٢ ، آدر : عظيم الخصيتين ، وورد في رواية مختصرة بدل « **كان موسى يغتسل وحده** » قوله : « **كان موسى رجلاً حيياً فكان لا يُرى متجرداً** » ، مع الاختلاف في الألفاظ ، وفي نهاية الرواية : « **ونزلت : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا** =

ويُفهم من هذا أنه على اكتمال فى الجسم ، حتى ما يستر منه ، لأنه عورة .

(ب) حدث أن تعرض موسى ــ عليه السلام ــ لفك نزاع بين شخصين الأول من بنى إسرائيل والثانى من القبط ، وغير خاف أن الأول من المستضعفين فى مصر ، فالقتال إذن غير متكافئ ، فالثانى يقاتل ووراءه وضع اجتماعى ، وسياسي يعطيه قوة ، قد تدفعه إلى مجاوزة الحد بالظلم ، بل قد يكون السبب تمرد الإسرائيلى على هذا الوضع نفسه ، والقبطى فى موقف التأديب له ، والضرب له ، وصادف أن رأى موسى هذا القتال بينهما ، وتلك فرصة للإسرائيلى أن يستنجد بموسي ــ عليه السلام ، وما على موسي والحال هذه أن يدفع القبطى بيده وكزاً ، وتكشفت قوة القبطى المنتفخة حين هذا الوخز .

فقد قضى عليه سريعاً .

وقد ندم موسي ــ عليه السلام ــ لهذه النتيجة غير المرادة منه ، إنه أراد فقط فك القتال ، حين رأى أن بالقبطى قوة من عصبيته بقومه .

وعلى أى حال فقد أسف موسى ــ عليه السلام ــ واعتبر هذا من عمل الشيطان ، وأنه قد ظلم نفسه وطلب المغفرة من ربه ، عاهده ألا يكون ظهيراً لأى مجرم ، ونجاه الله سبحانه من الغم بسبب هذا العمل ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ **وقتلت نفساً ، فنجيناك من الغم ، وفتناك فتوناً** ﴾ (٣١) .

---

= **موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ » ( سورة الأحزاب الآية رقم ٦٩ )

والتصرف الذى كان عليه بنو إسرائيل يُرجح أنه كان من قبل إيمانهم وإرسال موسى عليه السلام إليهم ، ويمكنك أن ترجع أيضاً إلى متن البخارى جـ ٤ ص ١٩١ كتاب الأنبياء.

وورد فى هامش اللؤلؤ والمرجان نقل عن الإمام النووى : « وفى هذا الحديث فوائد أى بالإضافة إلى ما صرح به فى الحديث منها :

أن فيه معجزتين ظاهرتين لموسى ــ ﷺ ــ إحداهما مشي الحجر بثوبه إلى ملأ بنى إسرائيل ، والثانية : حصول الندب ( وهو الأثر ) فى الحجر .

(٣١) سورة طـه الآية ٤٠ .

ويقول تعالى أيضاً :

**﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾**(٣٢) .

(جـ) وفى هذا أيضاً حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

**« أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام ، فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت فرد الله عليه عينه ، وقال : ارجع فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بكل ما غطت به يده ، بكل شعرة سنة ، قال : أى رب ، ثم ، ماذا . قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ،** قال ( أى أبى هريرة ) : قال رسول الله — ﷺ : **فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق ، عند الكثيب الأحمر »** (٣٣) .

فضربة تذهب بعين من وقعت عليه ، تدل على قوة ، وشدة ، وصدق الله سبحانه حيث قال :

**﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ .**

---

(٣٢) سورة القصص ، الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٣٣) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٣٣ ص ٦٢٥ الكتاب والباب السابقان ( متن البخارى جـ ٤ ص ١٩١ ) .

وجاء بالهامش : أرسل ملك الموت : فى صورة آدمى اختباراً وابتلاءً ، صكه : أى لطمه على عينه التى ركبت فى الصورة البشرية التى جاء فيها ، دون الصورة الملكية ففقأها . متن ثور : أى ظهره ، أى رب ، ثم ماذا . أى ماذا يكون بعد هذه السنين ؟ ثم الموت : ثم يكون بعدها الموت ، رمية بحجر : أى دنوا ، لو رمى رام بحجر من ذلك الموضع الذى هو موضع قبره لوصل إلى بيت المقدس . ثم : هناك ، الكثيب الأحمر : الرمل المتجمع .

وأراد الله سبحانه أن يعطى موسى من القوة لتعوض ما افتقده القوم المستضعفون فكانت قوته تعويضاً لما افتقدوه فى هذا الجانب .

( د ) وقد ورد حديث يبين الصورة ، التى كان عليها جسمه المكتمل ، فعن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال :

**« رأيت ليلة أُسرى بى موسى ، رجلاً آدم طُوالاً ، جعداً ، كأنه من رجال شنوءة .. »** .

وفى حديث آخر عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليلة أُسرى به :

**« رأيت موسى ، وإذا رجل ضرب رَجِلٌ كأنه من رجال شنوءة ... »** (٣٤) .

ويدل الحديثان على ما كان عليه موسى ـــ عليه السلام ـــ من صفات الرجل القوى من طول وخفة لحم ، بالإضافة إلى صفات أخرى من لون البشرة ، وشكل الشعر ..

وتلك الأحاديث ما كانت إلا بياناً لقوله تعالى :

**﴿ بلغ أشده ، واستوى ﴾** .

( هـ ) وحين خرج من المدينة متجهاً إلى مدين ، خرج على ماء بالطريق ، ازدحم عليه الناس لدرجة ألا يستطيع الضعيف أن يسقى إبله وأغنامه ،

---

(٣٤) الحديثان متفق عليهما . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٠٤ ، ١٠٦ ص ٣٨ ، ٣٩ ، وتكملة كل من الحديثين وصف لعيسى بن مريم ، وورد فى تفسير المراجع بالهامش قوله : آدم : أسمر . الطُوال ( بضم الطاء ) : الطويل . جعداً : جعد الشعر جعودة . إذا كان فيه التواء وتقبض فهو جعد ، وذلك خلاف المسترسل .شنوءة : أى فى طوله وسمرته، وشنوءة : قبيلة من قحطان . ضرب : نحيف خفيف اللحم . رجِل ( بكسر الجيم ) : أى مرجل الشعر . ويمكن الرجوع إلى متن البخارى أيضاً جـ ٤ ص ١٨٦ كتاب الأنبياء .

وفى القوم فتاتان تمنعان أغنامهما ؛ حتى لا تختلط بآغنام القوم ، مخافة إيذائها فَرَقَّ موسى ــ عليه السلام ــ لحالهما .

وسأل موسى ــ عليه السلام ــ الفتاتين عن شأنهما .

وكانت إجابتهما حكيمة لدرجة كبيرة : فقد تضمنت :

التعبير عن ضعفهما ، وعدم قدرتهما فى مشاركة القوم فى أثناء سقيهم .

**﴿ لا نسقى حتى يُصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ﴾** (٣٥) .

وأنهما مضطرتان إلى ذلك لأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على المجىء فهو إذن أشد منهما ضعفاً . وهما خرجتا لهذا العمل لمبرر قهرى ، وهو ضعف الأب .

ويشير التعبير أيضاً إلى عدم وجود أخ كبير يعوض ما عليه الأب من ضعف والسياق يؤدى إلى ذلك .

وبمجموع هذه الأمور ، وغيرها من مشاهدات موسى ــ عليه السلام ــ قوى الدافع إلى المساعدة ، وقد سبق له أن ساعد رجلاً مظلوماً ، فأولى به والحال هكذا أن تلتقى المروءة والقوة ، والمساعدة عند ماء مدين ، وقد كان .

وبإضافة الموقف الثانى عند الأب ، وقول الفتاتين :

**﴿ يا أبت استأجره ؛ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾**

يتبين لنا أن فيما عمله من سقى الأغنام قوة شاهدتها الفتاتان دون تحديد ، وليس بمقبول أن يكون غطاء البئر صخرة لا ترفع إلا بعشرة رجال (٣٦) ،

---

(٣٥) سورة القصص ، الآية ٢٣ .

(٣٦) ومن الجائز أن يكون هذا صحيحاً فقد أورد ابن كثير عند تفسيره الآيات أثراً بإسناد صحيح رواه أبو بكر بن أبى شيبة عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أن موسى ــ عليه السلام ــ لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما . فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .

فالفتاتان قد جاءتا وحدهما ، وفى ظنهما أن يقوما بهذا الأمر ، وإن كان فى العمل معاناة لضعفهما ولكن يبقى الأصل الأول ، وهو أن الفتاتين رأتا من موسي — عليه السلام — قوة فى مساعدته لهما دون تحديد والله أعلم ...

## تطلب الرسالة اكتمال الجسم ، والعقل ، والسلوك السوى :

إن تلك المظاهر التى سبق الحديث عنها لازمة لكل رسول يتوجه إلى الناس بإبلاغ دعوة الله سبحانه وتعالى ، والآية الكريمة :

**﴿ ولما بلغ أشده ، واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزى المحسنين ﴾** (٣٧) .

تؤكد هذا الأمر ، فإيتاء الحكم ، والعلم ، مترتب على بلوغ الجسم أشده ، واستواءه . والاتزان النفسى ، والآية على هذا تكملة للصورة السابقة لها والتى تتحدث عن تربيته طفلاً ، ومعنى ذلك أن المراد بالحكم ، والعلم ، هنا النبوة ، وتكون الآية التالية التى تتحدث عن الرجلين المقتتلين ، تتحدث عن موقف جديد ، يسبق فى الزمن إعطاء النبوة .

ويدفعنا إلى ذلك ما تحكيه الآيات الأخرى فى شكل حوار بين فرعون وموسى — عليه السلام — يقول تعالى :

**﴿ قال : ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ، قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾** (٣٨) .

والشاهد فى رد موسى — عليه السلام — على فرعون فى الآيتين الأخيرتين ، فهو يتضمن أن ما حدث قبل الفرار وهو قتل الشخص خطأ كان قبل

---

(٣٧) سورة القصص ، الآية رقم ١٤ .
(٣٨) سورة الشعراء ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

النبوة والرسالة ، وتفسير الحكم بمعنى الوحى والنبوة ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ؛ ففي الحديث عن يوسف ـــ عليه السلام ـــ قال تعالى :

**﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ﴾** (٣٩) .

وفى الحديث عن لوط ـــ عليه السلام ـــ قال تعالى :

**﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾** (٤٠) .

وفى الحديث عن داود وسليمان عليهما السلام قال تعالى :

**﴿ وكلا آتيناه حكماً وعلماً ﴾** (٤١) .

وارتبط الحكم بالقرآن الكريم حيث قال تعالى :

**﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾** (٤٢) .

**وخلاصة هذا :**

أن دخول المدينة على حين غفلة ، وفك الشجار بأسلوب معين من موسى ـــ عليه السلام ، والذى أدى إلى قتل الرجل القبطى كان قبل تكليفه الرسالة ، وإن كان دليلاً على قوة الجسم واستوائه ، والله أعلم بالصواب .

## قصة الرجلين المقتتلين :

استكمالاً لما سبق فى الحديث عن هذين الرجلين للاستدلال على قوة موسي الجسمية نقول هنا وبالله التوفيق :

حدث أن دخل موسي ـــ عليه السلام ـــ المدينة فى وقت الناس فيه قد لزموا بيوتهم ، وهجعوا ، ويكون هذا مع بداية الليل ، ولأمر مّا تصارع

---

(٣٩) سورة يوسف الآية رقم ٢٢ . (٤٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٤ .
(٤١) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٩ . (٤٢) سورة الرعد ، الآية رقم ٣٧ .

شخصان ، دون ثالث ، فالقوم قد تركوا الحركة ولزموا البيوت ، ولو كان بالمكان حركة ما كان يحدث أبداً أن يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على أن يقف نداً لآخر قبطى ، فالأول من المستضعفين ، عكس الآخر ، ولو حدث أن فكر الإسرائيلى فى رد ظلم واقع عليه سيجد أكثر من فرد يزيدونه ظلماً وضرباً ، ولكن أراد الله سبحانه أن يكون الأمر هكذا ، ويكون الفرد الثالث هو موسى — عليه السلام ، ولا رابع من البشر .

وفرصة للإسرائيلى أن يستغيث بمن يظن فيه النخوة والمروءة ، والقوة ، كما هو واضح من موسى — عليه السلام — والتعبير بالاستغاثة يفيد أن بالإسرائيلى ضعفاً لا يُمكّنه من دفع ظلم واقع عليه .

وكان من موسى — عليه السلام — التلبية الفورية للاستغاثة كما تفيد الفاء فى قوله تعالى ﴿ **فوكزه** ﴾ ثم الأثر القاتل والسريع ﴿ **فقضى عليه** ﴾ .

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ (٤٣) .

وأحس موسى — عليه السلام — الخطأ من هذا الفعل ، وهو إعطاء الوكز قوة تجاوزت الغرض منها وهو فك القتال ، والتجاوز أدى إلى القتل ، فليس القتل فى الوكز مطلقاً ، ولكن فى مجاوزته الحد وزيادته قوة .

وترك هذا الخطأ جملة آثار نفسية ، واجتماعية ، وشغله فى الحوار مع فرعون .

**ومن هذه الآثار :**

منها إحساسه أنه وقع فريسة للشيطان ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى :

---

(٤٣) سورة القصص ، الآية رقم ١٥ .

﴿ **قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** ﴾ (٤٤)

فاسم الفاعل ﴿ **مضل** ﴾ من أضل يدل على أن فاعل الإضلال هو الشيطان لعنة الله عليه ، ولا يمنع هذا التعبير فى موقف آخر قال : ﴿ **فعلتها إذن وأنا من الضالين** ﴾ (٤٥) ، فاسم الفاعل ضال من ضل أى أخطأت طريق الصواب ، فاعله هو موسى ـــ عليه السلام ـــ لأنه قام بالفعل من حيث الواقع .

ومنها : إحساسه أنه ظلم نفسه بهذا العمل ، ويلزمه الاستغفار من هذا الذنب ، وقد لجأ إلى طلب المغفرة بالذلة لله سبحانه ، وتقديم الاعتراف بالذنب ، قال تعالى :

﴿ **رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (٤٦) .

ومنها : الإفادة فى المستقبل من هذه التجربة ، وأن هذه الإفادة غير منحصرة فى مثل هذا الوقت فقط بل على مستوى أعرض وأطول .

. ﴿ **قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ (٤٧)

ومنها : تخوفه من فتك القوم به حين يعلمون .

فقد حدث فى صباح اليوم التالى أن تكرر موقف الإسرائيلى مع قبطى آخر ، بعدما عاهد موسى ـــ عليه السلام ـــ ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، فما كان من موسى ـــ عليه السلام ـــ إلا أن وجه للإسرائيلى لوماً ، وكأنه دون إخوانه الإسرائيليين على جانب من الشغب . وتوهم الضعيف أن الوكزة هذه المرة له ، فأسرع بإفشاء سر الليلة السابقة ، وإن كان قد فك الشجار دون وكز ودون بطش فقد تتابعت الآثار لما حدث سابقاً .

قال تعالى :

---

(٤٤) سورة القصص ، الآية رقم ١٥ .
(٤٥) سورة الشعراء ، الآية رقم ٢٠ .
(٤٦) سورة القصص ، الآية رقم ١٦ .
(٤٧) سورة القصص ، الآية رقم ١٧ .

**﴿ فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال : يا موسى ، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ (٤٨) .**

وبالإضافة إلى هذا الفهم تدل الآيات أيضاً أنه قد شاع بين الناس وبخاصة الإسرائيليين أن موسى يدعو إلى الإصلاح بشكل عام ، شأن كل رسول قبل مبعثه بالرسالة .

وكان التناقض بين الدعوة إلى الخير ، والعمل فى الواقع مدعاة للإنكار والتكذيب للدعاة .

ومنها : تآمر رؤساء القوم للانتقام للرجل المقتول الذى قتله موسى — عليه السلام — ولم يعدم موسى من القوم من يُسرع إليه بالنصح وتجنب خطر القوم ، وذلك بالخروج من البلد بالكلية .

**﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾ (٤٩) .**

## الخروج من مصر إلى مدين :

واستجاب موسى — عليه السلام — لمن قدم له النصيحة ؛ لأنه وجد نفسه أمام أمرين لا ثالث لهما :

( ا ) الخروج من مصر ، والفرار من وجه القوم الذين يلاحقونه ، وقد كانوا من رؤسائهم وسادتهم وفى هذا يأمن على نفسه من جهة ، ولكنه سيُحرم من الوطن الذى ولد فيه ، وعاش ، وبه قومه وعشيرته .

---

(٤٨) سورة القصص ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٤٩) سورة القصص ، الآية رقم ٢٠ .

(ب) الإقامة بالوطن ومواجهة القوة بالقوة ، وفى هذا عدم حرمان من الوطن ولكن المخاطر ستظل تلاحقه ، فعليه أن يدبر أمرها .

ورضى موسى — عليه السلام — بالعمل الأول ، وفضله على الثانى ، لأن الإقامة بالوطن إذا ما تعارضت مع الاستمرار فى الإصلاح ، كان المرء مع الإصلاح أين كان ، وقد يكون فى مستقبل الأيام عودة ، وقد كان ، وقدمت هذه التجربة التاريخية للنبى الخاتم — ﷺ — فكانت هجرته إلى المدينة المنورة لنفس السبب ، ثم كانت العودة بفتح مكة ، وعلى الرغم مما لحق موسى من خوف ، وصار يتلفت حوله وقد صمم على الخروج من مصر ، والهجرة إلى أرض مدين فى سيناء .

فقد تضرع إلى ربه الكريم راجياً منه النجاة من القوم الظالمين ، فإن كان قد بذل من الأسباب المقدورة فهو يعلم علم اليقين بأن ربه سبحانه هو الذى سينجيه الآن ، كما أنجاه سابقاً .

وعبر موسى — عليه السلام — الحدود حتى دخل أرض سيناء إلى أرض مدين حول خليج العقبة ، والجزء الذى أقام به هو الذى بداخل الجزيرة فى سيناء لا الجزء المقابل داخل الجزيرة العربية ، والتى كان بها شعيب — عليه السلام — كما سبق آنفاً .

وحدث أن رأى فتاتين تذودان ، وقدم لهما المساعدة ، ﴿ **ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾ (٥٠) وبدأت الأمور تبتسم له ؛ فهذا ظل قد تفيأه ، وتلك الفرص قد أُتيحت له بالمساعدة ؛ لأنها النافذة إلى قلوب الناس ، وهو بحاجة فى دعوته إلى القلوب أولاً .

وقد كان .

وكانت تلك الأسرة الطيبة أسرة شعيب — عليه السلام — وأى كسب أعظم ، وأكبر من كسب قلوب أسرة نبوية .

---

(٥٠) سورة القصص ، الآية رقم ٢٤ .

وها هى بوادرها ، فالفتاة ، أتت إليه ، تمشى على استحياء وليست متبرجة سافرة متبجحة ، ﴿ **قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ (٥١) إنه لم يفعل ما فعل لقاء أجر ، ولكنه أسرع بالذهاب إلى الرجل الكبير ، ولهذا طوت الآيات ما كان من رده على الفتاة ، وتنقلنا مباشرة إلى بيت الشيخ الكبير ، يحكى قصته ، وقد آنس فيه ، وفي أهل بيته الراحة ، والاطمئنان .

﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ (٥٢) .

وأشارت إحدى الفتاتين على الوالد بأن يستأجر هذا الرجل ، وذاك اقتراح يكمل الفهم للفتاة ، فهى على استحياء حين تمشى ، وهى تقدم النصح ، وتبرهن على اقتراحها ؛ فالرجل قوى أمين ، فمن صفات العامل الأساسية :

( ا ) القوة الجسمية التى تمكّن من أداء العمل .

(ب) الأمانة وهى هنا لها جهتان :

ــ أمانة على الأموال التى ستكون فى حوزته .

ــ وأمانة على الفتاتين فلا يفكر فيما يخدش الحياء .

**وقد لمست الفتاتان تلك الجوانب :**

ــ فالقوة قد ظهرت فى سقيه الأغنام كما اتضح من الأثر الذى رواه ابن أبى شيبة السابق بالهامش .

ــ والأمانة على الأموال تظهر من عدم طلبه أجراً لقاء ما قدم من مساعدة .

ــ والأمانة على الأهل فهمتها الفتاتان من تصرفه معهما ، ودل عليه ما سبق من حديث مسلم أن موسى كان رجلاً حيياً ، وما رواه كل من البخارى

---

(٥١) سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ . (٥٢) سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ .

ومسلم من أنه لم يكن يغتسل عرياناً كعادة قومه ، فرجل على هذا الحياء ، وهذا التصرف كفيل بأن يرضى شيخاً كبيراً بإقامته أجيراً عنده حرصاً على بناته ، وإبقاءً على حياته .

ولكن استجابة الشيخ الكبير كانت أبعد من الاقتراح فقد طلب إليه أن يستمر أجيراً عنده ثمانى حجج أو عشر حجج نظير أن يزوجه إحدى البنتين ، ولعلها التى قدمت اقتراح الاستئجار .

وشاء الله تعالى أن تكون صفات زوجة النبى موسى ـــ عليه السلام ، قد جمعت سلفاً ، من براءة السلوك وسلامة التفكير ، والاستدلال على الرأى ، فهى ستسهم فى سير الدعوة إلى الله تعالى مع الزوج الكريم .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ قالت إحداهما : يا أبت استأجره ؛ إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ ، والله على ما نقول وكيل ﴾** (٥٣) .

وقد قضى موسى ـــ عليه السلام ـــ الأجل الأكبر (٥٤) وفاءً منه ، ورحم الله رجلاً سمحاً ، إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

---

(٥٣) سورة القصص ، الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٥٤) ذكر ابن كثير أثراً عن البخارى عن طريق سعيد بن جبير ، وقد سأل ابن عباس فأجابه بهذا .

## دروس وعبر :

ـــ كان الاقتصاد المصرى آنذاك يعتمد فى الدرجة الأولى على الإنتاج الزراعى والحيوانى ، وكانت مصر مركزاً لتوزيع الثروات الزراعية ، والتحكم بشأن الكثير من بلدان الأطراف .

ـــ إن الإشراف على المرافق المهمة للدولة كمرفق التموين ، وتوزيع الأرزاق مطلب من يريد إصلاح الأمة ، ولا يصح له أن يتراجع عن مثل هذه المناصب إلا إذا كان فى قبولها تضييع لما هو أهم .

ـــ إن ترك هذه المرافق فى أيدى العابثين من الأمة يضيع الفائدة المرجوة منها ، فبدل أن تكون سبباً للأمن والرخاء تكون سبباً لإثراء طائفة على حساب الطوائف الأخرى ، وامتصاص دماء الشعوب .

ـــ إن الحلقة الأولى التى يبدؤها الطاغية تجويع الشعب بالتدريج ؛ حتى يلهث وتمتد الأيدى بالضراعة إلى محتكرى الأقوات ، وتكون الفرصة لما يأتى من حلقات الإذلال للشعب .

كما سُمع فى الستينيات مسئول كبير يقول على الهواء مباشرة :

**[ إننا سنرفع أسعار المواد الغذائية والسلع بشكل عام ، فتمتص بالتدريج النقود التى بأيدى الناس ، فلا يجدون مالاً يشترون به ما يحتاجون فتتوفر السلع فنصدرها إلى العالم الخارجى لنحصل على عملة صعبة ] .**

ـــ امتلاك مصادر الثروة مسعى وغاية للطاغية ، وقد يعلن تبرير ذلك فى البداية ، ويدخل على البسطاء من الأمة ، ولكن على الداعية أن يفقه خطورة هذا التحكم .

ـــ الذى ينعم فى ظل الجاهلية هو من يقدم فروض الولاء والطاعة لفرعون ﴿ **أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال : نعم وإنكم إذاً لمن**

المقربين ﴾ (٥٥) .

ــ بمرور الأيام على احتكار الطاغية للخيرات يظن هو كما يظن الأفراد الكثيرون أن هذا حق له ، ويزعم قائلاً :

﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون** ﴾ (٥٦) .

ــ التفكير الحر سمة من سمات المجتمع الصالح ، وهو سبيل لمنع أى إنسان يريد الإفساد فى الأرض .

ــ مقياس الناس بمقياس امتلاك المال والغنى ، ميزان فرعونى ينكره الإسلام .

ــ الحرمان من التفكير الحر هو السبيل الثانى لإذلال الشعوب ، ويوطد للظلم والطغيان .

ــ إلباس الحرمان من التفكير الحر ثوب الوحدة فى الرأى صورة من صور التزييف الجاهلى .

ــ من السهل على الطاغية ، وقد جوع الشعب وحرمه التفكير أن يزعم الألوهية حيث يقول : ﴿ **ما أريكم إلا ما أرىٰ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ وتزعم بطانته أن رأيه هو الأصوب .

وكما حدث عند تغيير حكم فى إحدى البلاد أن سأل طاغية جديد نائبين له فتخوف كل منهما أن يرى رأياً مخالفاً لما سيراه ، فاتفقا على أن قالا :

[ **اخل إلى نفسك وإلهام العبقرية سيهديك إلى الأصوب ونحن نتبعك على كل حال** ] .

ــ دور المنافقين فى الفساد الموافقة على ظلم الأمة ، ثم يعلنون على الناس أنهم مصلحون .

﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن**

---

(٥٥) سورة الشعراء ، الآيات رقم ٤١ ، ٤٢ . (٥٦) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥١

**مصلحون ﴾** (٥٧) .

بل إن خطورتهم تتعدى هذا أيضاً فيصورون المصلحين بأنهم يفسدون فى الأرض .

**﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ ﴾** (٥٨) .

ومن الوسائل لتمكّن الظالم أيضاً بث الفرقة بين الناس .

**﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾** .

ــ وعلى الداعية أن يفطن لمسعى الجاهلية من أول الطريق فمعظم النار من مستصغر الشرر .

ــ ذروة المرحلة للظالم قتل المخالف فى الرأى ، أو من يظن فى المستقبل أن يخالفه الرأى ، وربما يصل إلى ذبح الأطفال لأحد سببين :

١ - تخويف الكبار ، كما حدث بذبح تلاميذ مدرسة ابتدائية وتلميذاتها جميعاً كما حدث فى دير ياسين ١٩٤٨/٤/٩ م .

٢ - وإما لتوقع أن يكبر منهم شخص يظن منه المعارضة **﴿ يستضعف طائفة منهم يُذبح أبناءهم ﴾** (٥٩) .

وكما حدث من قتل الكبار للتصفية الجسدية لكل معارض .

فقد أُعلم ألف شخص فى ساعات بالرصاص .

وكما قذف بعشرات الشباب إغراقاً عند كوبرى عباس ١٩٤٦/٢/٩ م .

وكما دفن من ماتوا تحت التعذيب فى الرمال تحت بند هارب .

وكما تمت إبادة الآلاف فى صبرا ، و شاتيلا ، عام ١٩٨٢ .

---

(٥٧) سورة البقرة ، الآية رقم ١١ . (٥٨) سورة الأعراف الآية رقم ١٢٧ .
(٥٩) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .

ـــ على الداعية أن يعتقد أن الظلم مهما اشتدت وطأته وظلمته سيزول بأمر الله على أيدى بشر وتكون الخلافة للحق كما حدث لبنى إسرائيل حين انتصر موسى وقومه على فرعون .

ـــ إن الله إذا أراد شيئاً جند لنصره الجنود ، حتى ولو كان هؤلاء الجنود من أعتى الطغاة ، ومن كان يظن أن فرعون يقوم بتربية موسى .

ـــ ربما يأتى الخير مما يُتصور أنه شر فى البداية :

فأم موسى ألقت بطفلها فى البحر تنفيذاً لوحى من الله .

ومحمد عليه الصلاة والسلام قبل فى صلح الحديبية أن يمحو كلمة رسول الله أمام اعتراض سهيل بن عمرو وقبل رد من يسلم من المشركين ، على عكس قريش لا ترد من يكفر من المسلمين .

ـــ قد يفتقد بعض المسلمين بُعد النظر كما قيل علام نُعطى الدنية فى ديننا ؟ ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ ولكن أبا بكر رضى الله عنه قال : إنه رسول الله ﷺ .

ـــ وكما جند الله فرعون لخدمة الطفل موسى ـــ عليه السلام ـــ رقق قلب الزوجة فكانت نعم المربية ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك** ﴾[٦٠]

ـــ على الداعية أن يأخذ من سيرة الأخت مثلاً .

إن أخت موسى ـــ عليه السلام ـــ ضربت مثلاً طيباً فى أسلوب الاستخبارات :

الاقتراب من مكان الحادث .

عدم إشعار الخصم بالمهمة ، ثم الوصول إلى الغاية .

التعمية على الخصم بالإسهام فى حل المشكلة .

---

(٦٠) سورة القصص ، الآية رقم ٩ .

ـــ على المرء أن يعتقد أن الله يكلف الأصحاء الأقوياء الأذكياء ذوى العفة والمروءة برسالته . كما كان موسى ـــ عليه السلام ـــ ، وأن الله سبحانه يبرئه من أى عيب يخدش هذا .

**ـــ مقياس التفاضل بين العمال أمران :**

١ - القوة بجميع جوانبها .

٢ - الأمانة بجميع علاماتها .

إن بنت شيخ مدين هُديت وقدمت نصيحة لأبيها « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، على هذا الأساس ، ولم يمنعها الحياء عن النصيحة فى الحق .

ـــ عزة الداعية فى الخشية من الله سبحانه ، وعدم الخوف من الناس ، وإن طلب إليه الحذر منهم .

ـــ التفاوت بين الطبقات من سمات المجتمع المصرى آنذاك وشجع ذلك الطاغية فرعون ليستقر فى سلطانه .. فالفرقة لا تكون قوة .

ـــ تقديم النصيحة للمؤمن حرصاً على حياته واجب دينى ﴿ **فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ والاستجابة للناصح مطلوبة ، وإلا فالتعرض للفتنة غير مطلوبة شرعاً [ **اللهم لا تفتنا فى ديننا ولا تجعل مصيبتنا فى أنفسنا** ] .

على الأب أن يختار لابنته من كان على دين وأمانة ويؤدى واجب الزوجية .

ومنطوق الحديث النبوى فاظفر بذات الدين تربت يداك (٦١) يدل على اختيار الزوجة الصالحة ومفهومه أيضاً يدل على اختيار الزوج الصالح .

---

(٦١) جزء من حديث أخرجه الشيخان ، وغيرهما .
فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :
« **تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » البخارى جـ ٧ ص ٩ كتاب النكاح ، باب الأكفاء فى الدين . ومختصر مسلم جـ ١ ص ٢٠٧ كتاب النكاح ، باب فى نكاح ذات الدين رقم ٧٩٨ . مع تغيير لفظ « ولجمالها » ، وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، والدارمى ، وأحمد .

# موسى وهارون ـــ عليهما السلام ـــ المرسلان إلى فرعون

ـــ عبر سيناء فى طريق العودة .
ـــ التكليف بالرسالة ، والبراهين على صدق الدعوة .
ـــ الآيات الدالة على صدق دعوة موسى ـــ عليه السلام .
ـــ سؤال موسى ربه .
ـــ لمن أرسل موسى وهارون ـــ عليهما السلام ؟
ـــ من فضائل الخضر ـــ عليه السلام .
وتعلم موسى ـــ عليه السلام ـــ منه .
ـــ الذهاب إلى فرعون بمصر .
ـــ اللقاء بفرعون .
ـــ حوار حول العقيدة .
ـــ دور المعجزة فى الدعوة .
ـــ دروس وعبر .

## عبر سيناء فى طريق العودة :

وفى طريق العودة إلى مصر بهدف رؤية الأهل ، والوطن ، يُعدل هذا الهدف بتكليف من السماء ، صار الهدف الجديد هو مواجهة فرعون نفسه منكراً عليه زعمه الألوهية ، وداعياً له ولقومه على اختلافهم إلى عبادة الله وحده ، وطالما أن التكليف من الله سبحانه الذى رعاه ، وحماه منذ ولادته فعليه أن يذعن للأمر ويقوم بالرسالة على خير وجه .

**فمتى كان هذا التكليف ؟**

اتجه موسى ــ عليه السلام ــ بأهله نحو مصر عابراً سيناء ، الجو بارد ، والليل دامس ، والمكان جزء من الوادى الأيمن فى بقعة مباركة على شاطئ خليج العقبة الشرق قريباً من ديار مدين ، وحيث الشجرة هناك والطور ، وتكون الحاجة ملحة لأمرين :

( ا ) الاستفسار عن الطريق الصحيح .

(ب) إحضار جذوة يستدفئ هو وأهله بها .

واتجه موسى ــ عل
الهدف الأسمى : نداء الله
والرسالة .

وقد تناولت الآيات القرآنية هذا الموقف فى أكثر من موضع فى سور مكية .

فمغادرته إلى مصر يُفهم من قوله تعالى :

﴿ **فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً** ﴾ (١) .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩

ومروره بسيناء يُفهم من قوله : ﴿ **من جانب الطور** ﴾ (٢) .

وبرودة الجو مما يدل على فصل الشتاء يُفهم من :

﴿ **جذوة من النار لعلكم تصطلون** ﴾ (٣)

و ﴿ **لعلى آتيكم منها بقبس** ﴾ (٤)

و ﴿ **آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون** ﴾ (٥)

والوقت ليل يُفهم من قوله تعالى : **جذوة** ، **قبس** ، **وشهاب** .

وشاطئ الخليج الشرق لسيناء من قوله : ﴿ **الوادى الأيمن** ﴾ (٦)

والاستفسار عن الطريق ، من قوله :

﴿ **لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ (٧)

و ﴿ **أو أجد على النار هدى** ﴾ (٨)

و ﴿ **سآتيكم منها بخبر** ﴾ (٩)

وفى بقعة مباركة ووصف الشجرة من قوله :

﴿ **فى البقعة المباركة من الشجرة** ﴾ (١٠)

و ﴿ **أن بُورك من فى النار ومن حولها** ﴾ (١١)

و ﴿ **بالوادى المقدس** ﴾ (١٢)

---

(٢) سورة القصص الآية ٢٩

(٣) سورة القصص الآية ٢٩ (٤) سورة طه الآية ١٠

(٥) سورة النمل الآية ٧ (٦)سورة القصص الآية ٣٠

(٧) سورة القصص الآية٢٩ (٨) سورة طه الآية ١٠

(٩) سورة النمل الآية ٧ (١٠)سورة القصص الآية ٣٠

(١١) سورة النمل الآية ٨ (١٢) سورة طه الآية ١٢

والنداء من الله سبحانه يُفهم من :

**﴿ أن يا موسى ، إنى أنا الله رب العالمين ﴾** (١٣)

و **﴿ يا موسى ، إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾** (١٤)

و **﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى ﴾** (١٥)

والقرب من الطور يُفهم من :

**﴿ من جانب الطور ﴾** (١٦)

وهكذا يعطينا القرآن الكريم تحديدات واضحة للموقف .

## التكليف بالرسالة ، والبراهين على صدق الدعوة :

وأصاخ موسى ــ عليه السلام ــ للنداء ووعاه تماماً :

**﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾**

**﴿ يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾**

**﴿ إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحي ، إنى أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾** (١٧)

وكان النداء تكليفاً ، ثم كانت براهين ومعجزات منذ اللحظة الأولى .

أَعْلَمَ الله سبحانه موسى ــ عليه السلام ــ حين ناداه بالوادى المقدس فى طور سيناء جملة أمور :

---

(١٣) سورة القصص الآية ٣٠ (١٤) سورة النمل الآية ٩

(١٥) سورة طه الآية ١٣ (١٦) سورة القصص الآية ٢٩

(١٧) سورة طه الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

١ – أنه قد اختاره نبياً ﴿ **وأنا اخترتك** ﴾

٢ – وأن وحياً سينزل عليه من السماء .

٣ – وأن عليه أن يستمع لهذا الوحى ﴿ **فاستمع لما يُوحى** ﴾ .

٤ – أن الله إله واحد ، ولا إلَهٌ إلا هو ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا** ﴾ .

٥ – وعليه أن يتوجه إليه وحده بالعبادة ، وإقامة الصلاة ﴿ **فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ .

٦ – وأن الحياة الدنيا ستنتهى حتماً .

٧ – وأن يوم القيامة آت .

وأن كل نفس تُجازى فى الآخرة على ما عملته ، وقدمته فى الدنيا ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ .

٩ – وعليه أن يثبت على دعوة الحق ، ولا يؤثر فيه من كفر بالله سبحانه .

١٠– وأن من كفر متبع للهوى ، والغايات الشخصية .

١١– وأن الرافض لمنهج الحق سيهلك حتماً بالآخرة ، وقد يعجل الله له جزءاً من العذاب فى الدنيا ﴿ **فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى** ﴾ .

١٢– وأن الله سبحانه يحذر نبيه من النكوص عن منهج الدعوة .

وتلك عقيدة التوحيد ، وتشريع موحى به من الله سبحانه ، وحياة تقوم على أساس من هذا التشريع عبادة وتحملاً للمسئولية ، ونبذاً للكفر وأوليائه ، وصموداً أمام جنوده وأتباعه ، وثباتاً على الحق الذى يجب أن يكون فى كل أمور الحياة .

ولكن أنَّى للكفر أن يستمع للمنطق ، ويترك الهوى والشيطان ، فكانت الآيات المادية يظهرها الله سبحانه على أيدى رسله ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ دليل على صدق دعواهم .

## الآيات الدالة على صدق دعوة موسى ـــ عليه السلام :

### ١ - العصا :

إنها عصا عادية ليس فيها من حيث أصلها ما يُخالف غيرها من العصى ، والعصا تُتخذ للمرء يتوكأ عليها وهو يسير ، وتعينه على جمع غنمه ، وهو يرعى ، ويدفع الأذى العادى بها عن نفسه إذا ما تعرض إليه .

وأراد الله سبحانه أن يُظهر لموسى ـــ عليه السلام ـــ أن عصاه على هذه الصفات ، قبل أن يكون ما يكون ، وعلى موسى ـــ عليه السلام ـــ أن يُراجع عصاه ؛ ليتأكد من هذه الصفات ، ونلمح هذا من السؤال والجواب التاليين :

سأله الله تعالى ، قائلاً : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى ؟** ﴾ .

وكانت إجابته : ﴿ **قال : هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى** (١٨) **، ولى فيها مآرب أخرى** ﴾(١٩) .

ثم قال الله سبحانه لنبيه موسى ـــ عليه السلام ـــ أن يلقى عصاه على

---

(١٩)سورة طه الآيات رقم ١٧ ، ١٨

(١٨) وفى ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : كنا مع رسول الله – ﷺ – ( بمر الظهران ) نجنى الكَبَاث ( وهو النضيج من ثمر الأراك ) وأن رسول الله – ﷺ – قال : « **عليكم بالأسود منه ( زاد البخارى : فإنه أطيبه ) قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : وهل من نبى إلا وقد رعاها** » رواه الشيخان ، مختصر مسلم رقم ١٣٢١ جـ ٢ ص ١١٤ كتاب الأطعمة باب الكباث الأسود ، البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ١٩١ .

الأرض ، فألقاها ممتثلاً أمر ربه سبحانه فإذا هى حية تسعى وتهتز كالجان .

وعلى الرغم من يقينه بربه سبحانه ، فهول المفأجاة الأولى كان له تأثير فى نفسه فقد ولى مدبراً دون أن ينظر ثانية إلى العصا الحية ، وكان الأمر الصريح الواضح بالإقبال إلى عصاه وتناولها من جديد ثم النهى عن الخوف ، وإثبات أن الأمن والأمان للمرسلين ، وكان امتثال النبى الكريم ، وعادت العصا إلى سيرتها الأولى .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ قال : ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى ، قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾** (٢٠) .

وقال : **﴿ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، يا موسى ، أقبل ، ولا تخف إنك من الآمنين ﴾** (٢١) .

وقال : **﴿ وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ﴾** (٢٢) .

وزال الخوف الذى عرض لموسى ـــ عليه السلام ـــ لتكون التجربة الثانية أمام فرعون بعيدة عنه .

وكانت معجزة العصا فى مقدمة معجزاته ؛ لتواجه ما كان عليه القوم من سحر لا يغير من طبيعة الأشياء ويقف عند حد التخييل والمكر ، وخداع الأنظار . كما سيأتى .

---

(٢٠) سورة طه الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

(٢١) سورة القصص الآية ٣١

(٢٢) سورة النمل الآية ١٠

## ٢ - اليد :

مهدت معجزة العصا السابقة لمعجزة أخرى ، وهى اليد ، فلم تسبقها مراجعة كما سبق للمعجزة الأولى .

فقد أمر الله سبحانه بأن يدخل يده فى جيبه ( والجيب هو فتحة الصدر من الثوب ) فإذا ما أخرجها ثانية ظهرت بيضاء تلفت الانتباه ، دون سبب مادى اعتاده البشر ، وهذا البياض الذى ظهر باليد لم يسئ إليها فالذى وهبها هذا البياض هو الذى خلقها ، وخلق صاحبها ، وخلق الناس أجمعين .

ولأمر أراده الله سبحانه كانت معجزة اليد هى الثانية بعد معجزة العصا ، ولو كانت الأولى فهول المفاجأة يكون أعنف لأن اليد لا يستطيع أن يفر منها .

قال الله تعالى :

﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾ (٢٣) .

وقال : ﴿ **وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه** ﴾ (٢٤) .

وقال : ﴿ **واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى** ﴾ (٢٥) .

وهاتان الآيتان مصاحبتان لموسى ــ عليه السلام ، ويواجه بهما ما عليه القوم من سحر .

والآيات القادمة ، تتصل بفرعون وآله عقوبة وانتقاماً .

٣ - ذكر الله سبحانه فى موضعين من القرآن الكريم أن الآيات الدالة

---

(٢٣) سورة القصص الآية ٣٢

(٢٤) سورة النمل الآية ١٢ . (٢٥) سورة طه الآية ٢٢

على صدق دعوة موسى — عليه السلام — تسع فقد قال فى آية النمل السابقة ﴿ **فى تسع آيات إلى فرعون وقومه** ﴾ وقال أيضاً : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ (٢٦) ولكن حصر هذه الآيات جاء فى موضع ثالث فبعد الحديث عن الآيتين السابقتين فى سورة الأعراف ، وما كان بشأنهما فى مواجهة القوم ، بدأ بقية الآيات بما يفيد الغاية من السبع الباقية وهى الاختبار ، والابتلاء فقال :

﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾ (٢٧) وقال : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل ، والضفادع والدم آيات مفصلات** ﴾ (٢٨) .

فالآيتان : السنين وهى الجدب وقحط الأرض ، ونقص الثمرات كانتا بعد التمرد على آيتى العصا واليد ، وتصورهم الخاطئ أن موسى يفسد فى الأرض . فأخذهم الله سبحانه من جنس ما زعموا لعلهم يذكرون .

والآيات الخمس الباقية كانت رداً عليهم حين جَدَّ تصور خاطئ فإذا ما كانت نعمة نسبوها إليهم ، وإذا ما كانت مصيبة ردوا سببها إلى موسى — عليه السلام — تطيراً وتشاؤماً ثم إصرارهم على الكفر والعناد وعدم الإيمان بموسى .

والآيات الخمس هى : إرسال الطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

فكانت الأمطار الغزيرة المتلفة للزورع .

وكان الجراد على غير المعهود منه فهو يمثل فى ذاته طعاماً للإنسان ، ولكنه هنا أكل ما يأكله الإنسان فكان عذاباً عليهم .

وكان القمل وهو فى ذاته أذى ، والآية تؤكد ذلك ، وتشير إلى أن تركه بعدم النظافة مخالف لما أمر الله به من النظافة والطهارة .

---

(٢٦) سورة الإسراء الآية ١٠١ (٢٧) سورة الأعراف الآية ١٣٠
(٢٨) سورة الأعراف الآية ١٣٣

وكانت الضفادع التى مثلت بكثرتها أذى وعذاباً على قوم فرعون .

وكان الدم ، وهو لسيولته يشير إلى اختلاطه بما هو سائل من ماء يشربونه ، أو أكل يطعمونه .

فهل كانت هذه الآيات على تنوعها مجال تصديق من فرعون وقومه ؟ لا .

وقد رتبها الله سبحانه على هذا النحو ، ولم تكن آيات الأخذ والإرسال إلا بعد أن جحدوا بآيتى العصا واليد .

وهى أيضاً من حيث الزمن على هذا الترتيب فآيتا العصا ، واليد بدأت مع اختيار موسى — عليه السلام — نبياً ، ورسولاً ، وهو بالوادى المقدس فى طور سيناء ، والآيات الباقية كانت بمصر حيث المكان والناس .

وكلف الله سبحانه موسى — عليه السلام — الذهاب إلى فرعون مصر بالأوليين العصا واليد . والله أعلم .

## سؤال موسى ربه :

اتجه موسى — عليه السلام — بعد تكليفه الرسالة والدعوة إلى ربه فسأله وطلب إليه ، وتمنى أموراً تساعده وتعينه فى دعوته للناس .

قال الله تعالى فى ذلك :

**﴿ قال : رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً ﴾** (٢٩) .

ما طلبه موسى — عليه السلام — هنا ، يعتبر من قبيل الأمور الطبيعية

---

(٢٩) سورة طه الآيات ٢٥ — ٣٥ .

المساعدة له ، أما ما أُعْطِىَ له من ربه من آيتى العصا ، واليد ، فمن قبيل المعجزة ، وإعطاء الله سبحانه يدل على أنه الخالق للأشياء جميعها .

ومع كل سؤال طلبه موسى ـــ عليه السلام ـــ بَيَّنَ الغاية منه ، مما يدل على حرصه على بلوغ الدعوة مبلغها ، منذ تكليفه إياها .

## المطلب الأول : شرح الصدر .

إن الأساس الذى يرتكز عليه نجاح الداعية فى دعوته أن يكون صدره مستريحاً ومطمئناً لدعوته ، يحبها ، ويبذل الكثير من أجلها ، على الرغم من العقبات التى تقف حاجزاً فى سبيل إنجاحها ، وإلا فأى كسب يتحقق لدعوة جوفاء لا تلتصق بنوايا القلب ، وراحته .

## المطلب الثانى : تيسير الأسباب .

إن مداخل النفوس ببذل الأسباب بعد دراستها ، مظنة الإجابة ، وإلا فكيف تستجيب القلوب الغلاظ إذا واجهتها بما لا تعرف ؟ بالإضافة إلى جِدَّةِ الدعوة .

وتيسير الأمور من الله سبحانه وتعالى ، ولذا طلب إلى ربه أن ييسر له الأسباب بشكل عام ، وما طلبه سابقاً ولاحقاً هو من تيسير الأسباب أيضاً .

## المطلب الثالث : طلاقة اللسان .

إذا ما كان الداعية فصيح اللسان ، واضح اللفظ والعبارة ، فقه الناس قوله دون معاناة ، وهذا يدل من جهة على اختيار الأكفاء فى الحديث لدعوة الناس حتى تؤتى الدعوة ثمارها ، وتنكير عقدة فى قوله عقدة من لسانى يدل على أنه طلب ما تكون به الحجة أبلغ فقط .

## المطلب الرابع : الاستعانة بهارون ــ عليه السلام .

فى المطلبين الأول والثانى لم تُذكر العلة لوضوحها ، فشرح الصدر ، وتيسير الله الأمر لازمان لكل لحمل يُرتجى منه النجاح ، وفى المطلبين الثالث ، والرابع بَيَّنَ العلة ، فحل عقدة اللسان لمزيد من الفقه والفهم من المخاطب ، والاستعانة بالبشر ــ شريطة أن يصحبها إيمان بتوفيق الله سبحانه ــ لمزيد من النجاح فى الدعوة .

وفى هذا المطلب أمران :

تحديده وتعليله .

وحدد مطلبه بقوله : ﴿ **واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى** ﴾ .

فقد توجه إلى الله سبحانه بقوله : ﴿ **واجعل** ﴾ ، فالذى يدبر الأمور هو خالق الأمور وهو الله سبحانه .

وحدد أيضاً أن يكون له معيناً فى الذهاب إلى فرعون كما قال : ﴿ **لى** ﴾ والإعانة فى درجة المشاركة والتبعية لأن التكليف أصلاً لموسى ــ عليه السلام ، ولا يليق به إلا أن يتحمل معاناة أكثر ، وحدد الشخص حين قال : ﴿ **هارون أخى** ﴾ فليس أى هارون ، ولكنه هارون الأخ .

وتعليله : وإن فُهِمَ ضمناً من السابق ، فقد صرح به بعد :

﴿ **اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً** ﴾ .

وامتداد التعليل على هذا النمط يعطينا تلك المودة التى أحسها موسى من ربه سبحانه ، وهو الذى كان قد بدأ الخطاب بالخوف حين انقلبت العصا حية ، وها هو الآن قد اطمأن جانبه إلى العزيز الغفار ، البصير بعباده ﴿ **إنك كنت بنا بصيراً** ﴾ كنت بنا ، لا كنت بى ؛ فالموقفُ يدعو إلى ذلك ، وكأنه يستذكر تلك الأحداث الفائتة له ولأسرته ، ولجميع بنى إسرائيل .

**والتعليل يتضمن أربعة جوانب جاءت فى صيغة الرجاء :**

ـــ شد الأزر بهارون ـــ عليه السلام .

ـــ المشاركة فى أمره ، وليس من أمر هنا إلا الرسالة ، وترشح هذا الآيات اللاحقة ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ...** ﴾ (٣٠) .

ـــ والهدف الأسمى تحقيق معنى العبودية للإله الواحد ، وتنزيهه عن الشريك ؛ ﴿ **كى نسبحك كثيراً** ﴾ .

ـــ ثم الذكر فى كل مكان وزمان سراً ، وعلانية ، بيننا ، وبين أنفسنا ، وأمام من طغى وتجبر ؛ صدعاً بقول الحق .

وكانت الإجابة سريعة وفى عبارة وجيزة ، ﴿ **قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ ولتعلم يا موسى أن الله قد مَنَّ عليك بنعمه السابقة منذ أن ولدت ، كما تذكر الآيات اللاحقة ﴿ **ولقد مننَّا عليك مرة أخرى ...** ﴾ .

وقال أيضاً :

﴿ **وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ (٣١) .

وقد لبى الله طلبه فقال :

﴿ **قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ (٣٢) .

وقال : ﴿ **قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ (٣٣) .

---

(٣٠) سورة طه الآية ٤٢ وما بعدها (٣١) سورة القصص الآية ٣٤
(٣٢) سورة القصص الآية ٣٥ (٣٣) سورة طه الآية ٣٦

فالغاية المرادة فقه الدعوة ، فهل يتأتى ذلك بغير فصاحة الداعية .

إن موسى ـــ عليه السلام ـــ يزن نفسه بميزان دقيق ، لا يحابى نفسه ، وحاشاه عن المحاباة ، فإذا ما كان به من عيب ، فليقرع باب الرجاء لمولاه الكريم ، الذى لا يرد من يلجأ إليه ، فإن كان بلسانه من عقدة فعليه أن يطلب حلها .

## المطلب الخامس : وزارة هارون ـــ عليه السلام .

ويختم موسى ـــ عليه السلام ـــ سؤاله ربه سبحانه ببيان صفات من يرافقه فى مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه وهو هنا هارون ـــ عليه السلام .

إنه بمثابة الوزير لى أستشيره ، وأسأله (٣٤) .

---

(٣٤) وقد حدث فى غزوة تبوك أن خلف النبى – ﷺ – على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . فقال : « **أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى – غير أنه لا نبى بعدى ؟** » رواه مسلم عن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – ، مختصر مسلم جـ ٢ ص ١٩٤ رقم ١٦٣٩ باب فى فضائل على – رضى الله عنه .

ويدل الحديث على تلك العلاقة التى أسس عليها موسى سؤاله من شد الأزر ، والتقوى ، والوزارة فى حياته دون انتقاص للآخرين ، ودون امتداد لها بعد حياته فى صورة وراثة ، ونبوة ، ثم الموقف الذى سيق فيه الحديث ، وتكليفه جندياً مأموراً ؛ بأن يكون على الثغرة الداخلية بالمدينة ، وتطييب الخاطر الذى تكرر فى كثير من المواقف مع كثير من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ويرد سؤال هنا : ما مقدار صحة الاستعانة بغير الله سبحانه ؟ ومتى تكون ؟

طلب موسى – عليه السلام – إلى ربه الاستعانة بهارون كما سبق ، وقد روى الترمذى حديثاً : وقال : حديث حسن صحيح : عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كنت خلف النبى – ﷺ – يوماً فقال :

« **يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن** =

= **ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف »** .

الأربعون النووية وشرحها للإمام النووى ، الحديث التاسع عشر ، نشر قصى الدين الخطيب . قال النووى فى شرحه لهذا الحديث :

قوله – ﷺ – « **إذا سألت فاسأل الله** » إشارة إلى أن العبد لا ينبغى له أن يعلق سره بغير الله ، بل يتوكل عليه فى كل أموره ، ثم إن كانت الحاجة التى يسألها لم تجر العادة بجريانها على أيدى خلقه كطلب الهداية ، والعلم ، والفهم فى القرآن والسنة وشفاء المرض وحصول العافية من بلاء الدنيا ، وعذاب الآخرة سأل ربه ذلك .

وإن كانت الحاجة التى يسألها جرت العادة أن الله سبحانه وتعالى يجريها على أيدى خلقه ، كالحاجات المتعلقة بأصحاب الحرف ، والصنائع وولاة الأمور سأل الله تعالى أن يعطف عليه قلوبهم فيقول : اللهم حنن علينا قلوب عبادك وإمائك وما أشبه ذلك . ولا يدعو الله تعالى باستغنائه عن الخلق لأنه – ﷺ – سمع علياً يقول : اللهم اغننا عن خلقك فقال : « **لا تقل هكذا ، فإن الخلق يحتاج بعضهم إلى بعض ، ولكن قل : اللهم اغننا عن شرار خلقك** » .

وأما سؤال الخلق والاعتماد عليهم فمذموم ...

قوله – ﷺ – « **واعلم أن الأمة ...** » لما كان قد يُطمع فى بر من يحبه ، ويخاف شر من يحذره ،قطع الله اليأس من نفع الخلق بقوله : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ ( سورة يونس ١٠٧ ) ولا ينافى هذا قوله تعالى حكاية عن موسى– عليه الصلاة والسلام – ﴿ **فأخاف أن يقتلون** ﴾ ( سورة القصص ٣٣ ) وقوله تعالى : ﴿ **إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ ( سورة طه ٤٥ ) وكذا قوله : ﴿ **خذوا حذركم** ﴾ ( سورة النساء ٧١ ) إلى غير ذلك . بل السلامة بقدر الله ، والعطب بقدر الله ، والإنسان يفر من أسباب العطب إلى أسباب السلامة ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ ( سورة البقرة ١٩٥ ) . انتهى كلام النووى .

وعلم المؤمن بأن كل شيء مكتوب لا ينافى فى إعطاء الأسباب حقها ، فإن الأقدار تجرى =

وتتحقق الوزارة بصورة أتم فى مثل هذا الظرف التكليفى بأن يكون من أهله .

وتشير الصفحتان السابقتان إلى هارون أخيه قبل ذكر اسمه ، ثم عقب على هذا الاختيار بتعليل جديد لهذا التحديد :

أن يشد به الأزر فتكون به قوة ، وتكون به مشاركة فى أمر الدعوة ، ويضيف موسى ــ عليه السلام ــ ما يتودد به حيث يقول : ﴿ **كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً** ﴾ وتدل هذه المطالب على ما أمره الله سبحانه من أمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه الله إلى أظلم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأشدهم كفراً ، وأكثرهم جنوداً ، وأعمرهم ملكاً ، وأطغاهم ، وأبلغهم تمرداً ، بلغ من أمره أنه ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره ، هذا وقد مكث موسى ــ عليه السلام ــ فى داره مدة وليداً عندهم ، فى حجر فرعون وعلى فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً ؛ يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له .

---

= بربط الأسباب بالمسببات . ( الناشر للأربعين النووية ) .

وقد ورد فى صحيح البخارى قول ابن مسعود – رضى الله عنه – « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » ( جـ ٥ ص ١٤ مناقب عمر ، رضى الله عنه ، طبعة كتاب الشعب ) وعن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « **والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك** » ( متفق عليه – اللؤلؤ والمرجان . رقم ١٥٥٢ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ ) فقد جمع بين السبب والموفق للسبب أن يجرى على سنته فالإسلام يعز بالأقوياء الذين يؤمنون به ، والله سبحانه هو الذى يوفقهم إلى ذلك .

أما الحديث بشأن على – رضى الله عنه – فإنه يثبت تكريماً خاصاً بعلى – رضى الله عنه – حيث إنه من أهل النبوة ، وحيث إنه من الطلائع الأولى للصحابة ، وحيث تميزه عن كثير من أصحاب النبى – ﷺ .

وينفى ما عدا ذلك من إثبات نبوة له ، أو أى شىء يدل على ذلك . والله أعلم .

هذا وقد قال الله تعالى فى الثناء عليه ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٥) .

## لمن أُرسل موسى وهارون ــ عليهما السلام .

حدد الله سبحانه دعوة موسى ــ عليه السلام ــ وذلك بالذهاب إلى فرعون مصر لطغيانه على بنى إسرائيل وتخليصهم منه ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى أكثر من موقع فى القرآن الكريم :

**﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ (٣٦) .**

**﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وقال موسى : يا فرعون ، إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ (٣٧) .**

وفى آيات أخرى كان الحديث عن موسى وهارون ــ عليهما السلام ــ بعد استجابة الله سبحانه لسؤال موسى ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (٣٨) .**

ويقول : **﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ؛ قد جئناك**

---

(٣٥) سورة الأحزاب الآية ٦٩

(٣٦) سورة طه الآية ٢٤ .

(٣٧) سورة الأعراف الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

(٣٨) سورة يونس الآية ٧٥

**بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾** (٣٩) .

وفى آيات كان الحديث عن إتيانه الكتاب وهو التوراة .

يقول الله تعالى : **﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾** (٤٠) .

ويقول : **﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلاً ﴾** (٤١) .

ويقول : **﴿ قال : يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلاً لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴾** (٤٢) .

وفى ضوء هذا الآيات وأمثالها يتبين لنا أن موسى ـــ عليه السلام ـــ أرسله الله سبحانه إلى فرعون بمصر ؛ لإنقاذ بنى إسرائيل منه ، وقد أرسل معه لهذه المهمة أخاه هارون ـــ عليه السلام ـــ وقد أوحى الله سبحانه إلى موسى وأنزل الكتاب وهو التوراة موعظة وتفصيلاً لكل شئ .

## من فضائل الْخَضِرِ وتعلم موسى ـــ عليهما السلامْ ـــ منه :

يقول الله تعالى :

**﴿ وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمضى حُقباً ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سرباً ، فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا ؛ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، قال :**

---

(٣٩) سورة طه الآيات من ٤٢ إلى ٤٧

(٤٠) سورة هود الآية ١١٠

(٤١) سورة الإسراء الآية ٢

(٤٢) سورة الأعراف ١٤٤ ، ١٤٥

أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؛ فإني نسيت الحوت ؟ وما أنسانيه إلا الشيطان ، أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال : ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصاً ، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلّمنى مما عُلمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معى صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تُحط به خبراً ؟ قال : ستجدنى - إن شاء الله - صابراً ، ولا أعصى لك أمراً ، قال : فإن اتبعتنى ، فلا تسألنى عن شىء حتى أُحدث لك منه ذكراً ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها ؛ لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً ، قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً ، قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تُصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ (٤٢) .

عن أبى بن كعب ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال :

---

(٤٢) سورة الكهف ، من ٦٠ إلى ٨٢ .

« قام موسى النبى خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسُئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال : يا رب وكيف به ؟ فقيل له : احمل حوتاً فى مِكْتَلٍ ، فإذا فقدته فهو ثَمَّ ، فانطلق ، وانطلق بفتاه يوشع بن نون ، وحملا حوتاً فى مكتل ، حتى كانا عند الصخرة ، وضعا رءوسهما وناما ، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله فى البحر سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما ، فلما أصبح ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . ولم يجد موسى مسّاً من النصب حتى جاوز المكان الذى أُمر به . فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغى . فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتهيا إلى الصخرة ، إذا رجل مسجّى بثوب ( أو قال تسجى بثوبه ) فسلم موسى . فقال الخَضِر ( بفتح الخاء ، وكسر الضاد ) : وأنّى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبراً يا موسى . إنى على علم من علم الله علمنيه . لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه لا أعلمه . قال : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، ليس لهما سفينة . فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما ، فَعُرِفَ الْخَضِرُ ، فحملوهما بغير نَوْلٍ فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر نقرة أو نقرتين فى البحر . فقال الخضر : يا موسى . ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى البحر . فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه . فقال موسى : قوم حملونا بغير نَوْلٍ ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت فكانت الأولى من موسى نسياناً . فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده . فقال موسى : أقتلت نفساً زكية

**بغير نفس . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه قال الخضر بيده ، فأقامه . فقال موسى : لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال : هذا فراق بينى وبينك » .**

قال النبى ـ ﷺ : « **يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما** » (٤٣) .

---

(٤٣) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٥٣٩ ص ٦٢٨ كتاب الفضائل، وورد فى مختصر مسلم مع اختلاف يسير جـ ٢ ص ١٨٦ رقم ١٦١١ . وورد فى هامش اللؤلؤ تفسير لمعانى مفردات هذا الحديث ، على هذا النحو :

أى الناس أعلم ؟ : أىْ منهم ، على حد ( الله أكبر ) أى من كل شىء . أنا أعلم : أى فى اعتقاده . لم يردَّ العلم إليه : أى كان حقه أن يقول : ( الله أعلم ) . بمجمع البحرين : أى ملتقى بحرى فارس والروم من جهة الشرق ، أو بإفريقية ، أو طنجة . مكتل : هو شبه الزنبيل ، يسع خمسة عشر صاعاً . فهو ثم : أى العبد الأعلم منك هناك . فاتخذ سبيله : أى طريقه . سرباً : أى مسلكاً . وكان : أى إحياء الحوت المملوح وإمساك جريه الماء حتى صار مسلكاً . غداءنا : هو الطعام يؤكل أول النهار ، نصباً : تعباً . أرأيت ؟ : أى أخبرنى ما دهانى ؟ . نسيت الحوت : أى فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت . ذلك ما كنا نبغى : أى أمر الحوت هو الذى كنا نطلب ، لأنه علامة وجدان المطلوب . فارتدَّا على آثارهما قصصاً : أى فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه يتبعان آثارهما اتباعاً . مسجى : مغطى كله . أنى ؟ : من أين ؟ . رشداً : أى علماً ذا رشد أرشد به فى دينى . النَّوْل : الأجرة . فأخذ الْخضِرُ برأسه من أعلاه : أى جَرَّ الغلام برأسه . زكية : أى طاهرة من الذنوب وهى أبلغ من زاكية . بغير نفس : أى بغير قصاص لك عليها . يريد أن ينقض : أى يسقط ، فاستعيرت الإرادة للمشارفة وإلا فالجدار لا إرادة له حقيقة . قال الْخَضِرُ بيده : أى أشار بها . هذا فراق بينى وبينك : بإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع .

قال الإمام النووى فى شرح مسلم وفى القصة بيان أصل عظيم من أصول الإسلام وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ، ولا يفهمه =

= أكثر الناس وقد لا يفهمونه كله . اهـ الهامش .

« والأحاديث التى يُذكر فيها الخضر ، وحياته ، كلها كذب ، ولا يصح فى حياته حديث واحد . » .

هكذا نص ابن القيم فى كتابه « المنار المنيف فى الصحيح والضعيف » ص ٦٧ فصل ١٦ ثم تابع حديثه : « سئل إبراهيم الحربى عن تعمير الخضر ، وأنه باق ، قال : من أحال على غائب لم ينتصف له ، وما ألقى هذا إلا شيطان » وسئل البخارى عن الخضر ، وإلياس ، هل هما أحياء ؟ فقال :

كيف يكون هذا ؟ وقد قال النبى – ﷺ – :

**« لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد »** ( رواه مسلم أيضاً ) وسئل عن ذلك كثير غيرهما فقالوا : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ ( سورة الأنبياء ٣٤ ) .

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فقال : لو كان حياً لوجب عليه أن يأتى النبى – ﷺ – ويجاهد بين يديه ، ويتعلم منه ، وقد قال النبى – ﷺ – يوم بدر :

**« اللهم إن تهلك هذه العصابة ، لا تُعبد فى الأرض »** ( رواه مسلم . المختصر رقم ١١٥٨ ، وأحمد فى المسند ) وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معروفين بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، فأين كان الخضر حينئذ ؟ . اهـ .

هذا وقد تابع ابن القيم حديثه مستشهداً بأقوال العلماء المستندة إلى القرآن والسنة ، وإجماع المحققين من العلماء ، والمعقول . فمن أراد المزيد فليرجع إلى نفس المصدر ، هذا ونص الحديث المتفق عليه السابق فى اللؤلؤ والمرجان هكذا :

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : صلى بنا النبى – ﷺ – العشاء فى آخر حياته ، فلما سلم قام فقال :

**« أرأيتكم ليلتكم هذه ؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى على ظهر الأرض أحد »** .

كتاب فضائل الصحابة ، باب قوله – ﷺ – لا تأتى مائة سنة وعلى ظهر الأرض نفس منفوسة اليوم . رقم ١٦٤٨ ص ٦٩٠ .

وجاء فى رواية البخارى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه تمارى هو ، والْحُرُّ بن قيس الفزارى فى صاحب موسى ــ عليه السلام ــ قال ابن عباس : هو خَضِرٌ ، فمر بهما أبى بن كعب ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقيِّه ، هل سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يذكر شأنه ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : ( وذكر الحديث ) (٤٤) .

وجاء فى رواية مسلم عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالى يزعم أن موسى ــ عليه السلام ــ صاحب بنى إسرائيل ، ليس هو موسى صاحب الخضر ، فقال : كذب عدو الله ، سمعت أبى بن كعب يقول : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : ( وذكر الحديث ) (٤٥) .

وجاء فى رواية أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

**« إنما سُمى الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء »** (٤٦) .

**وفى ضوء الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة يتبين لنا الآتى :**

ــ أن الإنسان مهما أوتى من علم ، فالله سبحانه هو الأعلم بكل شىء، وعلى المرء أن يرد العلم إلى الله سبحانه ، ولا يزعم أنه بلغ الغاية فيه .

---

(٤٤) صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى – عليهما السلام . فتح البارى بشرح صحيح البخارى رقم ٣٤٠٠ جـ ١٣ ، ص ١٨١ .

(٤٥) مختصر مسلم رقم ١٦١١ جـ ٢ ، ص ١٨٦ طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت .

(٤٦) أخرجه البخارى ، فتح البارى جـ ٣ ، ص ١٨٦ رقم ٣٤٠٢ ، وقال ابن حجر فى شرح الحديث : الفروة الحشيش الأبيض ، وما أشبهه ، والحشيش يبيض إذا جف ويبس ، وقيل : الفروة : الأرض البيضاء ..

ـــ أن الله سبحانه يربى أنبياءه على أقوم السبل ، كما يخص عباده المؤمنين بهدايته إياهم .

ـــ السعى فى طلب العلم ، وبذل الجهد فى هذا السبيل ؛ كما تحمل موسى ـــ عليه السلام ـــ الحركة ، والمعاناة للوصول إلى من هو أعلم منه ، يتعلم على يديه .

ـــ وأن المسافر يحتاج إلى صحبة طيبة ، كما اصطحب موسى ، يوشع ابن نون ـــ عليهما السلام .

ـــ أن نزول الحوت إلى البحر ، وجريانه فى الماء من دواعى العجب لكل من موسى ، ويوشع . ولا يدعو الأمر إلى العجب إذا كانت بالحوت حياة ، فلزم من ذلك ، أن الحوت كان من الصغر لدرجة أن يوضع فى مقطف ، ولدرجة أن يقوى على حمله شخص ويسير به مسافة طويلة ، وأن هذا الحوت لم تكن به حياة ، ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت انتباههما بحدوث أمر عجيب ليتذكرا الغرض الذى سعيا إليه .

ـــ وحين افتقدا الحوت ، وحاولا الرجوع إلى الصخرة تذكر موسى أنهما سيجدان من يتعلم على يديه ، كما قال له ربه .

ـــ على الرغم من أن النسيان للحوت ثم جريانه كان السبب فى الوصول إلى الخضر ، فإن مبدأ النسيان فى ذاته من الشيطان ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ .

ـــ الحالة التى كان عليها الخضر ـــ عليه السلام ـــ أنه كان مغطى بثوب ، وقد اختار مكاناً مبيضاً ، أكان الابيضاض من حشيش يابس ، أم أرض بيضاء فى ذاتها وأن حلوله فى المكان يجعله يخضر ، وتلك مكرمة من الله سبحانه للخضر ـــ عليه السلام .

ـــ أن تحية الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ السلام ، كما يُفهم من قوله : « **فسلم موسى** » .

ـــ وأن الخصوصية التى علمها الخضر بفضل الله ، ورحمته ، لا تعنى أنه يعلم

الغيب مطلقاً ، ولذا استفسر عمن ألقى عليه السلام متعجباً وقال : « **وأنى بأرضك السلام ؟** » ولو كان يعلم الغيب ، لعلم أن محدثه موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل ، وبعد أن عرف خاطبه بقوله : « **وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه** » .

ــ الأدب مع المعلم ، والاستئذان برفق فى أن يقوم بالتلمذة على يديه ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمنى مما عُلمت رشداً** ﴾ ؟ .

ــ وأن المعلم من لوازم تربيته ، وتعليمه أن يهيئ تلامذته ذهنياً ، ويوصيهم بالصبر على طلب العلم ، وأن التلميذ إذا ما وجدت هذه التهيئة رضى ببذل الجهد فى سبيل تحقيق الهدف المنشود ﴿ **قال ستجدنى ــ إن شاء الله ــ صابراً ، ولا أعصى لك أمراً** ﴾ .

**١ - وأن المعلم الأمثل هو من يجمع عدة أمور :**

( ا ) أن يتصف بالرحمة والرفق فما كان الرفق فى شىء إلى زانه ، وما نُزع من شىء إلا شانه (٤٧) .

(ب) وأن هذه الرحمة قبس يقذفه الله سبحانه فى قلوب عباده ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ .

(جـ) الأصل المراد نقله إلى المتعلم ، وهو العلم فى دائرة الرحمة السابقة .

( د ) وأن هذا العلم علمان : علم مادى مجرد عن الاعتقاد الصحيح ، وعلم متكامل وعلى أساس عقيدة التوحيد ﴿ **وعلمناه من لدنا علماً** ﴾ .

---

(٤٧) نص هذا الحديث الشريف : « **إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله** » متفق عليه رقم ٦٣١ من رياض الصالحين ، باب الحلم والأناة ، وفى رواية لمسلم : « **إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على ما سواه** » رقم ٦٣٢ ولمسلم أيضاً : « **إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه** » رقم ٦٣٣ من الرياض ورقم ١٧٨٤ من مختصر مسلم جـ ٢ ص ٢٣٤ باب فى الرفق .

( هـ ) وأن التعليم لا بد وأن يسبقه تعلم ، فعن عثمان – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » (٤٨) .

والتعلم فيه مشاركة من الطرفين : التلميذ ، والمدرس ؛ فالتلميذ يرغب ويتجاوب . ويبذل من ذات نفسه .

( و ) وأن المعلم يختار من مشاهد الطبيعة وسائل إيضاح تعينه على فهم المقصود كما اختار الخضر العصفور الذى أخذ قطرة ماء ، للدلالة على مقصده .

ــ وأن الأمر الغريب سريعاً ما ينكره التلميذ ، ولكن ببيان الأسباب يصل إلى درجة الاقتناع ، والرضا .

ــ وأن الداعية إذا ما كان معروفاً لدى قومه بالصلاح ، وجد منهم المساعدة ، والخدمة ؛ كما خدم أهل السفينة الخضر بنقله ، دون مقابل .

ــ وأن النفس تُقَادُ بالنفس قصاصاً ، وأن البرىء زكية نفسه ، وأن القصاص كان فى شريعة موسى ــ عليه السلام ــ وهذا موافق أيضاً لقوله تعالى :

﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ﴾ (٤٩) .

ــ الرد على الإساءة بالإحسان ، وأن اتخاذ الأجر على العمل جائز فى ذاته ، وللعامل أن يتنازل عنه .

ــ التحايل على الطاغوت الذى يغتصب أموال الناس ، كما عيبت السفينة ؛ حتى لا يأخذها هذا الطاغوت لما بها من عيب .

ــ أن المال الذى جُمع من حلال له قيمة كبيرة عند الله سبحانه ، وأن الوالد عليه أن ينظف مكسبه من الحرام ، وأن المال الحلال ، الله سبحانه يُبارك فيه .

---

(٤٨) رواه البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه . جـ ٦ ص ٢٣٦ كما عزاه صاحب كتاب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، والترمذى ، وابن ماجة ، والدارمى وأحمد .

(٤٩) سورة المائدة ٤٤ .

ـــ وأن ترك المال ميراثاً للصغار رحمة من الله سبحانه لهم ، وهذا بالإضافة إلى الأصل المفهوم من النص أيضاً ، وهو تقوى الله من الوالد ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ وكما قال سبحانه أيضاً :

﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولاً سديداً** ﴾ (٥٠) .

والحديث وإن كان فى عباراته ما يدل على تأخر زمنه ، ولكنه يدل على عناية الله سبحانه بنبيه موسى ـــ عليه السلام ـــ وتعليمه إياه على يد الخضر ـــ عليه السلام ـــ وتعليمه أيضاً تفويض الأمور إلى الله سبحانه ، وأنه ـــ وإن كان أخطأ حين لم يفوض فى موقف من المواقف ـــ كان على علم آتاه الله إياه بشكل عام ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وفى الآيات والأحاديث عبر وعظات أكثر آثرت أن أكتفى بما ذُكر ، وبالله التوفيق ، والسداد .

## الذهاب إلى فرعون بمصر :

اصطنع الله سبحانه موسى – عليه السلام – على عينه ، وأعده الإعداد الكامل للقيام بالدعوة ، ووجهه نفسياً إلى اعتقاد ذلك أيضاً ؛ لتضاف إلى قلبه شحنة قوية فى الانطلاق وتحمل الأعباء فخاطبه ممتناً عليه بقوله :

﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ و ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ (٥١) و ﴿ **إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ (٥٢) .

وبعد أن آتاه الله البراهين المادية . وآزره وشد عضده بهارون . ونجاه من الغم . وأعطاه من فصاحة اللسان ما أعطاه . وعلمه من التفويض ما علمه .

---

(٥٠) سورة النساء ٩ .
(٥١) سورة طه ٣٩ ، ٤١ .
(٥٢) سورة طه ٤٦ .

وعمق اعتقاده بأن الله سبحانه هو وحده الذى أعده وصنعه أكرم صنع وإعداد .
بعد هذا كله قال له ولأخيه :

**﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ، ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون ؛ إنه طغى ﴾** (٥٣) .

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن فرعون بلغ من طغيانه مبلغاً كبيراً ، وتميز عن سابقيه من المجرمين بأنه استعبد أمة بأكملها ، وادعى الألوهية ، يقتل ويذبح من يعارض ، على الرغم من الاعتقاد بذلك أوصى الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه – عليهما السلام – بأن يقولا له قولاً ليناً ، وعلى الرغم أيضاً من علم الله سبحانه أزلاً بأنه سوف لا يستجيب للدعوة ، وسيظل على طغيانه وجبروته ، ويموت على هذا ، علل القول اللين بأنه سبيل معروف للتذكر والخشية ، وكل نبى ورسول ، ومن تصدر للدعوة إلى الله سبحانه عليه أن يسلك هذا المسلك ، ومصداق ذلك قول الله تعالى : **﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾** (٥٤) وعلى الرغم من أمرهما بذلك فقد أوضح لهما ربهما سبحانه صورة من الصور اللينة فى بدء الدعوة قال تعالى : **﴿ فأتياه ، فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى ﴾** (٥٥)

وقال : **﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾** (٥٦) .

فليس الأمر إذن هوى من عند أنفسنا ، ولكننا مكلفون من قبل الله جل وعلا . وما نبغيه أولاً : أن اترك بنى إسرائيل لنا ، ولا توقع بهم عذاباً ، وغيرهم يتمتع بالأمن والأمان ، ونحن بهذا نريد الأمن للجميع وسينعم به من هداه الله سبحانه ، وتلك بينات ودلائل على صدق قولنا .

ذاك لين ورفق ولا شك ، والغاية التى يسعى الداعية إليها واضحة

---

(٥٣) سورة طه ٤٢ ، ٤٣ .
(٥٤) سورة طه ٤٤ .
(٥٥) سورة طه الآية ٤٧ .
(٥٦) سورة الأعراف الآية ١٠٥ .

تحققت أم لا ، وما عليه إلا الإذعان والالتزام .

ومما يلزم فى هذا المقام بيان المرحلة التى يمر بها الداعية ، والتى يُؤمر فيها باللين والرفق ، وهى واضحة أيضاً من الحال التى عليها موسى – عليه السلام :

ــ فهو فى بدء مرحلة الدعوة ، والتى يراد لها أن تستمر ، ولا توأد فى مهدها .

ــ وهو فرد استعان بأخ له .

ــ وهما أصلاً من بنى إسرائيل حيث لا عصبية من البشر تمنع عنه الإيذاء .

ــ وفرعون يدين له الناس بالولاء راضين ، أو مكرهين .

ــ وفرعون طاغية ادعى الألوهية .

ــ كل خيرات مصر تحت تصرفه ، وكل إنتاج بشرى زراعى أو عمرانى المستفيد منه فقط هو (٥٧) .

هذه الحال التى عليها موسى وأخوه هارون ، والتى عليها فرعون مصر ، لا يناسبها إلا الرفق واللين فهل استمر هذا الرفق واللين حين اتبع بنو إسرائيل موسى – عليه السلام ؟ وهل استمر اللين بعد أن آمن السحرة بموسى أم كان الرد حاسماً جازماً ؟ .

إن الموقف يُدرس حتى يختار له من أسلوب الدعوة المناسب ، والموافق لمدى قدرة الجماعة المسلمة .

## اللقاء بفرعون :

وصدع موسى – عليه السلام – بالدعوة كما أمره ربه ، وجهر بها ، ولكن

---

(٥٧) ارجع إلى ما سبق بهذا الشأن

بالأسلوب اللين الهادئ كما اتضح سابقاً من وصية الله سبحانه له .

**فماذا كان من أمر فرعون حين المواجهة الأولى ؟**

إنه تصرف كما يتصرف كل طاغية متجبر فى الأرض ، وقد وجد العزم ، والإصرار ، والجهر بالدعوة أمام الملأ من أتباع هذا الفرعون ، اتخذ اللؤم والخبث بداية لحديثه ، وحواره ، وأى لؤم أخبث من التذكير بالنعمة التى أسديت لموسى – عليه السلام ؟ فكيف يخرج من عبوديته لفرعون ؟ (٥٨) . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ **قال : ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين** ﴾ (٥٩) .

والله سبحانه وتعالى قد هيأ نبيه لتلقى مثل تلك الادعاءات ، ولذا لم يهتم بالرد على هذا الأمر .

ولو رجع فرعون لنفسه ، وتذكر ما كان من شأنه حين التقاط موسى من النهر ، وحين قالت له زوجته : قرة عين لى ولك لا تقتلوه ؛ عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً . لو تذكر هذا واعترف به ما كان يطلق كلامه هكذا فى موقف المواجهة الأولى .

ولكن الطاغية يتناسى ، ويزعم بالباطل أن موسى لم يرد الخير بمثله .

ويضيف فرعون منكراً فى زعمه على موسى : ﴿ **وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين** ﴾ (٦٠) .

ويتغير الموقف ، فيتغير الرد :

إن الوكزة التى قضت على الرجل خطأً اعترف بها موسى ، وكان القتل

---

(٥٨) إن الله سبحانه جعل الإنسان مستخلفاً فى المال فناظر إليه ، أوضعه فى حقه أم لا . فلا مجال إذن للمَنِّ على الناس فقد وصل المال إلى مستحقيه ، وليس للخليفة إلا السبب فقط . فبطل بذلك مسلك من هذا النوع الفرعونى .

(٥٩) سورة الشعراء الآية ١٨

(٦٠) سورة الشعراء الآية ١٩

سبباً فى أن حُرم من وطنه سنين . ولكن موسى تغير حاله عن ذى قبل . فإن كان قد هرب من فرعون لأنه كان خائفاً ، فها هو الآن يعود دون ما خوف ؛ لأن الله سبحانه قد أرسله إلى فرعون وأعطاه حكماً وعلماً . حوار فى أول المواجهة فيه صراحة مع لين ، وفيه إهمال لما يشغل عن الهدف المقصود ، وفيه اعتراض على المخاطب حين استعبد أمة ، وينكر عليها الخروج من عبوديته له .

**﴿ وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾** (٦١) .

## حوار حول العقيدة :

اتضح من خلال المقدمة السابقة المشهد الذى يجرى فيه الحوار حول العقيدة الصحيحة :

### موسى وهارون – عليهما السلام .

– موسى يتكلم باسمهما راداً على فرعون .

– موسى فى موقف الواثق المطمئن البعيد عن أى جانب من جوانب الخوف .

موسى يتكلم بحكمة وعلم .

– اهتمام موسى بقضية اجتماعية تتعلق ببنى إسرائيل جميعاً .

– الاعتراف بالخطأ بقتل الرجل ، وتلك صراحة قوية ، وأن الذى نجاه من الغم هو الله سبحانه ، لا فرعون .

### فرعون فى موقف المن على موسى .

---

(٦١) سورة الشعراء الآية ٢٢

- يتكلم وسط ملأ من قومه .

- وينكر على موسى أنه يريد الخروج من العبودية له .

ومن لوازم هذا المشهد : ما نتصوره من هيئة الجلوس لفرعون كملك يزعم لنفسه الألوهية . من أناس حوله ، يعتقدون صحة ذلك ، وهم حاشيته ، وفى أولهم هامان .

وما نتصوره لكل من موسى وهارون ، وقد قدما على شخص بهذه الصورة فى قصره .

فهل ستؤثر هذه الصورة التى تميل إلى جانب فرعون فى نفسية موسى وهارون فى الحوار الذى سيجرى فى هذا الموقف ؟

إن القضية الأساسية التى تشغل الجميع قضية الربوبية ، ففرعون يريد للوهلة الأولى أن يطمئن على مركزه المزعوم بين الناس .

**﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ﴾** (٦٢) .

وكان يمكن لموسى أن يجيب بقوله : « الله » ولكنه اختار ما به يوضح العقيدة فى كل فرصة تتاح له ، فأخذ يوضح الربوبية بالأمر الذى لا يمكن لفرعون أن يدعيه على أى حال من الأحوال .

**﴿ قال : رب السموات والأرض ، وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾** (٦٣) .

فهل يستطيع فرعون أن يقول مجرد قول بأنه خلق السموات والأرض ؟ كلا بالطبع ، وطالما الأمر كذلك فالذى خلق السموات والأرض هو الذى خلق ما بينهما من جماد وحياة وإنسان وحيوان ، وترتيب المقدمات والنتائج على هذا النحو من شأن العلماء الذين لديهم يقين ، غير الجهلاء من البشر .

---

(٦٢) سورة الشعراء الآية ٢٣

(٦٣) سورة الشعراء الآية ٢٤

إن قضية تُساق على هذا النحو منذ الوهلة الأولى قضية تنطق بصدق دعوة موسى الحقة ، وتصدم فرعون على الرغم من طغيانه ، واعتزازه بمن حوله .

وبدأ يسلك فرعون أحقر سبيل يسلكه كل طاغية حين يرى الحق فى صف الآخرين ، وأنِ موقفه على باطل ، إنه بدأ يثير الناس ضد موسى وهارون ، ليتحركوا ضدهما ، وكأنها حركة ذاتية ، ولكنها حركة العبيد للطاغية .

**﴿ قال لمن حوله : ألا تستمعون ﴾ (٦٤)**

نعم إنهم يستمعون ، لكنهم مشدوهون من ذلك الموقف العجيب ، وأن لهم أن يتحركوا إلى الحق ، وقد استخف بهم فرعون طول حياتهم فأطاعوه على الرغم من هذا الاستخفاف ؟ بل اعتبروا استخفافه بهم حقاً له ، وضريبة عليهم .

ولكنِ موسى حاضر الجواب ؛ إنه يجيب عن السؤال المكبوت فى نفوس الملأ ، والذى لا يستطيعون أن يتفوهوا به ولكن موسى وبجواره هارون سينطق بما يعتمل فى نفوس الأمة الصامتة صمت القبور .

**﴿ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ (٦٥)**

وبدأت حرارة الحوار ترتفع ، ولكن دون قفز ، فالمواقف تُسَلِّمُ إلى بعضها كما ترى .

إعلان الحقائق يتضح من كلام الرسول ، والإثارة من ذلك البالون الممتلئ بالهواء الفاسد .

وتعساً لقوم يقال لهم : الذى خلق السموات الأرض ، هو الذى خلق الإنسان فينكرون !

فمن خلقهم إذن ؟ إنهم لا يستطيعون أن يقولوا : فرعون ، ولكنهم يدعون فقط أنه إله وكفى ، لم يسألوا أنفسهم أبداً كيف كان إلهاً ؟

---

(٦٤) سورة الشعراء الآية ٢٥

(٦٥) سورة الشعراء الآية ٢٦

وانتفخت أوداج الطاغية وجن جنونه لما سمع ، ويا للمصيبة التى وقعت عليه ، لإعلان هذا أمام ملئه ، وتعريته أمام الجماهير .

ولكنه يريد أن يخفى مشاعره هزيمة وسقوطاً ، ويلصق بالخصم ما يعتمل فى نفسه هو فتصنع الهدوء والاستخفاف : ﴿ **قال : إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون** ﴾ (٦٦) .

موسى يناقشك يا فرعون فى قضية الربوبية ، وأتى إليك بالمقدمات التى تثبتها يريد أن يحرك عقلك ، وعقول من حولك ، وعقول الأمة كلها ، فهلا رددت على تلك المقدمات وأبطلتها لتثبت أحقيتك فى الألوهية . كلا . وذلك شأن الطاغية فى كل وقت مهما تعددت الأشكال .

وموسى إن كان قد أخذ بأبصار القوم نحو السماء والأرض ؛ تأملاً فيهما ، فقد أخذها إلى الأزمان السحيقة أيضاً . وها هو يأخذ بالأبصار لتمتد أفقياً نحو المشرق والمغرب وما بينهما فى حين أن فرعون يزمجر من الغيظ ، تنطلق كلمات النبى المرسل فى ثبات ثبته الله إياه .

﴿ **قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ (٦٧) .

لم يقل إنكم لمجنونون كما اتهمه فرعون زوراً ، ولكن موسى مُرَبٍّ ، ومصلح ، ورسول ، فعلى الرغم من غبائهم يثير فيهم السعى إلى التعقل والتفكير ، فيطرح أمامهم الجوانب الإيجابية التى يجب أن تكون ، وليس قصده تهمة لمجرد الإلصاق .

وها هو فرعون يفتح للسجن أبوابه حين يعجز عن الرد المنطقى . سبحان الله ، إنها دروس تعلمنا مسيرة البشرية ومواجهة الحق للباطل ، وتُعِدُّ النفس المؤمنة لما يصير فى دنيا الشقاء والظلم .

---

(٦٦) سورة الشعراء الآية ٢٧

(٦٧) سورة الشعراء الآية ٢٨

## دور المعجزة فى الدعوة :

ولكن موسى – عليه السلام – لم يأبه لمثل هذا التهديد الصريح ، ويستمر فى عرض دعوته على الطاغية فرعون ، وإن كان قد بدأ مرحلة جديدة فى عرض هذه الدعوة . فقد جاء دور الدلائل المادية المعجزة التى لا يمكن لذى عين أو بصيرة أن ينكرها .

**قال الله تعالى : ﴿ قال : أو لو جئتك بشىء مبين ؟ قال : فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾** (٦٨) .

وبدأ الحوار يتحول ، ويدخل عنصراً جديداً ، ومُهمّاً ، فى مشهد عجيب ورهيب .

وجاءت المعجزة فى حينها ، فالناس الذين ألغوا عقولهم ، وحاولوا إلغاء عقول الناس معهم ، والذين لا يرضون بتغيير باطل ترددوا فيه ، ربما يُجدى معهم ما يرونه بأبصارهم حيث لم يجد التفكير ببصيرتهم .

وكانت العصا ، واليد فى وقت واحد بمثابة الصاعقة على فرعون ، ومن معه من ملأ المنافقين ؛ إنه لم يقو على ترديد كلمة السجن والتهديد به ، وأسقط فى يده ، بحث فى جعبته عن لعبة أخرى يزيف بها الحقائق ، فوجد الوصف بأن هذا سحر ، لكنه لم يستطع أن يخفى ما بنفسه فوصفه بالعليم . قال تعالى :

**﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾** (٦٩) .

إنه يؤكد كلامه بأن هذا ساحر ، وقد بلغ من العلم بالسحر مبلغاً فكان عليماً لا عالماً فقط .

---

(٦٨) سورة الشعراء الآيات من ٣٠ إلى ٣٣

(٦٩) سورة الشعراء ٣٤ ، ٣٥

وجاءت تلك النكتة المضحكة ، نكتة الوطنية حين تطرح فى غير محلها .

من ذا الذى يحرص على وطنه غير ذوى العقائد الصحيحة ؟

وأى حرمة هذه حين يستعبد الإنسان فى هذا الوطن ؟

إن فرعون لم يخجل من نفسه حين قال : ﴿ **من أرضكم** ﴾ حتى الملأ شاركوه فى هذا : ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ (٧٠) .

ألم يقل قبل لئن اتخذت إلهاً غيرى ؟، فالناس عبيد له ، والأرض له أيضاً ، فقد قال الله على لسانه : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ (٧١) .

وعلى أى شيء فهذا التودد الذى ليس له سابقة فى حياة فرعون ، وكلامه وعمله يدل على بداية الهزيمة النفسية أمام الدلائل المادية .

انظر إليه وقد قال الله على لسانه موجهاً الخطاب إلى من حوله من الملأ ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ . متى كان للعبيد أمر ورأى ، واقتراح .

ولكنها الهزيمة ، اللطمة القوية التى جعلته يترنح ، ويغير النغمة التى أعلن عنها فى السابق ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾

والتى يجب أن يلحظها الداعية ليرتب للدعوة مراحلها ، متى يبدأ ؟ وكيف ؟ ثم يلحظ هذا التدرج ، إنه يقرأ ما على وجه الطاغية من علامات ، ويجعل السلاح الاحتياطى فى حينه ؛ لتكون فعاليته بالغة قال تعالى :

﴿ **قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ؟ قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء**

---

(٧٠) سورة الأعراف الآية ١٠٩ ، ١١٠

(٧١) سورة الزخرف الآية ٥١

**فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾** (٧٢) .

إن القرآن الكريم لمدرسة يشع منها الهدى والنور ، ولنا فى قصصه العبر والعظات والدروس البينات .

(٧٢) سورة يونس الآيتان ٧٧ ، ٧٨

## دروس وعبر :

– أول مهام الرسالة : التوحيد وعبادة الإله الواحد والإيمان بالغيب وفى أوله الآخرة يوم الجزاء والثبات على العقيدة .

– أن تختار المعجزة من نوع ما ينشغل به القوم ، ويكونون مهرة فيه ، وإلا ما تُسَمَّى معجزة فكانت العصا واليد لموسى لمهارة القوم فى السحر .

وكانت فصاحة القرآن معجزة لفصاحة العرب آنذاك ، وهو معجزة باقية بالإخبار عن حقائق الكون وتكامل تشريعه .

– يدرب الله رسله على المعجزة ، فموسى درب على إلقاء العصا وحده بصحراء الطور . ومحمد – ﷺ – درب على الوحى وحده بغار حراء .

– التدرج فى الدعوة .

من حوار إلى دلائل مادية معجزة ، وتكون العقوبة حين استنفاد الجهد واليأس من إيمان القوم .

– اللجوء إلى الله سبحانه وسؤاله العون دائماً كما سأل موسى ربه .

وكما وقف النبى – ﷺ – فى عريش بدر قائلاً « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد فى الأرض** » (٧٣) .

---

(٧٣) عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : حدثنى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله – ﷺ – إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبى الله – ﷺ – القبلة ، ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه :

« **اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، لا تُعبد فى الأرض** ... » إلخ أخرجه مسلم ، المختصر رقم ١١٥٨ جـ ٢ ص ٧٠ وعزاه محقق المنار المنيف إلى أحمد فى المسند ص ٦٨ تعليقاً على استشهاد ابن القيم بقول ابن تيمية ، واستشهاده بالحديث مختصراً فى حديث الخضر – عليه السلام .

– عدم التجاوز فى الدعاء ، فيطلب ما به الخير للدعوة كما دعا موسى – عليه السلام .

الفرح بإيمان القوى ، ومشاركته فى الدعوة كما طلب موسى إلى ربه شد الأزر بهارون وكما قال محمد – ﷺ – فى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه : « **والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك** » (٧٤) .

– من أهم مراحل الدعوة المرحلة الأولى ، ولذا ينبغى فى هذه المرحلة أن تكون باللين ، وبعرض الحجج العقلية الهادئة التى تستند إلى مقدمات مسلم بها .

– على الداعية المسلم أن يكون على علم وبينة ، وأن يعلق ذلك بمشيئة الله إن سُئل ، وألا يغتر بعلمه ، فقد يكون من البشر من هو أعلم منه ، وإن كان دونه منزلة . (٧٥) .

– من مظاهر العلم اليقينى بعد النظر والعمق فى المسائل وعدم الوقوف عند ظواهر الأشياء .

**– من أعمال الطاغية ضد الدعوة :**

المن بفعل ما يجب عليه ، وإننا لنرى هذا متكرراً وبصورة أوضح فى العصر الحديث .

التذكير بأخطاء لم يهرب منها الداعية بل اعترف بها وتاب عنها .

إثارة المنافقين حوله ضد الداعية .

---

(٧٤) أخرجه الشيخان عن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٥٥٢ ص ٦٣٧ .

(٧٥) ارجع إلى موضوع : موسى ، والخضر – عليهما السلام – فى هذا الفصل .

الزعم بأنه حريص على الوطنية والقومية .

ووصف من يرد الألوهية إلى الواحد الأحد ، بالجنون ، وذلك كما قال الوليد بن المغيرة عن القرآن بأنه سحر (٧٦) .

وعلى الداعية أن يوطن نفسه لمثل تلك المزاعم الباطلة .

– إن الله يؤيد أنبياءه بالمعجزات ، فهو يؤيد أتباعهم بنصاعة حجتهم ، وأنهم يرجعون إلى كتاب الله القرآن الكريم ؛ لا طلباً لمغنم دنيوى ، بل تحملاً لمغرم ؛ رغبة فى الثواب عند الله سبحانه بالإضافة إلى الرغبة فى إعلاء كلمة الله سبحانه فى الأرض .

(٧٦) أخرج الحاكم ، وصححه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – حديثاً طويلاً ، بهذا الشأن ، وفى نهايته قول الوليد عن القرآن الكريم : « هذا سحر يؤثر ، أثره ( أى النبى – ﷺ – وحاشاه عن ذلك ) عن غيره » فنزلت ( الآيات ) ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيداً** ﴾ ( من سورة المدثر الآية ١١ وما بعدها ) وقال السيوطى فى أسباب النزول : إسناده صحيح على شرط البخارى .

## الإيمان برسالة التوحيـد :

- فى يوم الزينـة :

موسى ، والسحرة ، وفرعون ، وحشود الناس .

- فتنة السحرة ، وصبرهم على تعذيب الطاغية لهم .
- إيمان بنى إسرائيل .
- تفضيل بنى إسرائيل .
- مؤمن آل فرعون .
- دروس وعـبر .

**فى يوم الزينـــة :**

**موسى ، والسحرة ، وفرعون ، وحشود الناس .**

توهم فرعون وملؤه أن تحول العصا إلى حية تسعى سحر ، وأنَّ بقدرة الماهرين فى السحر أن يتغلبوا على موسى – عليه السلام .

ومجرد الظن بهذا يدل على أنه انهزم فكريا فى الجولة الأولى ، ولو كان منتصراً ما توانى – أبداً – فى تنفيذ ما هدد به ، من سجن موسى – عليه السلام – ولكنه لم يفعل ، وكأن فرصة واتته عليه أن يهتبلها ؛ قال الله تعالى على لسانه :

**﴿ ائتونى بكل ساحر عليم ﴾**[1] .

وقال مخبراً عنه :

**﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ، ثم أتى ﴾**[2] .

وشاركه الملأ من القوم ، وهم : خاصته وبطانته ، ومنافقوه قال تعالى على لسانهم :

**﴿ قالوا : أرجه ، وأخاه ، وابعث فى المدائن حاشرين ؛ يأتوك بكل سحار عليم ﴾**[3] .

وادعى فرعون العدالة فى المحاجَّة ؛ لأنه ظن أنه سينتصر ، لذا ترك لموسى – عليه السلام – اختيار يوم لقائه بالسحرة ، وكان الرد دَالاًّ على ثقة النبى فى معجزة أيده الله سبحانه بها ، ولا يتبادر إلى ذهنه أى شك فيها ، فاختار أهم يوم فى مصر للمصريين ، يوم العيد ، يوم يتزين الناس ، ويذهبون إلى العاصمة بغية المتعة ، والتجوال ، واختار تجميع الناس للرؤية ، والمشاهدة ، واختار من

---

(١) سورة يونس الآية رقم ٧٩ .

( ٢ ) سورة طه الآية رقم ٦٠ .

( ٣ ) سورة الشعراء الآية رقم ٣٦ .

الوقت أوضحه ، وهو وقت الضحى حيث تكون الشمس فى اكتمال إنارتها . قال تعالى :

**﴿ قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ، ولا أنت ، مكانا سوى ، قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى ﴾**(٤) .

وفى رد موسى – عليه السلام – معنى النصر ، وتبشير به ، ولكن فرعون وقومه أعماهم الجهل ، وظلوا فى غيهم يعمهون ويتخبطون .

وعلت الفرحة بسطاء القوم المجموعين ، قال تعالى :

**﴿ وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾**(٥) ..

بل إن السحرة أنفسهم ظنوا المغنم فى ذلك ، ولهم بعض العذر ؛ فقد ضللوا من السلطة ، وفرعونها ، ولم يروا التجربة حية قبل ذلك ، وآتى التضليل للشعب أكله حتى الآن ، فقد جمع الناس فرحتهم ، وتوزيع المغانم عليهم ، والمتعة فى الرؤية . وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم . وإنكم إذن لمن المقربين ﴾**(٦) .

وكانت لفتة كريمة من موسى – عليه السلام – للسحرة ، فقد ألزمهم بالحجة ، وقدم النصح لهم قبل بدء المعركة الفاصلة فى تاريخ الدعوة ؛ لكنهم لم يستجيبوا للنصح بسبب التضليل السابق .

**﴿ قال لهم موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذبا ؛ فيسحتكم**

---

( ٤ ) سورة طه الآيات من رقم ٥٧ الى ٥٩ .

( ٥ ) سورة الشعراء ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

( ٦ ) سورة الشعراء ، الآيتان رقما ٤١ ، ٤٢ .

**بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾[7] .**

وإن أحدثت النصيحة نوعاً من التأثير فى بعضهم ، ولكنهم لم يستمروا عليه ، وعادوا لترديد نفس النغمة ، وأصروا على المواجهة ، قال تعالى مخبراً عنهم :

**﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ؛ وأسروا النجوى ، قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم[8] ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ؛ فأجمعوا كيدكم ، ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾[9] .**

فمن الذى يبدأ ؟

اختار موسى – عليه السلام – للسحرة أن يبدءوا هم ، فيشهد القوم عيانا مافعلوا وخيلوا ، ويتمعن القوم فيه ، وفى المهارة التى تم بها سحرهم .

**﴿ قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى ﴾[10] .**

**﴿ قال لهم موسى : ألقوا ماأنتم ملقون . فألقوا حبالهم ، وعصيهم ،**

---

( ٧ ) سور طه ٦١ .

( ٨ ) ويظهر من هذا التعبير القرآنى الكريم أن السحرة كانوا من بنى إسرائيل ، وقد كانت دعوة موسى – عليه السلام – للإيمان به أصلاً ثم لإنقاذهم من فرعون ، وإخراجهم من مصر ، وكانت الدعوة لفرعون لأن يؤمن أصلاً ، ثم الإذن باصطحاب بنى إسرائيل والخروج معه إلى موطن يعقوب – عليه السلام – وجاء فى القرآن على لسان موسى : « أن أرسل معى بنى إسرائيل » ( الشعراء ، ١٧ ) وقال على لسان السحرة قبل إيمانهم : « يريدان أن يخرجاكم من أرضكم » ومما يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى فى موطن آخر « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم » ( يونس ٨٣ ) .

( ٩ ) سورة طه ، الآيات رقم ٦٢ إلى ٦٤ .

( ١٠ ) سورة طه الآية رقم ٦٥ .

**وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[١١] .**

قال تعالى مصوراً ما صنعوه من سحر :

**﴿ فإذا حبالهم ، وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[١٢] .**

**﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ﴾[١٣] .**

وصدق الله تعالى ؛ فقد كان السحر عظيما ، واضح الأثر فى استرهاب الناس من ناحية ، وواضح الأثر فى نفس موسى – عليه السلام – قال تعالى فى ذلك :

**﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[١٤] .**

وإذا كان الخوف الحادث من الناس لا شبهة فيه . فلم وقع من موسى– عليه السلام –وقد تقدم ما يدل على ثقته بالمعجزة ، وأراد الله سبحانه ذلك ؛ ليبين – على وجه القطع واليقين – توفر شروط المعجزة ؛ لتكون معجزة حقة . وأن موسى – عليه السلام – يواجه بها قوما ماهرين فى عملهم ، ثم ينتصر عليهم . ولو كان السحر تافها أو عاديا ، ولم يظهر أثره فى الناس ، ولا فى نفس موسى – عليه السلام – ما تبلغ المعجزة الدرجة المرادة لها .

وفى هذا الوقت أوحى الله تعالى إليه :

**﴿ قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[١٥] .**

---

( ١١ ) سورة الشعراء الآيتان رقما ٤٣ ، ٤٤ .

( ١٢ ) سورة طه ، الآية رقم ٦٦ .

( ١٣ ) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٦ .

( ١٤ ) سورة طه ، الآية رقم ٦٧ .

( ١٥ ) سورة طه ، الآيتان رقما ٦٨ ، ٦٩ .

فقال موسى – عليه السلام – بلهجة الواثق ، وقد زال عنه خوفه :

**﴿ قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾**(١٦) .

وأتبع موسى – عليه السلام – قوله هذا إلقاء عصاه :

**﴿ فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾**(١٧) .

فكان الهول لكل الأطراف :

بالنسبة للناس ، وقد ظنوا أن السحرة أتوا بما لا يغلب .

وبالنسبة لفرعون ، وقد ظن أنه سيدحض موسى ، وهارون .

وبالنسبة للسحرة ، وقد ظنوا أيضاً أنه لا يمكن أن يغلبهم سحر ساحر ، خاصة وأنهم مجتمعون ، وموسى – عليه السلام – وحده ، وأنهم أمهر السحرة فى الدولة على الإطلاق .

**﴿ فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ﴾**(١٨) .

وبنظرتهم المجردة من الهوى ، علموا أنه لابد أن يكون ماواجهوه فوق السحر ، ولابد أن يكون معجزة فوق طاقة البشر ، ولابد بالتالى أن يكون موسى صادقاً فى دعواه النبوة . وحين وصلوا إلى هذه النتيجة أعلنوا الإذعان والتسليم ، والإيمان برب العالمين .

**﴿فألقى السحرة سجدا ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى ﴾**(١٩) .

---

( ١٦ ) سورة يونس ، الآيتان رقما ٨١ ، ٨٢ .

( ١٧ ) سورة الشعراء ، الآية رقم ٤٥ .

( ١٨ ) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٩ .

( ١٩ ) سورة طه ، الآية رقم ٧٠ .

**فتنة السحرة ، وصبرهم على تعذيب الطاغية لهم :**

وإذا كان السحرة قد غنموا الموقف غنيمة إيمانية لا غنيمة مادية ، فقد أسقط فى يد فرعون ، ولكنه وقد هاله الموقف ، وظهور حجة موسى عليه ، لازالت تشده الأرض ، والسلطان والصولجان ، وماسمعنا عن مثله يتنازل بسهولة عن كل هذا ، حتى ولو كان فى قرارة نفسه يعلم أنه كذاب ، وأن خصمه صادق ، قال تعالى :

**﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾**(٢٠) .

وبحث فى جعبته عن تهمة جديدة يلقيها فى وجه موسى – عليه السلام – والسحرة بعد أن انضموا إلى موكب الإيمان .

**﴿ قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؛ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾**(٢١) .

ولم يسأل فرعون نفسه : متى كان هذا التعليم ؟ ولكنه الاستمرار فى تضليل الناس إلى آخر لحظة وحين فشلت كل حجج الباطل ، وتعرى أمام الحق والناس ، إلا من لباس الهزيمة . حينئذ – بعد أن آتت الدعوة أول أكلها ، لابد أن تفتح للسجون أبوابها . ومتى كانت السجون إلا حين هزيمة الباطل فكريا ، وكشف مخازيه أمام الناس ؟ وليت الأمر وقف عند حد السجون وكتمان الحريات ، إذن لاحتمله البشر العاديون ، وأنى لهم وصنوف العذاب قد فغرت فاها للفتك بالأجساد حيث لم يقدر على النيل من القلوب . قال الله تعالى على لسانه :

**﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع**

---

( ٢٠ ) سورة النمل ، الآية رقم ١٤ .

( ٢١ ) سورة طه ، الآية رقم ٧١ .

**النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾**[٢٢] .

وعلى السحرة أن يختاروا أحد الأمرين :

١ - إما أن ينجوا من عذاب فرعون الطاغية ، بالرجوع إلى باطله .

٢ - وإما أن يصمدوا أمام عذاب الدنيا ؛ لينجوا من عذاب أشد فى الآخرة .

وقد اختاروا الثانى . بل تحدوا فرعون وملأه ، واستعانوا على العذاب بالصبر .

**﴿ قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذى فطرنا . فاقض ما أنت قاض ؛ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ؛ ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ﴾** [٢٢] .

وأعلنوا أنهم هم الفائزون ، ولجئوا إلى الله سبحانه ضارعين داعين :

**﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾**[٢٣] .

واتهموا الطغمة الحاكمة بالإجرام .

**﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى ﴾**[٢٢] .

ووسّع فرعون دائرة التنكيل بالمؤمنين ، وقام زبانية السلطة المنتفعون ماديا من تثبيت الباطل بدور بارز فى هذا التنكيل ، وللأسف كانوا من بنى إسرائيل الذين يراد إنقاذهم .

---

( ٢٢ ) سورة طه ، الآيات من رقم ٧١ إلى رقم ٧٦ .

( ٢٣ ) سورة الأعراف الآية رقم ، ١٢٦ .

**﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ، ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون ، قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ﴾[٢٤] .**

عن أبى عبدالله ، خباب بن الأرت [٢٥] – رضى الله عنه – قال : شكونا إلى رسول الله – ﷺ – وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :

**« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، مايصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر ؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » [٢٦] .**

وسواء أكان هذا النوع من التعذيب للسحرة حين آمنوا أم لغيرهم ، فإنما

---

(٢٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢٥) سُبى فى الجاهلية فبيع بمكة ، فكان مولى أم أنمار الخزاعية ، وكان من السابقين الأولين ،والمستضعفين ، وعُذب عذاباً شديداً لإظهار إسلامه ، رُؤى وقد اكتوى بنار العذاب ، فقال : لولا أن رسول الله – ﷺ – نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ، وشهد بدراً والمشاهد كله ، وقد كان يجيد صناعة السيوف فى الجاهلية . ولما رجع علىّ – رضى الله عنه – من صفين مر بقبر خباب ، فقال : رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى فى جسمه ، ولن يضيع الله أجره . مات بالكوفة عن ثلاث وستين سنة ، عام سبعة وثلاثين . من كتاب الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٤١٦ ، رقم ٢٢١٠ .

(٢٦) أخرجه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، رياض الصالحين ، باب الصبر ، رقم ٤١ ، ص ٣٢ .

هو نموذج لتفكير الطغاة الظالمين ، ونيلهم من أجساد الفئة المؤمنة ، وصبر هذه الفئة على الرغم من عنف التعذيب وشدته .

وبجوار هذا اللون من التنكيل بالمؤمنين كان الإيذاء النفسى أيضاً .

فعن ابن مسعود(٢٧) - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم حنين آثر رسول الله - ﷺ - فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس(٢٨) مائة من الإبل ،

---

(٢٧) هو عبد الله بن مسعود . قال الذهبى : هو الإمام الربانى ، أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن أم عبد ، الهذلى ، صاحب رسول الله - ﷺ - وخادمه ، وأحد السابقين الأولين ، من كبار البدريين ، ومن نبلاء الفقهاء ، والمقربين ، أسلم قديماً ، وحفظ من فى رسول الله - ﷺ - سبعين سورة ، وقال - ﷺ « **من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد** » ، وفضائله جمة عديدة ، تُوفى بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ، وله نحو من ستين سنة . سبل السلام للصنعانى جـ ١ ، ص ٧٩ ، هذا وقد أخرج الشيخان فى شأنه وفضائله أربعة أحاديث ، منها قوله : « والله لقد أخذت من فى رسول الله - ﷺ - بضعاً وسبعين سورة ، والله ! لقد علم أصحاب النبى - ﷺ - أنى من أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم » قال شقيق ( راوى الحديث ) فجلست فى الحلق أسمع ما يقولون ، فما سمعت رداً يقول غير ذلك . اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود ، وأمه - رضى الله عنهما . رقم ١٥٩٨ ص ٦٦٤ ، وبقية الأحاديث بنفس الباب .

(٢٨) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى المجاشعى الدارمى . قال ابن إسحاق : وفد على النبى - ﷺ - وشهد فتح مكة ، وحنيناً ، والطائف . وهو من المؤلفة قلوبهم ، وهو الذى نادى النبى - ﷺ - من وراء الحجرات : يا محمد ، فلم يجبه ، فنزل قرآن ينهى عن ذلك ، وقال له ، ولصاحبه عيينة عمر - رضى الله عنه : إنما كان النبى يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أعز الإسلام . اذهبا فأجهدا على جهدكما . وهو الذى رأى النبى - ﷺ - يقبل الحسن ... فأنكر ذلك من نفسه لأولاده . ومات فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه . عن كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر جـ ١ ص ٥٨ رقم ٢٣١ .

وأعطى عيينة بن حصن[٢٩] مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب ، وآثرهم يومئذ فى القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه قسمة ماعدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله - ﷺ - فأتيته فأخبرته بما قال : فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف ( صبغ أحمر ) ثم قال :

« **فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟** » ثم قال : « يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر »[٣٠] .

وسواء أكان الإيذاء النفسى الذى واجهه موسى - عليه السلام - من الطغاة الظالمين ، أو من تعنت قومه الذين آمنوا به ، فإن تحمله لهذا النوع من الإيذاء النفسى قد حدث ، وقد صبر عليه .

**إيمان بنى إسرائيل :**

وأمام حالة التنكيل بالسحرة على النحو السابق ، كانت حركة الإيمان بموسى - عليه السلام - حركة سرية ، وبطيئة ؛ خوفاً من العذاب الذى يصب

---

(٢٩) عيينة بن حصن بن حذيفة . الفزارى ، كان من المؤلفة قلوبهم ، أسلم قبل الفتح وشهدها ، وحنيناً ، والطائف ، وكان ممن ارتد فى عهد الخليفة الأول ، ثم عاد إلى الإسلام ، كانت به جفوة ، قال فيه النبى - ﷺ - رداً على استفسار عائشة - رضى الله عنها : هذا الأحمق المطاع . يعنى فى قومه . قال لابن مسعود - رضى الله عنه : أنا ابن الأشياخ الشم . فقال له عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى كتاب الأم للشافعى فى باب من كتاب الزكاة أن عمر - رضى الله عنه - قتله على الردة ، فلا يُذكر إذن فى الصحابة ، ويحتمل أنه أمر بقتله ، فبادر إلى الإسلام فترك فعاش إلى خلافة عثمان - رضى الله عنه . المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ رقم ٦١٥١ .

(٣٠) أخرجه البخارى ومسلم ، وأحمد . رياض الصالحين ، باب الصبر رقم ٤٢ ص ٣٢ ، ٣٣ وقد ورد فى ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى** ﴾ ( سورة الأحزاب ٦٩ ) وقد سبق الحديث عن ذلك .

على المؤمنين صبا . قال تعالى :

**﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم ، وإن فرعون لعال فى الأرض ، وإنه لمن المسرفين ﴾**(٣١) .

والتعبير بقوله : **﴿ ذرية من قومه ﴾** يدل صراحة على أن من آمن كان من بنى إسرائيل ، وأن المؤمنين كانوا قلة ، ويؤكد هذا قوله تعالى فى موطن آخر :

**﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾**(٣٢) .

ويأتى الحديث على لسان موسى – عليه السلام – ومن آمن ، يصف هذه المرحلة الحرجة فى عمر الدعوة ، مرحلة التعذيب ، والإيمان سرًّا ، واللقاء بموسى سرًّا ، وأن من استجابوا كانوا على قوة فى إيمانهم(٣٣) . وفى هذا يقول الله تعالى :

---

( ٣١ ) سورة يونس ، الآية رقم ٨٣ .

( ٣٢ ) سورة الصف ، الآية رقم ١٤ .

( ٣٣ ) وتلك المرحلية فى الدعوة سنة فى تاريخ الدعوات الإسلامية السابقة على أيدى الأنبياء الكرام فإبراهيم – عليه السلام – دعا أباه آزر ، وذكر الأصنام بسوء أمام خاصة الناس ، ولذا كان الإخبار عنه بقوله تعالى على لسان الوثنيين من عامة الناس : « قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم » ( الأنبياء ٦٠ ) فالآية تشير إلى أنهم عرفوا الخبر مكتماً ، ثم أعلن بعد ذلك فى مواجهة علنية ( انظر قصة إبراهيم – عليه السلام ) والنبى الخاتم – ﷺ – كان يدعو الناس فى المرحلة الأولى سراً وتنتقل الدعوة من واحد إلى آخر بشكل فردى ، وكان من المسلمين من يصلى فى جنح الليل ، ومن يعرف منهم تعرض لأشد العذاب كآل ياسر ، وبلال ، وخباب ، رضى الله عنهم أجمعين .

ولم يكن فى هذه المرحلة إلا الصبر ، حيث لا يجوز غير ذلك ، لتجتاز الدعوة تلك المرحلة الخطرة الحرجة .

قال تعالى على لسان موسى – عليه السلام : **﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾** ( الأعراف ١٢٨ ) =

**﴿ وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فقالوا : على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾**(٣٤) .

وفى الفصول القادمة نصوص تخاطب بنى إسرائيل جميعاً ، وتشير إلى أنهم آمنوا ربما يكون إيمان الجميع – والله أعلم – فى حالة الخروج من مصر ، وبعد الخروج ، وقد يكون من بين هؤلاء المتأخرين الذين لم يتغلغل الإيمان فى قلوبهم ما ظهر من بنى إسرائيل من مخالفة وثنية لقواعد الإيمان كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

والخطة التى رسمت لمسيرة الدعوة فى هذه المرحلة على وجه الخصوص ، أن يصلى المؤمنون فى بيوتهم حيث الستر عن الناس ، على أمل الخروج ، والجهر بالدعوة .

قال تعالى :

**﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه : أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾**(٣٥) .

أى اقصدوا البيوت للصلاة فيها .

ودعا موسى – عليه السلام – على المشركين بالهلاك والدمار ، قال تعالى على لسانه :

---

فقد توجه إلى الله سبحانه . بأن يكشف عنه الضر ، ويلهمه الصبر هو وقومه ، وبذل الأسباب للخروج من هذه المرحلة وتجاوزها ، ويؤمن من الناس من به تقوى الدعوة .

روى البخارى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قوله : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » جـ ٥ ص ١٤ كما أن الهجرة إلى المدينة واضحة الدلالة على الخروج من مكان يسود فيه الظلم إلى آخر حيث تتنفس الدعوة ، وتنمو .

(٣٤) سورة يونس ، الآيات من ٨٤ : ٨٦ .

(٣٥) سورة يونس الآية رقم ٨٧ .

**﴿ وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾**[٣٦] .

**تفضيل بنى إسرائيل :**

نزلت التوراة على موسى – عليه السلام – لتوضيح جانبين :

الأول : بيان العقيدة الإيمانية الصحيحة ، وهذا الجانب تتفق فيه كل الكتب السماوية وهو عبادة الله وتقواه ، والإيمان بالغيب ...

وهذا واضح فى دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – جميعاً ، كما ذكر فى القرآن الكريم .

– وقد وردت نعم أخرى ذكر الله تعالى بنى إسرائيل بها :

الجانب الثانى : بيان التشريع الذى يجب أن يطبق فى التعامل بين الناس وأنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين ربهم من ناحية أخرى فى شكل العبادة لا فى أصلها . وهذا الجانب هو الذى تختلف فيه الرسالات غالباً ، يتغير بتغير الظروف التى تمر بالدعوة الإسلامية من لدن آدم إلى النبى محمد – عليهما الصلاة والسلام .

وحين يكون الحديث عن موسى – عليه السلام – والتوراة ، يأتى التعبير القرآنى بأن الله سبحانه قد آتاه الكتاب أى التوراة ، مثل قوله تعالى :

**﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾**[٣٧] .

---

(٣٦) سورة يونس الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

وقد دعا النبى – ﷺ – على المشركين فى بعض المواقف ، فقد أخرج الشيخان أنه قال : « **اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف** » اللؤلؤ والمرجان رقم ٣٩٢ وكان الدعاء على مضر قبل أن تسلم .

( ٣٧ ) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٤٩ .

أى أعطينا وأنزلنا على موسى التوراة ؛ لعل بنى إسرائيل يهتدون .

وحين يكون الحديث عن بنى إسرائيل ينسب الإيتاء لهم ؛ مثل قوله تعالى :

**﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر ﴾**(٣٨) .

فالإيتاء هنا لبنى إسرائيل ؛ لأنهم هم الغرض والهدف ، خاصة وأن الآية الكريمة فى مقام تعداد النعم التى وهبها الله سبحانه إياهم .

وبيان النعم الواردة على هذا النحو :

١ – إيتاء الكتاب ، وهو التوراة .

٢ – إيتاء الحكم ، وهو الحكمة فى القول ، والحكم لأنفسهم بعد أن كانوا عبيداً لفرعون .

٣ – إيتاء النبوة ، بمعنى أن النبى – عليه السلام – من بنى إسرائيل لا من غيرهم .

٤ – الرزق الطيب ، بعد أن كانوا فى ضيق ، فى حين أن فرعون وقومه انتقم الله سبحانه منهم بالضيق فى الرزق بعد أن كانوا فى سعة .

٥ – التفضيل على العالمين ، بمعنى تفضيلهم على الأمم فى زمانهم ، لا فى كل الأزمان(٣٩) .

---

( ٣٨ ) سورة الجاثية ، الآيتان رقما ١٦ ، ١٧ .

(٣٩) ولتوضيح هذا الجانب المهم نورد هنا بعض النصوص ، واستنباط ما يتيسر منها بعون الله تعالى :

( ا ) يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً – ﷺ – ومن آمن به :

**﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ ( آل عمران ، ١١٠ )**

=

(ب) ويخاطب نبيه أيضاً بقوله :

**﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾** ( النساء ٤١ ) .

أى إذا جئنا من كل أمة بنبى يشهد على أمته ، وجئنا بك يا محمد شهيداً عليهم جميعاً ، الأمم والأنبياء .

(جـ) عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لى الغنائم ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة ، وأُعطيت الشفاعة** » أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٢٩٩ وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة أيضاً إلى أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، والدارمى ، ومسند زيد بن على ، وأحمد ، ومسند الطيالسى . ص ٢٢٥ ، ص ٤٥٢ .

( د ) وعن الخليفة الراشد على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **أُعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء** » فقلنا يا رسول الله ما هو ؟ قال : « **نُصرت بالرعب ، وأُعطيت مفاتيح الأرض** ( بمعنى دخول الإسلام فيها ) **وسُميت أحمد ، وجُعل التراب لى طهوراً ، وجعلت أمتى خير الأمم** » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن . ابن كثير عند تفسيره لآية آل عمرآن ١١٠ .

والتسمية بأحمد واردة بالقرآن الكريم بسورة الصف . قال تعالى على لسان عيسى – عليه السلام :

**﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾** ( الصف ٦ ) .

(هـ) وعن درة – رضى الله عنها – وهى بنت أبى لهب عم النبى – ﷺ – قالت : قام رجل إلى النبى – ﷺ – وهو على المنبر – فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : « **خير الناس أقراهم ، وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم** » رواه أحمد فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، والحاكم فى مستدركه ، كما نقله ابن كثير =

بالتفسير .

( و ) وقال النبى – ﷺ – مخاطباً أمته :

**« أنتم توفون سبعين أمة ؛ أنتم خيرها ، وأكرمها على الله عز وجل » .**

ابن كثير عند تفسير قوله تعالى :

**﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾**

وعزا الحديث إلى أحمد ، وجامع الترمذى ، وسنن ابن ماجة ، ومستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه ، وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذى .

( ز ) والنبى – ﷺ – هو سيد ولد آدم يوم الحشر . وعزا ذلك صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، وأحمد وغيرهما . ص ٤٥١ .

وهو إمام الأنبياء وخطيبهم يوم البعث وعزا هذا إلى أحمد ص ٤٥١ .

(ح) وفى الأثر عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : **﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس ﴾** قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم ، حتى يدخلوا فى الإسلام .
**رواه البخارى ج ٦ ص ٤٧ كتاب التفسير ، باب تفسير سورة آل عمران .**

وفى ضوء النصوص السابقة على تنوعها تتبين لنا أمور :

**الأول** : أن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين فى زمانهم لا فى كل الأزمان .

**الثانى** : أن النبى محمداً – ﷺ – هو سيد الأنبياء وأفضلهم فى الدنيا والآخرة .

**الثالث** : أن أمة محمد – ﷺ – هى خير الأمم ، وأفضلها على الإطلاق .

**الثالث** : وأن هذا التفضيل له تكاليف وواجبات ، وليس محاباة لهذه الأمة .

**الرابع** : وأن من هذه التكاليف :

– الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

– والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

– هداية الكثير من الناس . =

٦ – النجاة من آل فرعون ، قال تعالى :

﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾(٤٠) .

٧ – انفلاق البحر لهم ، قال تعالى :

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون ﴾(٤١) .

٨ – تظليل الله سبحانه لهم بالغمام .

٩ – وإنزاله المن والسلوى عليهم ؛ قال تعالى :

﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾(٤٢) .

١٠ – تفجر الحجر لهم اثنتى عشرة عينا قال تعالى :

---

= – الكرم ، وصلة الرحم .

– نصر نبيها بخوف الأعداء منه .

– وإعطاؤه مفاتيح الأرض .

– ورخصة التيمم .

وهذه الصفات المنصوص عليها هنا ، والصفات الأخرى الواردة فى نصوص أخرى تؤكد أن الخيرية لأمة الإسلام ، أكانت من العرب أم من العجم ، أم منهما معاً ، لا كما يتشدق به الملحدون من العرب من الخيرية المرادة للأمة العربية على أى وضع كانوا مسلمين أو مشركين على أى لون هذا الشرك ، وهم يعلمون كذب أنفسهم ، وإنما يتظاهرون به بدعواهم لخداع عامة المسلمين ، ليؤمنوا فى النهاية بما هم عليه من إلحاد . انتهى والله أعلم بالصواب .

(٤٠) سورة البقرة ، الآية رقم ٤٩ .

(٤١) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٠ .

(٤٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٧ .

**﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ﴾**(٤٣) .

وقد اعتبر الله سبحانه أن هذه النعم تكريم للأيام التى وقعت فيها كما قال :

**﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾**(٤٤) .

وقال أيضاً :

**﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾**(٤٥) .

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب :

**﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾**(٤٦) .

وقال أيضاً :

**﴿ يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم ﴾**(٤٧) .

والمراد بما نزلنا القرآن الكريم ، فقد قال تعالى مخاطباً نبيه محمدا - ﷺ - بعد الحديث عن اليهود والنصارى والكتابين : التوراة والإنجيل :

**﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه ﴾**(٤٨) .

## مؤمن آل فرعون .

عرفنا فيما سبق عن إيمان بنى إسرائيل أن طائفة منهم آمنت ، وكفرت

---

(٤٣) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٠ .
(٤٤) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٥ .
(٤٥) سورة الدخان ، الآية رقم ٣٢ .
(٤٦) سورة النساء ، الآية رقم ٦٥ .
(٤٧) سورة النساء ، الآية رقم ٤٧ .
(٤٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٨ .

طائفة أخرى ، ومن آمن منهم كان على خوف من فرعون وملئه ، وأن رسالة موسى – عليه السلام – كانت لإنقاذ بنى إسرائيل من طغيان فرعون ، وليس معنى ذلك حجر الدعوة على بنى إسرائيل ؛ فقد كان التكليف أصلاً بقوله تعالى :

**﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لينا ؛ لعله يتذكر أو يخشى ﴾**(٤٩) .

فالدعوة فى أصلها عامة لكل من سمع بها ، وخاصة ببنى إسرائيل كما يفهم من قوله :

**﴿ أن أرسل معى بنى إسرائيل ﴾**(٥٠) .

هذا ومن طلائع المؤمنين من قوم فرعون غير الإسرائيليين امرأة فرعون ، ضرب بها المثل فى الإيمان ، ودعت ربها أن تكون من الفائزين بالجنة فى الآخرة ، والنجاة فى الدنيا من فرعون وأعمال فرعون ، وكذلك من كل ظالم متكبر ، وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ؛ إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين ﴾**(٥١) .

ومنهم أيضاً مؤمن آل فرعون .

وجد التنكيل بمن آمن من بنى إسرائيل ، ومطاردتهم ، وذبح أبنائهم الذكور ، والتصميم على قتل صاحب الدعوة الأول موسى – عليه السلام – فرأى هذا الرجل المؤمن ، والذى كتم إيمانه أن يقف محاميا ومدافعاً عن موسى(٥٢) – عليه السلام – بشكل علنى فى الدفاع ، وبشكل سرى فى الإيمان .

---

(٤٩) سورة طه ، الآيتان رقما ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٠) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٧ .

(٥١) سورة التحريم ، الآية رقم ١١ .

(٥٢) ولقول كلمة الحق فى الإسلام شأن كبير ، وخاصة إذا كانت فى وجه سلطان جائر . =

وتضمن دفاعه هذا حيثيات ، ودلائل على صدق موسى – عليه السلام – وكان دفاعه على هذا النحو :

– إنكم قد حكمتم على موسى بالقتل دون مبرر معقول ؛ مما يدعو إلى العجب والاستغراب ، وقد كان هو دونكم صاحب البينة والدليل ، وما يوم الزينة عنكم ببعيد ؛ شهد له أعلم الناس فى صناعة السحر ، وتلك معجزةَ خارقة لايتطرق إليها شك ، ثم هو يدعو إلى عقيدة واضحة . يقول :

---

= فعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

« **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** »

رواه أبو داود ، والترمذى وقال : حديث حسن ، رياض الصالحين رقم ١٩٤ ص ١٠٤ باب فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . حقق هذه الطبعة ، وخرج الأحاديث : عبد العزيز رباح ، وأحمد يوسف الدقاق ، وراجعها الشيخ شعيب الأرنؤوط – دار المأمون للتراث . ومن تعليق الهامش « وفى سنده عطية العوفى وهو ضعيف . لكن الحديث قوى بحديث طارق بن شهاب الآتى »

وعن عبد الله طارق بن شهاب البجلى الأَحْمَسِيّ – رضى الله عنه – أن رجلاً سأل النبى – ﷺ – وقد وضع رجله فى الغرز : أى الجهاد أفضل ؟قال : « **كلمة حق عند سلطان جائر** » والغرز : ركاب الجمال .

رواه النسائى بإسناد صحيح ، وبالهامش : ورجاله ثقات ، وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب . المرجع السابق رقم ١٩٥ .

وفى تفسير آية المائدة قال الصديق أبو بكر – رضى الله عنه : يأيها الناس ، إنكم لتقرءون هذه الآية :

﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾
( المائدة آية ١٠٥ )

وإنى سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه** »
=

« ربى الله »(٥٣) وهو أيضا على سبيل الفرض أحد شخصين :

- كاذب فى دعواه ، والكذب سيلحقه هو دوننا ، وسيجازى عليه .

- أما إن كان صادقاً فسنحظى بما يعدنا فى الآخرة من ثواب .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً ، أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ؛ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾**(٥٤) .

ومتى قيل هذا الكلام ؟

إنه قيل والموقف عصيب جدا ، وقد أجمع الملأ من ناحية ، وفرعون من ناحية أخرى على ذبح الأبناء ، واستحياء النساء ، وقتل موسى - عليه السلام .

فمن هذا الإنسان الذى وقف فى وجوههم جميعاً ينكر عليهم ماهم عازمون عليه ؟

ومن هذا الإنسان الذى انتفض لقول كلمة الحق ليكون فى موكب سادة الشهداء ؟

---

= رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى بإسناد صحيح ، وبالهامش . وأخرجه أحمد ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان . المرجع السابق رقم ١٩٧ .

(٥٣) عن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - قال : قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص - رضى الله عنهما : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله - ﷺ - قال : بينا رسول الله - ﷺ - يصلى بفناء الكعبة إذا أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله - ﷺ - ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى - ﷺ - ثم قال :

**﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾**

البخارى من حديث الأوزاعى الجزء ٦ ص ١٥٩ كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمن ( غافر ) ، وقال ابن كثير : انفرد به البخارى وتابعه محمد بن إسحاق عن إبراهيم عن أبيه به .

(٥٤) سورة غافر ، الآية ٢٨ .

إنه مؤمن آل فرعون . وعلى سيرته العطرة سارت قوافل الأبطال .

وفى موقف فرعون وملئه يقول الله تعالى :

**﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ، قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وماكيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ؛ إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾**(٥٥) .

وصعَّد مؤمن آل فرعون إنكاره عليهم شأن العقلاء من الدعاة فى التدرج ، ففى الأول بين أن موسى – عليه السلام – ليس له أن يقتل ؛ بل علينا أن نستفيد من دعوته ، وهو هنا يبين الحال التى عليها فرعون من ملك ، وظهور فى الأرض ، وتلك نعمة يجب أن يشكر عليها واهبها وخالقها . وجحود النعمة مجلبة للنقمة والعذاب . قال تعالى :

**﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾**(٥٦) .

وأحس فرعون الجِدَّ من الرجل ؛ فقد بدأ يوجه إليه النقد والإنكار ، وينذره بوعيد الله سبحانه . فما كان من فرعون – شأن كل ظالم حين يحس حرارة الدعوة – إلا أن رفض المبدأ فى ذاته ، وهو تقديم النصح ؛ فهو ليس محل نصح . بل هو الذى ينصح فقط ، ويرى الرأى للآخرين ، وليس بسبيل أى فرد أن يخرج من هذه الدائرة ، دائرة الاستسلام والانصياع له . ثم هو وقد ملأه الغرور يزعم أن رشاد الأمة ، وهدايتها ، هو وحده الذى يرسمهما لها ، وليس من أحد غيره أن يقول ذلك . انظر إلى قوله تعالى على لسان هذا الفرعون :

**﴿ قال فرعون : ما أريكم إلا ماأرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾**(٥٧) .

---

(٥٥) سورة غافر الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

(٥٦) سورة غافر الآية رقم ٢٩ .

(٥٧) سورة غافر الآية رقم ٢٩ .

كما قال سبحانه على لسانه أيضاً :

﴿ **فقال : أنا ربكم الأعلى** ﴾(٥٨) .

فهل كان بوسع القوم أن يردوا عليه دعواه ؟ نعم إذا كان للحرية فى الرأى وجود . ومتى كانت هذه الحرية مع الكبت والقمع ؟ ومتى كانت الحرية والطاغية يستبد ، ويستأثر بالسلطة ، ويستأثر بخيرات الأمة ؟

ولكن بوسع أصحاب الدعوات – وقد ادلهمت الخطوب ، واشتد أوار الظلم – أن يبددوا تلك الأقنعة المزيفة . إن موسى – عليه السلام – قال له بلهجة الواثق المطمئن :

﴿ **قال : لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر** ﴾(٥٩) .

وقال تعالى مبيناً وكاشفاً ماتنطوى عليه نفسية فرعون :

﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾(٦٠) .

ومتى يخرج هذا اليقين إلى عالم الوجود ؟

حين تشتد الوطأة به ، ولهيب الدعوة يتناوله بالعقاب ، حينئذ يستجدى العفو والنجاة .

قال تعالى :

﴿ **حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ، آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾(٦١) .

---

(٥٨) سورة النازعات الآية رقم ٢٤ .
(٥٩) سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠٢ .
(٦٠) سورة النمل ، الآية رقم ١٤ .
(٦١) سورة يونس ، الآيتان رقما ٩٠ ، ٩١ .

ذاك إيمان تجارى أيها الطاغية :

– فلم يكن إلا وقت الهزيمة .

– ولم يكن صراحة بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

وهذا النوع من الإيمان لا ينجى صاحبه من العقاب .

واستمر مؤمن آل فرعون فى دعوته ، وإنكاره على القوم ، وقد أخذ مرحلة ثالثة ، بعد إنكاره عليهم عزمهم على قتل موسى – عليه السلام – وبعد إنذارهم بعقاب الله سبحانه على جحود النعمة .

واعتمدت المرحلة الثالثة هذه على النظر والتأمل فى سير السابقين ، الذين أنزل الله سبحانه بهم عقابه ، وبين مؤمن آل فرعون فى هذا أمرين :

– جانب الدعوة من بنى القوم ، وبذله الجهد فى النصح ، ثم إنكارهم عليه ، وكفرهم .

– جانب العقاب نتيجة هذا الإنكار والكفر .

ومؤمن آل فرعون فى هذا يرسم طريقاً من طرق الدعوة ؛ حيث وجه النظر إلى أحداث الأمم ، واستخلاص العبر منها ، والعاقل من استفاد وأفاد ، والجاهلون من ظلوا فى غيهم يعمهون .

وفى ذلك يقول الله تعالى على لسانه :

**﴿ وقال الذى آمن : يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ﴾**(٦٢) .

وتذكير مؤمن آل فرعون لقومه بمثل هذه السير ، والحال أنه لم يذكر فى الآيات ما يدل على وحى أو إلهام له ، وأن الداعية حين يعرض هذه السير على

---

(٦٢) سورة غافر ، الآيتان رقما ٣٠ ، ٣١ .

المخاطب بهذا النحو - فإنه يذكر ما يمكن للمخاطب أن يتذكره ، فدل ذلك على :

- أن فرعون وقومه على جانب من المعرفة بمثل هذه السير .

- وأن مؤمن آل فرعون استغل معرفتهم هذه ، فاختارها للعظة والاعتبار .

ويخطو مؤمن آل فرعون من جديد إلى المرحلة الرابعة :

مرحلة الوعيد بما يلقونه فى الآخرة بعد أن عرفوا أمرين :

- أن بأس الله سبحانه إذا جاء فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

- وأن سير السابقين ، وما حدث للمنكرين على الدعوات دليل على ذلك .

قال الله تعالى :

**﴿ وياقوم ، إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله ، فما له من هاد ﴾**(٦٣) .

ويقترب مؤمن آل فرعون أكثر فيأخذ من سير السابقين سيرة أول نبى من بنى إسرائيل قدم إلى مصر ، وهو يوسف عليه السلام - واستعرض موقف الناس من دعوته ؛ فقد كان الناس فى حياته يشكُّون فيما جاءهم به .

وحين مات ثابوا إلى جانب من الرشد ، وأيقنوا أنه رسول .

ولكنهم وقعوا فى خطأ جديد ، وهو الحكم بأن الله سبحانه سوف لا يبعث رسولاً من بعده . وتلك الفروض لاتكلف الناس شيئاً . فحين تكون الدعوة قائمة ينكرونها ، وحين يموت الداعية الذى عانى منهم يتباكون عليه ، ولا يحرك فيهم هذا التباكى جانب العظة ، بل على العكس يحكمون على مستقبلهم بالضياع وعدم إرسال رسول جديد . وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(٦٣) سورة غافر ، الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

**﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾**(٦٤) .

ومع امتداد النَّفَس فى الدعوة من مؤمن آل فرعون ، وسوق الدليل تلو الدليل ترغيباً فى الحق ، وترهيباً من الكذب والظلم . فلم يكن من فرعون إلا رَدَّان :

– الرد السابق الذى تعود فرعون التخويف والتهديد به ، من حرمان الناس حريتهم فى الرأى ، وأن رأيه فقط سبيل رشادهم .

– ورد جديد حين اشتدت عليه حرارة الدعوة وقوتها ...

وإن كان رده الأول يدل على جهل ، فالرد الثانى يدل على غباء ؛ إنه ظن إذا ما صعد إلى مكان عالٍ يبنى له ؛ حيث يقترب من السماء يبحث عن إله موسى ، الذى يدعو إليه ، هكذا تصور فرعون بغبائه .

**﴿ وقال فرعون : يا هامان ، ابن لى صرحاً ؛ لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وماكيد فرعون إلا فى تباب ﴾**(٦٥) .

ثم دعا مؤمن آل فرعون إلى منهج جديد واجب الاتباع والاعتقاد .

١ – أن قيادة البشرية لا يجوز أن تكون بأيدى الطغمة الظالمة ، والتى تسلطت على رقاب البشر ، وحرمت الناس مجرد الرأى .

٢ – أن قيادة البشرية تكون للمؤمن الذى يسير على منهج الله سبحانه .

٣ – أن قيادة المؤمن للبشرية رشاد للأمة أولاً ، ويمتد رشدها إلى كل الجوانب .

---

(٦٤) سورة غافر ، الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(٦٥) سورة غافر ، الآيتان رقما ٣٦ ، ٣٧ .

وفيما سبق يقول تعالى :

**﴿ وقال الذى آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾**[٦٦] .

٤ - أن الدنيا مجال عمل على منهج سوى .

٥ - وأن العاقل من يراعى فى عمله الدنيوى الجزاء الأخروى .

٦ - وأن العقاب بمقدار الجريمة .

٧ - وأن من شروط العمل المقبول :

ا - أن يكون صالحاً بعيداً عن الفساد والإفساد فى الأرض .

ب - أن يكون على أساس من إيمان صحيح .

٨ - أن الرجل والمرأة فى الجزاء سواء عند رب العباد .

٩ - وأن من عمل العمل الصالح بعد إيمان صحيح يدخل الجنة فى الآخرة .

١٠ - وأن من عمل عملا سيئاً ، أو عمل عملا صالحاً دون إيمان صحيح فجزاؤه جهنم .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ يا قوم ، إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾**[٦٧] .

**إثارة وجدان القوم ومشاعرهم :**

أى قلب يسمع هذا النداء الرقيق ولا يتأثر به ؟

---

(٦٦) سورة غافر ، الآية رقم ٣٨ .

(٦٧) سورة غافر ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

إن مؤمن آل فرعون ، وقد ورد على لسانه بعض الجوانب التى يجب أن ينتهجها المسلم بدأ يثير فيهم المشاعر والوجدان بأرق أسلوب وأجمله .

إنه يعرض صوراً متقابلة ومتضادة ؛ صوراً فيها الهدى والرشاد وصوراً فيها الضلال والجهل . يعرضها فى صورة تعجب واستغراب ؛ فالقوم يدعونه إلى كفر يؤدى إلى النار ، وهو يدعوهم إلى النجاة منها بالإيمان .

والقوم يدعونه إلى مبدأ الكفر الذى ليس عليه أى دليل سوى الجحود ، وهو يدعوهم إلى العزيز الغفار .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ ويا قوم ، مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾**(٦٨) .

**وفى ختام القصة نلمح جانبين :**

١ - **الجانب الأول** : التعقيب الذى ورد على لسان مؤمن آل فرعون ؛ وذلك بالحكم على معبودات المشركين بأنها لا تستجيب للدعاء لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة وذلك واضح بشأن الأوثان والأصنام ، قال تعالى :

**﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعباداتهم كافرين ﴾**(٦٩) .

**﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾**(٧٠) .

---

(٦٨) سورة غافر ، الآيتان رقما ٤١ ، ٤٢ .
(٦٩) سورة الأحقاف ، الآيتان ٥ ، ٦ .
(٧٠) سورة فاطر ، الآية رقم ١٤ .

أما بشأن فرعون الذى عبدوه أيضاً من دون الله سبحانه ، فهو لايستجيب لمطالبهم ، وإن كان يملك أن يتكلم .

وفى تعقيب مؤمن آل فرعون أيضاً أننا جميعاً سنرد إلى ربنا سبحانه ، وأن أصحاب النار هم المسرفون دون غيرهم . وأن يوم القيامة يتذكر من لم يتذكر فى الدنيا ، ولكن بعد فوات الأوان ، ويختم حديثه بتفويض أمره إلى الله سبحانه بعد أن بذل كل الأسباب ، ووسائل النصح والإرشاد . وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾**(٧١) .

**٢ - والجانب الثانى** : تعقيب الله سبحانه على مؤمن آل فرعون من قومه ؛ وذلك بحفظه من مكرهم . وأن هذا المكر رُدَّ عليهم :

**﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾** (٧٢) .

وأن جزاء فرعون ، ومن تبعه سوء العذاب ، من نار يعرضون عليها غدوا وعشيا فى قبورهم ، ثم هم بعد ذلك يدخلون جهنم خالدين فيها أبداً .(٧٣)

---

(٧١) سورة غافر ، الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٢) سورة فاطر ، الآية ٤٣ .

(٧٣) والسياق على هذا النمط يفيد أن آل فرعون ، ومن على شاكلتهم من الكفر سيواجهون عذابين :

١ - عذاب القبر المستنبط من قوله تعالى :

**﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾** .

٢ - عذاب جهنم بالآخرة بعد البعث ، والتى صرحت الآية الكريمة به فى قوله تعالى :

**﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾** . =

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ فوقاه الله سيئات مامكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾**(٧٤) .

**دروس وعبر :**

– إذا ما توفرت للداعية الحجة القوية الدامغة فى حوار وتحد ، كان وسط حشود الناس أبلغ أثراً ، وأعم فائدة لصالح الدعوة .

---

= وفى الباب أحاديث كثيرة نختار منها فى هذا المقام :

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : دَخَلَتْ عَلَىَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا لى : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، فكذبتهما ، ولم أُنْعِمْ أن أصدقهما ، فخرجتا ، ودخل علىَّ النبى – ﷺ – فقلت له : يا رسول الله ، إن عجوزين ( وذكرْتُ له ) فقال :

**« صدقتا ؛ إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها ، فما رأيته بعد فى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر »** أخرجه البخارى جـ ٨ ص ٩٧ ، ٩٨ كتاب الدعوات ، باب التعوذ من الفتن .

وكان النبى – ﷺ – يأمر بخمس : هى :

**« اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا** ( يعنى فتنة الدجال ) **وأعوذ بك من عذاب القبر »** المصدر السابق .

وفى الباب عند البخارى حديثان آخران عن أم خالد بنت خالد ، وأنس ابن مالك – رضى الله عنهما .

والأحاديث تدل على ثبوت عذاب القبر ، وجواز تفسير الآية الكريمة على النحو الوارد بالأصل . والله أعلم .

(٧٤) سورة غافر الآيتان رقما ٤٥ ، ٤٦ .

– يستطيع الحاكم الظالم أن يضلل شعبا بأكمله بإخفاء الحقائق عنه ، وتصوير الدعاة بأنهم مفسدون فى الأرض ، ولكن حين يفتح الشعب عينيه على الحقيقة يفتضح أمره ، ويصاب بانهيار وخذلان .

– بغية المنافقين من طاغيتهم الأجر والغنم ، وبغية الداعية إنجاح دعوته ، وهداية البشر إلى الطريق المستقيم ، وشتان مابين البغيتين .

– إذا ما التقى الباطل والحق وجها لوجه دون قناع ، فلابد أن يظهر الحق ويزهق الباطل ، ويؤمن العديد من البشر الذين سبق خداعهم .

– لا مكان فى المعركة لخائف ، ولذا كانت النصحية **﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾** .

– العقلاء من البشر هم الذين يسرعون إلى الإيمان وقد تبين لهم الصواب . شأن السحرة .

– على الداعية أن يعتقد أن من بلغ من العتو والإفساد مبلغ فرعون ، لا ينتظر منه إيمان ، ولكن دعوته إعذار إلى الله سبحانه ، وزعزعة الأرض التى يقف عليها ، والقاعدة البشرية التى يتقوى بها فرعون .

– إذا ما رأى الطاغية نجاح دعوة إصلاحية أصيب بجنون ، وسرعان ما يلجأ إلى العنف والتنكيل وتلفيق التهم الباطلة ، وقتل البرآء ، وتعذيب المؤمنين ، وتقطيع أجسادهم وهم أحياء .

– قوة المؤمن أقوى من التنكيل والتعذيب ، وهذا مما يزيد من غيظ الطغاة الظلمة .

– دعاء المؤمن ألا يصيبه مكروه ، وألا يتعرض لفتنة ، فإذا أرغم عليها صبر واحتسب الأجر عند الله سبحانه .

– فُضِّلَ بنو إسرائيل على غيرهم فى زمانهم ، حين تجمعت لديهم حيثيات التفضيل .

– « **أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله** » (٧٥) فالعقيدة التى كانت الدعوة إليها من جميع الرسل واحدة .

ولكن التشريع يختلف باختلاف الأزمنة ، وقد ختم بتشريع الرسالة المحمدية .

– أن أمة محمد – ﷺ – أفضل الأمم إذا ما حافظت على سبب التفضيل وأن النبى – ﷺ – هو أفضل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام .

– قول كلمة الحق أمام سلطان جائر أفضل الجهاد ؛ كما لها من أثر كبير فى نفوس الناس . كما حدث من مؤمن آل فرعون .

– من يريد قول كلمة الحق عليه أن يدرس نفسية المخاطب ، وكيف يتدرج معه ؟ ويستدرجه ، والأسلوب الذى يخاطبه به .

– من يريد قول الحق عليه أن يضع نصب عينيه امتداد حياته على الحق ، فهو يريد النصر ، ولو واتاه الموت بالطريق رَحَّب به وكان من سادة الشهداء .

– الداعية على دراية بأحداث الأمم السابقة ، والتاريخ القديم والمعاصر ، كما يعلم أحوال البشر واجتماعاتهم ، ونفسية الناس وبأى الأشياء تتأثر ؟ كما نلمح فى حوار مؤمن آل فرعون .

– الداعية يستغل الفرصة فى حواره مع الطاغية ، ويوجهُ الخطاب إلى من حوله إثارة لهم بالأهمية فربما ينقلبون عليه ، ويؤمنون بالحق .

– شغل الداعية الشاغل له دائما العقيدة الصحيحة ، يؤمن بها ، ويدعو إليها ويفرح بمن آمن بها . كما أنه فى سبيل ذلك أيضا تحطيم العقائد الباطلة من عبادة إنسان أو مبدأ أو صنم ...

– لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، وإن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

---

(٧٥) سبق هذا الحديث فى مقدمة الكتاب .

# الانتقام من المفسدين فى الأرض

- مقدمات .
- تجمع بنى إسرائيل ، والاتجاه صوب البحر ليلًا
- غرق فرعون وجنوده .
- إيمان الفراعنة .
- استخلاف المؤمنين .
- دروس وعبر .

## مقدمات .

سبق أن عرفنا أن الله سبحانه أرسل نبيه موسى ــــ عليه السلام ــــ فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، وأن آيتى العصا واليد كانتا فى مقدمة عرض الدعوة ، وأن الآيات السبع الباقية كانت فى موقفين :

الموقف الأول : حين تمرد فرعون وقومه على آيتى العصا واليد أصابهم الله سبحانه بآيتى السنين ( الجدب فى الأرض ) ونقص الثمرات . فكانت الآيتان ردًّا على تمردهم ، وزعمهم بأن موسى يفسد فى الأرض ؛ فجاءهم العذاب من حيث اتهموا زوراً وبهتانا النبى موسى ــــ عليه السلام .

الموقف الثانى : حين إصرارهم على الكفر ، وعدم التأثر بآيتى السنين ، ونقص الثمرات ، أرسل الله سبحانه عليهم : الطوفان والجراد والقمل ، والضفادع ، والدم . وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾** (١) .

وشعر فرعون وقومه باشتداد الوطأة عليهم . فتوجهوا إلى موسى ــــ عليه السلام ــــ زاعمين أنه إذا ما كشف ربه العذاب عنهم فسيؤمنون ، ويرسلون معه بني إسرائيل . وهذا أول موقف يظهر فيه خوف فرعون ، وأنى لخوف يفيد صاحبه إذا ما خلا من إيمان ؟ فقد قال ادع لنا ربك ولم يقل ادع لنا ربنا . وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا**

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان رقما ١٣٢ ، ١٣٣ .

**عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ، إذا هم ينكثون ﴾** (٢)

ومن دعاء موسى — عليه السلام — عليهم بعد أن ازداد طغيانهم ما ورد فى القرآن الكريم على لسانه :

**﴿ ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾** (٣) .

## تجمع بنى إسرائيل والاتجاه صوب البحر :

نكث فرعون العهد الذى أخذه على نفسه بأن يؤمن إذا ما كشف عنهم الرجز ، فما كان إلا المرحلة الأخيرة فى الانتقام ، بالطمس على الأموال ، وإلقاء الرعب فى القلوب ، والإهلاك . كما ورد فى دعاء موسى — عليه السلام — السابق .

تجمع بنو إسرائيل خلف موسى — عليه السلام — عازمين على الخروج من مصر ؛ هربا من ظلم فرعون وقومه ، وحتى لا يصيبهم من العذاب ما سيصيب القوم الظالمين .

وتلقى موسى — عليه السلام — الوحى من الله سبحانه بأن تتحرك مسيرة بنى إسرائيل بقيادته ليلًا .

**﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ﴾** (٤) .

**﴿ فأسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون ﴾** (٥) .

وبدأ التحرك فى جنح الظلام ، وعلم فرعون وقومه بشأن هذا التحرك ،

---

(٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٣) سورة يونس الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .
(٤) سورة طه الآية رقم ٧٧ .
(٥) سورة الدخان الآية رقم ٢٣ .

ولم يكن بوسعهم إلا أن يتبعوهم ليدركوهم ، ولخطورة هذا الإدراك تولت العناية الإلهية قيادة المسيرة بواسطة النبى موسى — عليه السلام .

ولم يكن اتجاه موسى — عليه السلام — إلى البحر ؛ انتحارا حاشاه عن ذلك ، ولكن الوحى قد رسم له الخطة .

ولنتأمل فرعون فى هذه الحالة .

إنه يسير خلف موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل ، ويعتقد أنه سيدركهم ويحاصرهم . البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم . فأنى لهم من فرار ، وفرعون وجنوده أقوى عدداً وعدة ؟ ! .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً ﴾** (٦) .

وبزغت الشمس من مشرقها ، وأضاءت ساحة المعركة ، فإذا بجمعين . يرى كل منهما الآخر . بنو إسرائيل قرب الشاطئ ، وفرعون وجنوده خلفهم من جهة الغرب . فى هذه اللحظة ظن بنو إسرائيل السوء بأنفسهم ، وتصوروا أنهم مدركون لا محالة ، ولكن النبى موسى — عليه السلام — على ثقة بنصر الله وتأييده وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان ، قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ؛ إن معى ربى سيهدين ﴾** (٧) .

---

(٦) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .

(٧) سورة الشعراء الآيات من رقم ٦٠ إلى رقم ٦٢ .

وكان التعبير على لسان موسى — عليه السلام — بقوله تعالى : **﴿ إن معى ربى ﴾** بتقديم المعية ؛ لأن بنى إسرائيل أصيبوا بهلع ، وذعر ، حين اقتراب فرعون ، وجنوده منهم ، وتصوروا أنهم مدركون لا محالة ، فتقديم المعية إشعار سريع بالمدد ، والقوة اللذين يريدهما بنو إسرائيل ، فهم فى حال شك من أنفسهم . أما التعبير القرآنى الذى ورد على لسان =

## غرق فرعون وجنوده :

وأصبح المشهد على هذا النحو :

بنو إسرائيل ، وقد حملوا أمتعتهم التى خرجوا بها قرب الماء . خطاهم متجهة إلى الشرق ، وعيونهم تنظر إلى الخلف جهة الغرب ، حيث يتبعهم فرعون وجنوده ، وعلى وجوه بنى إسرائيل علامات الذعر ؛ توقعاً لخطر بهم سينزل . ويوجهون كلامهم إلى النبى موسى — عليه السلام — قائلين له فى اضطراب : ﴿ **إنا لمدركون** ﴾ ويرد عليهم مطمئنا إياهم ، وبلهجة الواثق من مدد الله القوى المتين ، ونافيا لما يتصورونه من إدراك فرعون وجنوده لهم قائلًا : ﴿ **إن معى ربى سيهدين** ﴾ .

ومن يرى موقفا على هذه الحال وهو متوسط الإيمان يصيبه ما أصاب بنى إسرائيل من خوف .

ولكن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والأخيار الصالحين المتقين يعتقدون بأن الله سبحانه سيجعل لهم مخرجاً ، ولا يتخلى عنهم أبداً ، وهو وإن وضع عباده فى مثل هذا الموقف فهو يختبرهم ، ويمحص قلوبهم ، ويميز الخبيث من الطيب ، والكاذب من الصادق .

---

= النبى محمد — ﷺ — وهو وصاحبه أبو بكر فى الغار ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ حيث قدم لفظ الجلالة على المعية ؛ لأن المخاطب وهو الصديق لم يكن فى شك مثل بنى إسرائيل ، وكان خوفه على النبى — ﷺ — فناسب تقديم لفظ الجلالة حيث الأنس به فى تلك الوحشة ، وناسب تقديم المعية هناك حيث الإشعار بالقوة الغالبة التى لا تقهر أبداً من أى قوة أخرى وقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى بكر — رضى الله عنه — قال : قلت للنبى — ﷺ — وأنا فى الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** » ( اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابه ، باب من فضائل أبى بكر الصديق — رضى الله عنه . ص ٦٣١ رقم ١٥٤٠ ) فتأمل الفرق فى التعبيرين لاختلاف المخاطبين فى الموقفين والله أعلم بالصواب .

ونزل الوحى الكريم على جناح السرعة ، يحمله جبريل الأمين ـــ عليه السلام .

**﴿ فأوحينا إلى موسى . أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾** (٨) .

أكان يظن بنو إسرائيل أن هذا سيتم ؟ إنهم ما كانوا يتصورون ذلك أبداً ، ولا قريباً منه ، ولعلهم يعتبرون ويتعظون .

إن العصا التى انقلبت ثعباناً بقدرة الله سبحانه معجزة وآية لفرعون ومن كان معه ، هى الآن تمثل إشارة لحدث هائل . أى علاقة بين عصا وثعبان ؟ وأى علاقة بين عصا وبحر ؟ لا علاقة إلا أن كلا منها من خلق الله تعالى . والله سبحانه يجرى الأحداث مع الأسباب لا بالأسباب ، وإلا فالسببية المعتادة هنا معدومة ، وما كانت العصا إلا إشارة البدء لمعجزة جديدة فى عالم بنى إسرائيل ، وعالم الرسالات .

وانفلق البحر فكان كل فرق كالطود الهائل العظيم . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى إن الطريق بين هذه الأطواد غير مبلل بالماء ؛ فلا طين تسوخ فيه الأقدام فتتعطل المسيرة وتبطئ ولا حجارة تصد وجوه القوم ، وتدمى أقدامهم ، ولا خوف من انطباق الأطواد ليكون البحر بصفحة مستوية . فمن خلق الأطواد هو الذى سيبقيها حتى يتحقق الغرض منها وهو النجاة . وتأمل هذا كله فى هذا التعبير القرآنى ، قال تعالى :

**﴿ فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً ، لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾** (٩) .

ولنتصور أيضاً مجموع الأحداث وهم فى طريق معبّد كهذا فى خليج السويس بالبحر الأحمر ؛ فعبور البحر الأحمر ليس بالطريق إلى أرض فلسطين ،

---

(٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ٦٣ .
(٩) سورة طه ، الآية رقم ٧٧ .

وإنما عبور خليج السويس هو الطريق إلى سيناء ، والطور ، ثم الاتجاه إلى الشمال الشرقى إلى فلسطين . وليس طريق القوافل التى كانت تقدم وتروح بين مصر وبلاد الشام ، فما سبق من أحداث فى قصة يوسف – عليه السلام – علمنا أن الإبل هى التى كانت تحمل الأمتعة والحبوب ولم يكن فى مسيرة هذه القوافل سفن ، وربما سلك موسى – عليه السلام – وقومه هذا الطريق بوحى من الله سبحانه ، أو باجتهاد منه تضليلا لفرعون وجنوده (١٠) ، وكان الوحى عند الشاطئ .

وإن جاز لنا أن نتصور شيئاً فى هذا الموقف فنقول :

ـ أضيق نقطة فى خليج السويس عرضها ١٥ ك م غير قمة الرأس .

ـ وإذا ما تصورنا هذه المسافة يمكننا أن نستنبط .

ـ أن هذه المسافة من السهل على أصحاب موسى – عليه السلام – أن يتجاوزوها فى ساعة من الزمن .

ـ وأن هذا الزمن القصير سهل على النفس الهاربة أن تتحمله دون معاناة .

ـ وأن الشاطئ الآخر حيث سيناء يرى بالعين المجردة ، فتكون الرؤية حافزاً على السرعة فى السير .

هذا من ناحية قوم موسى – عليه السلام .

وأما من ناحية فرعون وجنوده .

ـ فإن هذه المسافة ( ١٥ كم ) يمكنها أن تستوعب جيشاً كاملا بين الشاطئين ، ولا يتبقى جزء منه لم ينزل إلى الطريق المضروب فى البحر .

---

(١٠) وكما حدث من النبى ـ ﷺ ـ حين اتجه فى الهجرة إلى جنوب مكة والطريق المعتاد إلى المدينة نحو الشمال ؛ تضليلا لقريش الذين سيلاحقونه .

ـــ كما أن الوقت الذى يستغرق النزول من جميع أفراد الجيش ، يتم قبل خروج مقدمة هذا الجيش .

والآيات الكريمة يفهم منها غرق الجيش بأكمله مع فرعون .

وتأمل فى ذلك قوله تعالى :

**﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾** (١١) .

أى قربنا إلى البحر فرعون وجنوده .

ولأن الغرض من هذه الأحداث نجاة المؤمنين من الظالمين كان تأكيد نجاتهم جميعاً **﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾** وبالمقابل كان إغراق الآخرين .

وقيمة التأكيد فى الأول دون الثانى .

أن نجاة الكل تتحقق بنجاة آخر جندى فى مؤخرة قوم موسى – عليه السلام – ولا تكتمل النجاة إلا بعدم خروج أى واحد من جنود فرعون ، لما فى ذلك من الخطورة على أحد بنى إسرائيل ، وحيث لا خطورة من بقاء جندى من جنود فرعون على الشاطئ الغربى لم يتمكن بعد من النزول ـــ وإن كان الواقع أنهم نزلوا جميعاً ـــ فلم يلزم التأكيد مع الإغراق ، كما لزم التأكيد مع الإنجاء ، والله أعلم بالصواب .

وفى هذا المقام يمكننا أن نستنبط هذا المشهد أيضاً .

ـــ قوم موسى – عليه السلام – على الشاطئ الشرقى فى سيناء ، ينظرون إلى من خلفهم .

ـــ قوم فرعون بالطريق اليبنس ، وقد استوعبهم .

ويتغير المشهد إلى :

---

(١١) سورة الشعراء ، الآيات من رقم ٦٤ ، إلى رقم ٦٦ .

ــ إطباق الأطواد على فرعون وجنوده جميعاً ، وفى ذلك من الهول ما فيه .

ــ وفى ذلك من الفرج ما فيه لبنى إسرائيل ، وموسى – عليه السلام .

يقول الله تعالى :

**﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾** (١٢) .

ويقول أيضاً :

**﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر ، كيف كان عاقبة الظالمين ؟ ﴾** (١٣) .

ويقول :

**﴿ فانتقمنا منهم ، فأغرقناهم فى اليم ؛ بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ﴾** (١٤) .

ويقول :

**﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾** (١٥) .

والتعبير باليم فى الآيات يفسر بما ورد فى الآيات الست الأخرى بالبحر (١٦) .

---

(١٢) سورة طه ، الآية رقم ٧٨ .
(١٣) سورة القصص ، الآية رقم ٤٠ .
(١٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٦ .
(١٥) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤٠ .
(١٦) والآيات الست الأخرى هى :

**﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ﴾** ( البقرة ٥٠ ) .
**﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ﴾** ( الأعراف ١٣٨ بعد آية اليم بنفس السورة ) .

ونظر موسى - عليه السلام - بعد أن صعد إلى الشاطئ المبارك ـــ إلى فرعون وهو يسير بطريق الأطواد ، وسرعان ما نزل الوحى الكريم من السماء ﴿ **واترك البحر رهواً ؛ إنهم جند مغرقون** ﴾ (١٧) .

أى اتركه على هيئته ساكنا ، وما أن توسط جند فرعون البحر حتى كان إطباق الأطواد عليهم ، وانتهت صفحة فى تاريخ الظلم والظالمين ؛ لتكون عبرة وعظة لكل الأجيال اللاحقة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى معقبا على إغراقه فرعون وجنوده :

﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ (١٨) .

فالأحداث السابقة والتى وردت فى أوثق المصادر على الإطلاق سيقت آية ، ودليلًا ، وعبرة لأولى العقول المتفتحة ، والألباب المستنيرة .

وكان هذا اليوم يوم العاشر من المحرم كما ورد فى السنة النبوية .

وكان يوم النجاة من فرعون يوما عظيما ، عده بنو إسرائيل عيداً من أعيادهم ، وحدثا مهما ظلت بصماته واضحة فى بنى إسرائيل حتى بعثة النبى

---

= ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده** ﴾ ( يونس ٩٠ ) .
﴿ **فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً** ﴾ ( طه ٧٧ ) .
﴿ **فأوحينا إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ ( الشعراء ٦٣ ) .
﴿ **واترك البحر رهواً ؛ إنهم جند مغرقون** ﴾ ( الدخان ٢٤ ) .
فاليم يُطلق على النهر العذب ، وعلى البحر الملح ، ويخصص بما ورد فى هذه الآيات .
أما ماورد بشأن إلقاء موسى ـــ عليه السلام ـــ وهو رضيع فى اليم مرتين فى سورة طه الآية رقم ٣٩ ، وثالثة فى سورة القصص الآية رقم ٧ ، ولم يرد فى القرآن الكريم ما يفسر اليم بالبحر بشأن إلقائه رضيعاً فناسب أن يكون المراد نهر النيل حيث تجمع سكان مصر ، وحيث كانت المنازل والقصور ، ومنها قصر فرعون آنذاك . والله أعلم .

(١٧) سورة الدخان ، الآية رقم ٢٤ .

(١٨) سورة الشعراء ، الآيتان رقما ٦٧ ، ٦٨ .

محمد – ﷺ – صامه موسى – عليه السلام – شكراً لله سبحانه ، وصامه بنو إسرائيل .

فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قدم النبى – ﷺ – المدينة ، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء . فقال : ماهذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : « **فأنا أحق بموسى منكم** » فصامه ، وأمر بصيامه .

وعن أبى موسى – رضى الله عنه – قال : كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً . قال النبى – ﷺ : « **فصوموه أنتم** » (١٩) .

وقد صامه العرب فى الجاهلية أيضاً مما يدل على قوة هذا الحدث . وتأثر الأجيال اللاحقة به على اختلاف هذه الأجيال وتباينها .

فعن عائشة – رضى الله عنها – أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، ثم أمر رسول الله – ﷺ – بصيامه حتى فرض رمضان ، وقال رسول الله – ﷺ :

« **من شاء فليصمه ، ومن شاء أفطر** » .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية ، فلما نزل رمضان ، قال :

« **من شاء صامه ، ومن شاء لم يصمه** » .

وعن الربيع بنت معوذ – رضى الله عنها – قالت : أرسل النبى – ﷺ – غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار .

---

(١٩) الحديثان أخرجهما الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصيام ، باب صيام يوم عاشوراء رقم ٦٩٢ ، ورقم ٦٩٣ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ . وصحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٣ .

« **من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم** »
قالت : فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك ، حتى يكون عند الإفطار [٢٠] .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : لما صام رسول الله – ﷺ – يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه ، قالوا : يارسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال : « **إذا كان عام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع ( أى معه )** » قال : ( أى ابن عباس ) فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله – ﷺ [٢١] .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال :

« **صوموا التاسع والعاشر ، وخالفوا اليهود** » [٢٢] .

وفى ضوء الأحاديث السابقة مجتمعة يتبين لنا :

١ – أن نجاة موسى – عليه السلام – وبنى إسرائيل من الغرق ومن فرعون كان بالعاشر من المحرم .

٢ – وأن موسى – عليه السلام – وبنى إسرائيل صاموه شكراً لله سبحانه على نجاتهم .

٣ – وأنهم قد اعتبروا هذا اليوم عيداً لهم يفرحون فيه ، ويهنئون أنفسهم بنجاتهم .

٤ – وأن تعظيمهم لهذا اليوم ظل فترة طويلة فى حياة بنى إسرائيل ،

---

(٢٠) الأحاديث الثلاثة أخرجها الشيخان . المصدر السابق أرقام ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٦ .
(٢١) أخرجه مسلم . المختصر ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، وعزى أيضاً إلى أبى داود فى : نيل الأوطار ج ٤ ص ٢٧٣ .
(٢٢) عزاه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى إلى البيهقى فى سننه ( ٢٨٧/٤ ) وقال : سنده صحيح .٠هامش مختصر صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣ .

حتى مبعث النبى - ﷺ .

٥ - وأن قريشاً تأثرت بهذا الحدث أيضاً فصامته ، سواء عرفت السبب أم لم تعرف .

٦ - وأن الأوس والخزرج أيضاً صاموه .

٧ - كما أن النصارى صاموا هذا اليوم تعظيما له وتكريما لبنى إسرائيل .

٨ - وأن الإجماع على ذلك من قريش ، والأوس ، والخزرج ، واليهود ، والنصارى دل على صدق أهل الكتاب فى دعواهم أنه يوم النجاة من الغرق .

٩ - وأن العلاقة بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من أقوى العلاقات ؛ لأنهم جميعاً يدعون إلى توحيد الله سبحانه ، وعبادته . وأنهم أولى بأنفسهم من غيرهم .

١٠ - وأن صيام يوم شكراً لله سبحانه على نعمة مّا مشروع ، ما لم ينه عن صوم هذا اليوم بعينه .. .

١١ - وأن حرص الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - على صيامه كان قويًّا بعد علمهم بسبب المشروعية ، وصيام النبى - ﷺ - له .

١٢ - وأن تعويدهم أبناءهم على الصيام ، وتدريبهم عليه يدل على شدة تمسكهم بالدين من ناحية ، وتربية الجيل الجديد فى الدعوة من ناحية أخرى .

١٣ - وأن الشخصية الإسلامية متميزة ، وغير ذائبة فى غيرها ، مع الاحتفاظ بالإيمان بالرسل جميعاً .

١٤ - وأن الصحابة فهموا هذا الأصل وهو التميز عن اليهود والنصارى ، ولذا قالوا : يارسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ؛ يعنى : فكيف نصوم هذا اليوم ، وفى ظاهره مخالفة لهذا الأصل ؟ .

١٥ - وأن النبى - ﷺ - وقد ربى أصحابه تلك التربية القويمة استجاب لما يفهم من كلامهم . فقال : ما يدل على إضافة اليوم التاسع مع العاشر

ليتحقق أمران :

( ا ) صيام عاشوراء من ناحية .

(ب) مخالفة اليهود النصارى من ناحية أخرى بإضافة التاسع ، وهم قد اكتفوا بالعاشر .

١٦ – وأن صيام عاشوراء وتاسوعاء سنة متبعة إلى قيام الساعة من قام بها فله الأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى .

كما أن فى الباب ما يدل على إضافة اليوم الحادى عشر أيضاً ، والله أعلم بالصواب .

## إيمان الفراعنة :

إن صح أن كان للفراعنة ، والطغمة المستبدة بشئون البشر ظلما وعدوانا إيمانٌ . فهو ذاك الإيمان التجارى الذى تظهر فيه المفاوضة على الثمن المادى منذ اللحظة الأولى ، وحتى ولو تحقق هذا الثمن فما أسرع تلك النماذج العفنة فى الرجوع إلى سيرتها الأولى ، ناكثة كل العهود التى قطعتها على أنفسها ، ويسوق القرآن الكريم ذلك النوع من الإيمان ليقف المسلم على أحوال البشر ، وطباعهم المتباينة ؛ فيتصرف بحكمة وحذر ، على أساس هذا الرصيد الضخم ، من تجارب السابقين فى القرآن الكريم ، وحتى لا يلدغ أو يخدع بهؤلاء الناس .

إن تاريخهم الحافل بكل عار ليعلن على البشر نوعية إيمانهم .

إنهم ذبحوا الغلمان ذبح الدجاج بين جدران البيوت ، وفى الشوارع ، وفى أحضان الأمهات ، وعلى مرأى ومسمع من الناس بغية تطويع المسحوقين تحت سلطانهم .

إنهم قطعوا الأجساد إربا إربا ، وقطعوا الأطراف والبشر أحياء .

إنهم صلبوا المؤمنين على جذوع النخل ، وتفننوا فى كل صنوف التنكيل والتعذيب ليرجع هؤلاء المؤمنون إلى دينهم الباطل . وما هم بفاعلين :

إنهم قد امتلئوا حقداً وبغضاً فى قلوبهم ، ومن سماتهم المميزة فى المواثيق نقضها ونكثها .

فقد سبق لفرعون موقف يعتبر مؤشراً لما سيكون منه لو كانت نجاته من الغرق ، وذلك حين أرسل الله سبحانه عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم صرخوا بملئ أفواههم مستغيثين بموسى ــــ عليه السلام ــــ أن يدعو ربه سبحانه ؛ ليكشف عنهم العذاب ، وحين كشف هذا العذاب كانوا إلى سيرتهم الملطخة بالعار أسرع .

ودلت التجربة معهم على أنهم ليسوا على التزام بالعهود لا يرعون لها حقاً ، ولا يقيمون لها وزناً ، ورجعوا إلى التنكيل من جديد بالمؤمنين دون هوادة ورحمة ، فكان الانتقام بالإغراق ، وأشرف الطاغية فرعون على الغرق ، فأعلن إيمانه المزيف من جديد دون حياء ، ودل على نوعية هذا الإيمان قوله : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل ، ولم يقل صراحة آمنت بالله الواحد لا شريك له فى ألوهيته ، قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . وأنا من المسلمين ﴾** (٢٣) .

وما استحق فرعون إلا وأن يتم الإهلاك له ولجنوده أجمعين ، وجمعت حيثيات الحكم بالإعدام إغراقا فى أمرين :

( ا ) نكث العهد قبل ذلك .

(ب) الإفساد فى الأرض .

قال تعالى :

**﴿ الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك**

---

(٢٣) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .

**لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾** (٢٤) .

وصدق الله سبحانه فعلى الرغم من رؤية الناس جثته وقد ألقيت على الشاطئ ، وعلى الرغم من رؤيتها فى المتاحف الفرعونية محنطة حتى هذا الأيام ، فقد غفل كثير من الناس عن العبرة والعظة من تلك القصة الدامية ، أما المؤمنون فيأخذون منها العبر والعظات .

## استخلاف المؤمنين :

وتحقق الرجاء الذى طمأن به موسى ـــ عليه السلام ـــ قومه حين أصابهم هلع من الإيذاء المتلاحق من فرعون ، فقد قال الله سبحانه على لسان قومه ولسانه :

**﴿ قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر . كيف تعملون ؟ ﴾** (٢٥) .

وتأمل المناخ الذى أعلن فيه هذا الرجاء ، إنه المناخ الذى زكمت فيه الأنوف بنتن فرعون ، وظن الناس أن السحق للمؤمنين ـــ لا محالة ـــ واقع ، وأن فرعون لا يبقى ولا يذر . بل الرجاء ورد أيضاً قبل ولادة النبى موسى ـــ عليه السلام ـــ حين استحكمت للشر حلقاته ، واستبد بالبشر زبانيته ، وملأ الأرض فساده وإفساده ، ولا بصيص من نور إلا من نور رب الأرباب خالق الأكوان ، وقد ساق الله سبحانه هذا الموقف هدية للنبى الحبيب محمد ـــ ﷺ ـــ فى مفتتح سورة القصص . قال تعالى :

**﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى ، وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ؛ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ،**

---

(٢٤) سورة يونس الآيتان رقما ٩١ ، ٩٢ . (٢٥) سورة الأعراف الآية رقم ١٢٩ .

**يستضعف طائفة منهم ؛ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ، وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾** (٢٦) .

وتأمل السياق السابق فى الآيات . إن الرجاء فى الاستخلاف بعد عرض مخازي فرعون بإيجاز . كان قبل ولادة موسى — عليه السلام — وإرضاعه .

فأى رحمة بالبشرية تبلغ هذا الحد ؟ .

إنها رحمة الله سبحانه بعباده المستضعفين فى الأرض ، إنها استخلاف لمن ملك مقومات الاستخلاف . وبالتالى سينزع منهم تلك الخلافة إذا ما تخلوا عن الأمانة التى حملوها .

---

(٢٦) سورة القصص ، الآيات : ١ – ٧ .

## دروس وعبر :

ـــ إن الله سبحانه وتعالى لا يعذب قوماً إلا بعد أن يرسل إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين يحملون من الأدلة على صدقهم ، وصدق دعوتهم فقد قال :

﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ (٢٧) .

نكث العهود من صفات الظلمة الطغاة ، فعلى المؤمن الحذر منهم حين يكونون فى مأزق ، ويرفعون الراية البيضاء مستسلمين ، وما نكث فرعون بالعهود ببعيد .

ـــ أسلوب الهرب من الظلم يجب أن يحاط بالسرية ، والكتمان ، ويختار له من الوقت أخفاه وأستره ، وتعدّ المؤن اللازمة للطريق .

ـــ حين تدلهمّ وتشتد الكربات ، وقد استنفد المؤمنون كل الوسائل الممكنة تتنزل العناية الإلهية لتقود المعركة ويتم النصر كما حدث فى البحر .

إن الله سبحانه الخالق للبحر والكون كله هو القادر على تسخير الكون لخدمة الإنسان ، فإن كان قد جعل للماء خاصية معينة هو الذى يستطيع أن يمسك بهذه الخاصية متى شاء ؛ إنقاذاً لعباده المؤمنين .

إن الله سبحانه نقل ميدان المعركة من أرض مصر إلى خليج السويس ، لحكمة ظهرت فى آخر الأحداث ، وهى إغراق فرعون وجنده جميعاً ، وقد استحقوا ذلك ، وما كانوا يظنون ذلك أبداً أنه واقع بهم .

ـــ قد يتصور المرء فى أمر مّا ضرراً واقعا لا محالة ، وفيه من الفرج ما فيه ، فعلى المؤمن الوثوق بالله سبحانه ونصره لعباده ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ (٢٨) .

ـــ إن للفراعنة الطغاة إيمانا من نوع خاص ليس له من وزن إلا الدجل

---

(٢٧) سورة الإسراء ، الآية رقم ١٥ .  (٢٨) سورة الطلاق الآيتان ٢ ، ٣ .

والكذب على المؤمنين حتى تنفرج أزمتهم فقط .

ــ إن هذا الإيمان المزيف إذا ما تأمل المؤمن الصورة التى كان بها ، علم الزيف بها ، والكذب الذى يختفى وراء هذا النوع من الإيمان .

ــ إن العاقبة للمؤمنين مهما تأزمت الخطوب ، واشتدت الظلمة . فعليهم أن يتابعوا المسيرة ، ولا ييئسوا من روح الله سبحانه وتعالى .

ــ إن الله سبحانه أرحم بعباده المؤمنين من الأم على وليدها ، وأفرح بتوبة عبده المؤمن من ذنوب اقترفها ، وأراد الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى . الرحمن الرحيم .

# بنو إسرائيل فى سيناء

- **فى مواجهة جدب الصحراء .**
- **إنقاذ جديد :**

ا - بالغمام يظلهم .

ب - والمنّ طعام ، وحلوى .

جـ - والسلوى لحم طير طيب .

د - والماء العذب السائغ للشاربين .

- **زهدهم فى المنّ والسلوى ، ورغبتهم فى البصل ، والثوم .**
- **حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية .**

**فى مواجهة جدب الصحراء .**

قطع بنو إسرائيل الطريق حتى وصلوا إلى سيناء ما يقرب من مائة وخمسين كيلو متراً ، مشيا على الأقدام ، وقد أغَذُّوا السير ؛ حتى لايدركهم فرعون ، وجنوده ، وإن كان من مؤن محمولة ، فهى مؤن الهاربين الذين يأخذون ما خف حمله ؛ ليكون المسير دون معاناة مهلكة .

فأنى لمؤن بنى إسرائيل أن تبلغ من البطون مبلغها ؟! وأنى للبطن الجائعة أن تسكت عن عوائها ؟ فإن جاز لها أن تسكت وقت الهروب فهل لها ذلك بعد أن أغرق الله سبحانه فرعون ، وجنوده ، وأصبح بنو إسرائيل وحدهم فى تلك الصحراء الشاسعة الجدباء ؟

إن فترة استرخاء للقوم ستمرّ بهم ، ولا يلبثون إلا ويحركهم ألم الجوع والعطش . ولا يسدُّ هنا الجوع تراب الصحراء أو حجارتها ، ولا يطفئُ لهيب الظمأ الماء الأجاج .

تلك هى الحال التى واجهها بنو إسرائيل حين مسَّت أقدامهم الدامية أرض سيناء . فهل كان إنقاذهم بلحم الحشرات السارية بين الأحجار ؟ أو بقية جيفة تركها السباع ؟ أو شوك النباتات الرملية الجافة ؟ لو كان هذا لعدّ من النعم التى تساق إلى من بهم مثل هذه الحال من الجوع والعطش .

وكيف بهم أيضاً – على فرض أن أكلوا الجيفة والشوك والحشرات – وهذا المناخ الصحراوى ؟ إن كان شتاءً فالبرد القارس ، والقارس الذى ينفذ إلى العظام ولا دفء يستدفأ به ، ولا ثياب إلا مايلبسه مزارعو أرض النيل المعتدلة المناخ ولم يفسح لهم المجال أن يحملوا من أمتعة لمثل هذا الوضع ، فهم أصلا لم يكونوا يأملون أن ينجوا من قبضة فرعون وجنوده .

وإن كان صيف فتلك الشمس التى تلفح الوجوه ، وتلهب الأرض تحت الأجساد العارية ، والأقدام الدامية . ضوء شديد وهاج يخطف الأبصار إن الذى يجرب مثل تلك الحال يتأكد لديه أن أقدامه السليمة لا تقوى على ملامسة الرمال الساخنة الملتهبة إذا ما توسطت الشمس كبد السماء . ويفيدنا سياق القصة أن

الوقت كان صيفاً وهو أشد ضراوة وأفتك بالأجساد . فهو مع فتكه بالإنسان يؤثر فيما يمكن أن تكون به حياة من نبات وماء ، أو حتى نبات به ماء ، أو حشرات لا تقوى على الزحف على أرض كهذه .

فهل هذه الحقبة هى الحلقة الأخيرة من حياة بنى إسرائيل ، كما كانت منذ قليل الحلقة الأخيرة من حياة فرعون وجنوده ؟! .

**إنقاذ جديد .**

تلك هى المشكلة التى واجهها بنو إسرائيل ، ورأوها بأم أعينهم .

فماذا كان من أمرهم مع السماء ؟

ها هى الشمس المحرقة تختفى وراء غمام . ومتى كان بالصيف غمام ؟ ولكن الله سبحانه عليم بأحوال عباده المؤمنين حين تشتد بهم الأزمات يجعل لهم مخرجاً منها بإذنه تعالى . إنه غمام عظيم ، وليست غمامة تمر وينتهى أمرها ، ولكن الغمام جاء ليؤدى دوراً ، والذى أصدر إليه الأوامر هو الخالق القادر ، الذى يجرى الأحداث على نمط أراده هو وحده ، وعلى الغمام المجنَّد لأداء المهمة أن يؤدى دوره كاملاً . وهذا الدور هو تحقيق الراحة الجسمية باعتدال الجو ، وكسْر حدَّة الحرارة والجفاف ، وعليه أن يلازمهم ويتحرك بحركتهم ، ويسكن مع سكونهم ، وكأنه ملتصق بهم مربوط بخيط طرفه الآخر بأيدى القوم .

أى نعمة هذه وقد بلغت من رعاية السماء الإلهية للفئة المؤمنة ؟ إنها فى سجل الفضل الإلهى عليهم ، والتى يجب أن تذكر ، ويشكر الكريم سبحانه عليها وعلى نعمه التى لا تحصى .

وكيف بك أيتها البطون الخاوية ، وقد رأيت بشريات الخير قد ابتسمت على الجلود والبشرة ؟

لابد أن ازداد شوقك إلى الحنّان المنّان البصير بالعباد ، فلعل لقمة تهبط من الغمام ، أو قطرات تسقط فتلتقطها الأفواه قبل أن تصل الأرض .

أيظن ظان أن قوماً فى مثل تلك الحال أن تستمر بهم حياة ؟

ولكن السماء أسْدَتْ إليهم أشهى طعام ، وأزكاه ، وأشفاه .

طعام إذا اختلط بالأرض لا يتلوث إنه المنّ . سبحانك ربى فأنت أرحم الراحمين بعبادك المؤمنين !! .

إن ما يطلق عليه المن المصنوع بيد البشر هو ذلك الطعام المكون من اللبن الجاف والعسل ، أو السكر مع مقدار من الدقيق . يميل إلى الصلابة وليس بصلب ، يحتاج إلى مضغ زائد فتكون فرصة إدرار الغدد اللعابية الهاضمة . هذا من صنع الإنسان ، فكيف به إذا ما كان من صنع اليد القادرة الرازقة ، يد الله سبحانه وتعالى ؟ إنه قد نزل من السماء ليكون على غصن جاف ، أو على صخرة مشرفة ، أو على سطح أملس ، أو بأيدى القوم مباشرة ، أو خارج من الأرض . يالها من فرحة تغمر القلوب قبل البطون ، فالقلب إذا ما آمن أكل باسم الله ، وانتهى بحمد الله وشكره ، أما إذا استبدت البطن بالقيادة فلا ذكر ، ولا حمد ، ولا شكر والعياذ بالله .

ولسنا بحاجة إلى أن نقول : إنهم ادَّخروا ما يكفيهم يوماً أو أياماً ، فالذى أهبط عليهم المنّ لحظة هو نفسه الذى سينزله لحظات بمقدار يُذْهب ألم الجوع ، ويبعد الخطر ، ويعطى الجسم القدرة على السير والحركة ؛ ليقوى على بلوغ الهدف المقصود ، والوصول إلى المصر ، بعد أن خرجوا من مصر .

ولسنا أيضاً بحاجة إلى أن نحدد المقصود من المنّ ، فهو على وجه القطع أفضل من ذلك الطعام المعروف بيننا بالمنّ ؛ ليناسب ما عطف عليه من طعام آخر هو السلوى .

وربما يكون المقصود أنه كل ما امتن الله سبحانه به على بنى إسرائيل ؛ من طعام ، وشراب ، وغير ذلك مماليس لهم فيه كد ، ولا تعب ، فالله سبحانه يمنّ على عباده مناً ، وينعم عليهم إنعاماً ، وينزل عليهم المنّ على أى هيئة كان . أكان نازلاً من السماء ؛كما يدل ظاهر الآية ، أم كان خارجاً من الأرض ، بالإضافة إلى ما نزل من السماء ، وما علق على الشجر ، وما وقع على الصخر كما يفهم من مضمون الآية .

وقد روى عن سعيد بن زيد[1] - رضى الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - :

« **الكمأة[2] من المن ، وماؤها شفاء للعين** »[3] .

فإذا كانت الكمأة وهى معروفة لأهل البادية ، ومن يمرون بالصحراء شهية المأكل إذا ما طبخت ، بل أبعد من ذلك ، فماؤها شفاء للعين كما يؤكده الحديث الشريف الذى ورد من طرق مختلفة بأسانيد صحيحة ، والذى رواه عدة من رجال الحديث . فما بال المن الذى تعتبر الكمأة جزءًا منه ؟ لابد أن يكون أشهى وأطيب ، ولاعجب من ذلك ؛ فهو من صنيع الإله القوى القادر !

وتترى الأرزاق على بنى إسرائيل ؛ ففى ظل هذا الغمام الذى تفيئوه ، سبحت طيور بالفضاء ، ولم تكن بالطيور الجارحة التى تحلق مرتفعة صعبة التناول والاصطياد ؛ إنها طيور صغيرة جمعت بين اللحم المكتنز ، وسهولة الوصول إليها ؛ فهى تطير منخفضة ، إنها السلوى الذى يشبهه السمانى المعروف .

---

(1) سعيد بن زيد بن عمرو ، العدوى ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمه فاطمة الخزاعية ، كانت من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول الرسول - ﷺ - دار الأرقم ، وهاجر ، وشهد أحداً والمشاهد بعدها ، ولم يكن بالمدينة زمن بدر ، فلذلك لم يشهدها ، وكان إسلام عمر - رضى الله عنه - عنده فى بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، وشهد اليرموك ، وفتح دمشق ، توفى بالعقيق ، فحمل إلى المدينة سنة خمسين ، وعاش بضعاً وسبعين وصلى عليه المغيرة بن شعبة . الإصابة جـ ٢ ص ٤٦ رقم ٣٢٦١ .

(2) الكمأة : فطر أرضى يُجنى ويُؤكل مطبوخاً ، ويختلف حجمه بحسب الأنواع ، وعده صاحب القاموس من النبات ، وهو جمع مفرده كمء ، أو مفرد ، و اسم جمع . والمن فى القاموس : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ، ويحلو وينعقد عسلاً ، ويجف جفاف الصمغ ، وهو حلو يُؤكل ، وهو نافع للسعال الرطب والصدر والرئة .

(3) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأشربة ، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها . رقم ١٣٢٨ ص ٥٣٣ ، وعزاه ابن كثير أيضاً إلى الإمام أحمد ، وقال : وأخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وتوجه النبى الكريم موسى – عليه السلام – إلى الله سبحانه طالبا السقيا لقومه ؛ فأمره الله سبحانه أن يضرب بعصاه حجراً ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

وارتبطت العصا بالكثير من المعجزات ؛ فهى التى انقلبت ثعباناً عظيماً ، وهى التى ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وها هى الآن يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء . وإذا كان المنُّ قد نزل متفرقاً على القوم ، وكذلك السلوى فكيف بالماء وهو يخرج من مكان واحد ؟ ولكن هذا الماء تحول إلى عيون بعدد مجموعات القوم . وهى اثنتا عشرة مجموعة ، كل مجموعة – والله أعلم – يمتد نسبها إلى أحد أبناء يعقوب – عليه السلام – الاثنى عشر ، فالاتفاق فى العدد يشير إلى هذا ، وإن كنا لا نَجْزمُ بغيب مجهولٍ عنا .

وامتدت كل عين إلى مجموعتها ، وعلم كل أناس مشربهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى مخاطبا بنى إسرائيل :

**﴿ وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾**(٤) .

ويقول أيضاً :

**﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾** (٥) .

وفى تحديد عين لكل مجموعة من المجموعات الاثنتى عشرة يقول الله تعالى :

**﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم**

---

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٧ .
(٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٠ .

**كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام ، وأنزلنا عليهم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾** (٦) .

وتحدثنا الآيات الكريمة أن مكان نزول المنّ والسلوى ، وتفجير الماء من الحجر ، وتظليل الغمام لبنى إسرائيل كان بجانب الطور الأيمن من سيناء ، وهو الجزء الجنوبى من الجزيرة بين خليجى البحر الأحمر ، قال الله تعالى :

**﴿ يا بنى إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾** (٧) .

ونرى فى الآيات التى ذكر فيها لفظ الحجر ، أنه ذكر بالتعريف لا التنكير ، مما يقوى رأى من قال : إنه حجر خاص عين لموسى – عليه السلام – من قبل الله عز وجل ، وليس أى حجر ، وإلا لكان التعبير فى الآيات ، أو فى آية منها على الأقل ، اضرب بعصاك حجراً . والله أعلم بالمراد .

هذا وقد تكرر فى أكثر من آية التعبير عن مجموعاتهم الاثنتى عشرة كما سبق ، وحين كان اختيار النقباء منهم كانوا اثنى عشر نقيباً ، وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله : إنى معكم ، لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴾** (٨) .

ونرى أيضاً من خلال ختام الآيات الكريمة السابقة :

---

(٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦٠ .

(٧) سورة طه الآيات من رقم ٨٠ إلى رقم ٨٢ .

(٨) سورة المائدة ، الآية رقم ١٢ .

**﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾**

**﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**

**﴿ ولا تطغوا فيه ؛ فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ .**

**﴿ فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴾ .**

١ - أن أسلوب التعامل مع النعم يكون بالاقتصاد فى تناولها ، والاستفادة منها . وعدم الطغيان والتجاوز عن الحد .

٢ - الاعتقاد بأن مصدر هذه النعم هو الله سبحانه وتعالى .

٣ - وأن الواجب على المؤمن شكره عليها ، لاجحودها .

٤ - وأن الجحود مجلبة لغضب الله سبحانه ، والحرمان من هذه النعم .

٥ - الاعتقاد بأن الله سبحانه لم يتفضل عليهم لذاتهم ، وإنما لما اتصفوا به من صفات إيمانية طيبة .

٦ - والاعتقاد بأن النعم اختبار وابتلاء للإنسان ، كالحرمان منها .

٧ - كما تشير آية الأعراف إلى أن ظلما وقع من بنى إسرائيل على أنفسهم فى تناول هذه النعم بأسلوب لايرضاه واهبها ورازقها .

وأن الله سبحانه لم يغلق عليهم باب التوبة ، والرجوع ؛ كما يشير قوله تعالى :

**﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن ، وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾**

فالله سبحانه يجعل المخرج للمؤمنين من الشدائد والمحن ، ويرزقهم من حيث لا يحتسب ، ويحب من عباده اللجوء إليه ، والشكر على نعمه ، ويبغض منهم الجحود . قال الله تعالى :

﴿ حمٓ ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير ﴾[٩] .

زهد بنى إسرائيل فى المنّ والسلوى ، ورغبتهم فى البصل ، والثوم ، وغيرهما :

يقول الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ وإذ قلتم : يا موسى ، لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها ، قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير[١٠] ؟ اهبطوا مصراً ؛ فإن

---

(٩) سورة غافر ، الآيات الثلاث الأولى .

(١٠) الباء تدخل فى مثل هذا التعبير على المتروك لغة ، ولا يستقيم المعنى بغير ذلك أبداً ، وهذا من مسلمات اللغة عكس الشائع على ألسنة عوام المثقفين ، ومثل هذا التعبير وردت آيات فى مواطن أخرى :

قال تعالى :﴿ لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن ﴾ ( الأحزاب ٥٢ ) .

وقال : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ، وأثل ، وشىء من سدر قليل ﴾ ( سبأ ١٦ )وقد يحذف المتروك ببائه ، ويبقى البديل مثل قوله تعالى :

﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ ( النساء ٥٦ ) .

إلا إذا قدرت « إلى » مع المحذوف فيكون المذكور دون الباء هو المتروك مثلَ قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ( الفتح ١٥ ) .

هذا وقد ورد الإنكار على القوم ، والتعجب من طلبهم فى صورة الاستفهام .

ثم إن تنوين كلمة « مصراً » يدل على أن المراد غير مصر العلم ، التى خرجوا منها ؛ هروبا من فرعون ؛ فمصر العلم ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث وذلك عند الجمهور ؛ لأنه ثلاثى ساكن الوسط ، وقد وردت مصر العلم ممنوعة من الصرف فى قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ أليس لى ملك مصرَ ﴾ ومن هذا يتبين : أن قوله :اهبطوا مصراً أىْ ، أىّ مدينة =

**لكم ماسألتم ﴾**[11] .

إذا ما كان المرء السَّوِيُّ على نعمة مسداة إليه من رب النعم سبحانه ، تمنى دوامها عليه ، وبذل فى سبيل إدامتها واستمرارها تسخيرها فى طاعة الله سبحانه ، وشكره عليها ، وعدم التجاوز فى استعمالها ، والاعتداء فى تناولها ؛ فالنعم مناط اختبار ، كما أن المصائب كذلك ، ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أما أن يتمنى الإنسان زوالها أو تغييرها إلى مادونها فذاك منكر غير مشروع ، ولا يكون هذا إلا بتلبيس إبليس ، وتزيينه الأدنى أفضل من الأعلى ، والأكثر خيراً وبركة . وهذا ما حدث من بنى إسرائيل حين قطعوا فى هذه المسألة قائلين : ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ ولجئوا فى طلبهم إلى أن حملوا موسى – عليه السلام – بدءًا مهمة تغيير الطعام بالدعاء ، ومع اعتقادهم بأن الله سبحانه هو رازقهم فلم يضيفوا كلمة« رب » إليهم جميعاً قائلين « ربنا » بل قالوا : ﴿ **ادع لنا ربَّكَ** ﴾

ومطلوبهم يتضمن هذه المأكولات كما رتبتها الآية الكريمة :

١ – البقل .

٢ – القثاء : هو الخيار ، واحدته قثاءة ( مختار الصحاح ) .

٣ – الفوم : من معانيه الثوم ، وهو المختار لموافقته قراءة ابن مسعود – رضى الله عنه .

٤ – العدس .

٥ – البصل .

ومن هذه الأطعمة ما يؤكل مطبوخاً كالبقل والعدس .

ومنها ما يؤكل دون طبخ كالخيار .

---

= أو قرية كبيرة ، والقول الثانى « مصر » فيه معينة ومحددة .

(١١) سورة البقرة ، الآية رقم ٦١ .

ومنها ما يضاف إلى المطبوخ وغيره كالبصل ، والثوم .

وأيا كان هذا التنوع فى الطعام البديل . فقد رَدَّ موسى – عليه السلام – عليهم ، وهو أعلم منهم ، فقال لهم : ﴿ **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟!** ﴾

**حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية :**

فى غمرة هذه النعم التى أحاطت ببنى إسرائيل من كل ناحية مروا بالطريق على بَدْوٍ بصحراء سيناء . اتخذ هؤلاء البدو لأنفسهم صنما يعبدونه من دون الله سبحانه ، أقاموا حوله ، وعكفوا على عبادته .

ربما هال هؤلاء البدو – الذين عبدوا صنما من دون الله – مارأوه من نعم سابغة على هؤلاء المسافرين ، وقد أكلوا المن والسلوى ، وشربوا من ينبوع دائم معهم ، ثم تلك المظلة الواقية من حرارة الشمس ، ثم نظروا إلى أنفسهم وما هم فيه من قحط ، وجدب ، يبحثون عن الرزق بين أنياب الضوارى ، وينقبون الأرض ؛ استدراراً لقاعها من الماء ، ويأوون إلى الصخور والجبال ؛ علهم يجدون من ظل يكسر حدّة الحرّ ؛ لعلهم حَسَدُوا المسافرين على ما لديهم من نعم . وربما أيضاً حسدوهم على ما رأوا من أثر هذه النعم من سلوك عفيف ، ولجوء إلى خالق الأرض والسماء .

ولعل المتأمل فى قوم على هذه الحال أنهم بحاجة إلى إنقاذ من شركهم على يد داعية مؤمن يبصرهم الصراط المستقيم .

ولكن بنى إسرائيل على حال أرضى وأحسن ؛ فقائدهم فى المسيرة نبى من أولى العزم من الرسل موسى – عليه السلام – على يديه كان إنقاذهم من فرعون وجنوده ، وماتلا ذلك من نعم أخرى .

فأنى لبنى إسرائيل أن يشركوا مع الله آلهة أخرى ، ولم يتقادم عليهم العهد بالنعم ؟ وأنى لهم أن يشركوا ونبيهم بين أيديهم ؟

وحدث ما تنخلع له القلوب من بنى إسرائيل فى هذه الحال .

إنهم تمنوا أن يكون لهم صنم كما أن لهؤلاء البدو صنماً . وأرادوا أن يعطوا هذا الصنم صفة الشرعية والقدسية ، بأن يكون بإقرار النبى موسى – عليه السلام – حاشاه عن ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾**(١٢) .

إن الأصل الأول الذى تقوم عليه رسالات الأنبياء هو توحيد الله سبحانه وتعالى ، بدون هذا الأصل يفسد أى عمل ، فكيف بقوم فضلهم الله سبحانه على أهل زمانهم يطلبون إلى نبيهم إقرار الشرك والعياذ بالله ، قال تعالى على لسان موسى – عليه السلام – رادًا على قومه ومنكراً طلبهم :

**﴿ قال : إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ، قال : أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾**(١٣) .

حكم عليهم بالجهل ، وحكم على مشركى البدو ، ببطلان عملهم وفساده ، وأثار فيهم نعمة التفضيل ، والتى لا يناسبها مثل هذا الطلب ، بل يناقضها ، ويتنافى معها .

هذا وقد ورد على لسان حديثى العهد بالجاهلية فى غزوة حنين مثل هذا ، فاستشهد النبى – ﷺ – بموقف بنى إسرائيل هذا .

عن أبى واقد الليثى (١٤) ، قال : خرجنا مع رسول الله – ﷺ – إلى

---

(١٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٨ .

(١٣) سورة الأعراف ، الآيات من رقم ١٣٨ إلى رقم ١٤٠ .

(١٤) قيل : إن اسمه ، الحارث بن مالك ، وقيل : الحارث بن عوف ، والاختلاف قد وقع فى اسمه ، لاشتهاره بكنيته ، واختلف فى زمن إسلامه ، ويرجح أنه قديم فى إسلامه وما اعتبره بعض العلماء من قوله : بحداثة العهد بالكفر شهادة بتأخر إسلامه يمكن أن يوجه إلى الطلقاء فى الجيش الذى هو فيه ، وليس منهم ، والصحيح أنه شهد بدراً وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، ونقل البخارى أنه مات فى خلافة معاوية – رضى الله عنه .

حنين ، ونحن حديثو العهد بالجاهلية ، قال : فسرنا معه إلى حنين ، قال : وكان كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء ، يقال لها : ذات أنواط . يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، قال : فرأينا ، ونحن نسير مع رسول الله – ﷺ – سِدْرَةً خضراء عظيمة . قال : فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذاتُ أنواط . قال رسول الله – ﷺ – :

**« الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده : كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوماً تجهلون » إنها السُّنَن ، لتركبن سنَنَ من كان قبلكم »** (١٥) .

وفى ضوء ما تقدم من حديث ذات أنواط ، وما سبقه من طلب بنى إسرائيل ورد كل من النبيين – عليهما الصلاة والسلام – على قوم كل منهما أرى الآتى :

١ – أن بنى إسرائيل رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، وإطلاق لفظ الأصنام يدل للوهلة الأولى على عبادتها .

وأن حديثى العهد بالإسلام فى حنين رأوا شجرة كانت تعلق عليها السيوف ، ويقام عندها يوم ، ولم تذكر فى أى كتاب أنها صنم ومشهور ، وإلا لأرسل إليها من يهدمها بعد الفتح كغيرها .

---

= وأرسل إلى هدم مناة سعد بن زيد الأشهلى ( الواقدى وابن سعد ) . وقال غيرهما : بعث إليها أبا سفيان ، وقيل عليا – رضى الله عنهما . وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دَانَ بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلَّل بقديد .

وأرسل إلى هدم ذى الخلصة جرير بن عبدالله البجلى ، وكانت لدوس وخثعم وبجيلة ، ويقال لها الكعبة اليمانية ابن إسحاق .

وقد عدَّد ابن هشام أسماء الأصنام المشهورة حوالى عشرين صنما ليس منها ذات أنواط فدل على أن شأنها كان دون شأن الأصنام التى عدها وفى هذا من الدلالة مافيه .

(١٥) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن أبى سعيد وأبى هريرة – رضى الله عنهم . سنن الترمذى ج ٦ ص ٧٣٤٣ باب ما جاء ، لتركبن سنن من كان قبلكم رقم ٢١٨١ كتاب الفتن ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م مطابع الفجر الحديثة . حمص . هذا والنص المذكور اختاره ابن كثير فى التفسير ، والبداية والنهاية وعزاه أيضاً إلى النسائى ، وغيره .

ولما يترتب على هذا الحديث من أمور أحب أن أضع بين يدى القارىء الكريم هذه التوضيحات :

– قال ابن القيم فى : إغاثة اللهفان ج ٢ ص ٢٩٥ : ثَبَتَ عن النبى – ﷺ – ثم ذكر الحديث .

– ذكر ابن كثير عند تفسيره الآيات روايتين : الأولى لابن جرير ، والثانية لأحمد ، مع اختصار بعض الألفاظ .

– ورواه ابن إسحاق ، القسم الثانى ص ٤٤٢ .

– ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى كتابه مختصر سيرة الرسول – ﷺ – تقديم وتصحيح ومراجعة محمد حامد الفقي . وأضاف إلى الترمذى ابن أبى حاتم ، وابن إسحاق . ص ٣١٠ . وورد فى التعليق على هذا الحديث :

فأنكر – ﷺ عليهم مجرد مشابهتهم للمشركين فى ذلك . فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه ، فإذا كان العكوف على هذه الشجرة لتعليق الأسلحة ، والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله ، مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر ، والدعاء به ، والدعاء عنده ؟ فأى نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر والدعاء عنده لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون ؟!

– وموجز ماذكره ابن إسحاق فى أمر الأصنام وماذكره غيره :

أرسل رسول الله – ﷺ – بعد فتح مكة ، وقبل غزوة حنين ، مَنْ هدم الأصنام ، وكسرها .

فأرسل خالد بن الوليد – رضى الله عنه – إلى العزّى . وكانت بموضع يسمى نخلة ، فهدمها ، وهى بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر ، وسدنتها من بنى شيبان .

وأضاف صاحب مفتاح كنوز السنة أن رواية هدم العزى ذكرت فى طبقات ابن سعد ، ومغازى الواقدى ، وأضاف ابن كثير رواية للنسائى .

٢ – وأن بنى إسرائيل طلبوا صراحة إلى نبيهم موسى – عليه السلام – اتخاذ إلّه لهم من الأصنام ، مثل الصنم الذى رأوه .

وأن من طلب من المسلمين فى حنين كان طلبهم مجرد اتخاذ شجرة بنفس الصورة التى كانت عليها ذات أنواط .

٣ – وأن بنى إسرائيل عايشوا الدعوة فترة طويلة ، مع نبيهم موسى – عليه السلام – وأن من طلب من المسلمين كانوا من حديثى العهد بالإسلام ؛ كما قال أبو واقد الليثى . أى من أسلموا فى الفتح منذ أيام .

٤ – وأن بنى إسرائيل تنزلت عليهم فى فترة معايشتهم للدعوة نعمٌ كثيرة : كالمنّ والسلوى ، وتفجر الماء ، وقبلها انفلاق البحر ونجاتهم من فرعون ، ورؤيتهم معجزات النبى موسى – عليه السلام – كالعصا واليد وغيرهما .

– وأن من طلب من المسلمين كان فى أول احتكاكهم بالدعوة ، وتلك غزوتهم الأولى فيها .

٥ – وأن النبى موسى – عليه السلام – رد على قومه بنى إسرائيل :

﴿ **قال : إنكم قوم تجهلون ؛ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال : أغير الله أبغيكم إلّهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ ( الأعراف ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ) .

وأن النبى محمداً – ﷺ – ألحق طلب حديثى العهد فى حنين بالموقف ؛ إنكاراً لأى شبهة شركية ، وتأكيداً لمبدأ التوحيد .

٦ – ونخلص مما تقدم : أن طلب بنى إسرائيل يدل على جرم كبير ارتكبوه ، وينذر بمستقبل شعب حَنَّ إلى الوثنية صراحة ، ونبيهم بين ظهرانيهم .
فكان الفرق بين الموقفين واضحاً ، والله أعلم بالصواب .

**دروس وعبر :**

– إن طريق الجنة محفوف بالمكاره ؛ فقد واجه بنو إسرائيل حين استقبلوا سيناء ألم الجوع ، والعطش ، ولفح الشمس .

– إن صبر المؤمن على ما يصيبه من محن ، سبيل إلى إدرار نعم الله سبحانه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً .

– إن الله سبحانه يجازى الصابرين من عباده بالخير الكبير ، فقد أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وفجر لهم الماء ، وظللهم بالغمام .

– إن الله سبحانه حين يأمر عباده بأكل الطيبات من الرزق ينهاهم عن مجاوزة الحد فى تناول هذه الطيبات سواء أكانت المجاوزة بالزيادة وعدم الاقتصاد فيها ، أو فى توجيهها غير وجهتها المشروعة .

– إن المسرف فى تناول الطعام حتى ولو كان الطعام حلالا فى ذاته مجلبة لغضب الله سبحانه بسبب هذا الإسراف .

وهذا الإسراف يعتبر من السفاهة فى العقل التى تفقد المرء أهليته للتصرف فى المال .

قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ ( النساء ٥ ) .

– كما أن المصائب امتحان وابتلاء للإنسان فكذلك النعم ؛ أيشكر ، أم يكفر ؟

والمؤمن فائز فى الحالين كما فى الحديث : عن أبى يحى صهيب بن سنان (١٦) – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

---

(١٦) صهيب بن سنان بن مالك ، وهو الرومى ، قيل له ذلك ؛ لأن الروم سبوه صغيراً ، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان ، فأعتقه وكنيته أبو يحيى . كان من المستضعفين المعذبين ، ويقال : إنه لما هاجر تبعه نفر من المشركين ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنى من أرماكم ، ولا تصلون إلى حتى أرميكم

**« عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »** (١٧) .

– إن أخطر ما يهدد عقيدة المؤمن الشرك بالله سبحانه ، فعليه أن يحذر خفيه ؛ حتى لا يقع فى ظاهره .

– إن الداعية المسلم عليه أن يحارب الوثنية منذ أن تطل برأسها فى المجتمع المسلم ، ولا يتركها تتغلغل فيه ، وتهدم عقيدته .

---

بكل سهم معى ، ثم أضربكم بسيفى ، فإن كنتم تريدون مالى دللتكم عليه ، فرضوا . فقال النبى – ﷺ – فى هذا الشأن : « ربح البيع » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله** ﴾ ( البقرة ٢٠٧ ) ومات سنة ثمان وثلاثين ابن سبعين سنة . الإصابة ج ٢ ص ١٩٥ رقم ٤١٠٤ .

(١٧) أخرجه مسلم . رياض الصالحين ، باب الصبر ، رقم ٢٧ ص ٢٥ ، ٢٦ .

# موسى - عليه السلام - كليم الله سبحانه

ـــ كلام الله سبحانه لموسى ـــ عليه السلام ـــ وطلب الرؤية.

ـــ إيتاء كليم الله سبحانه الكتاب .

ـــ تشريعات التوراة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ـــ عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى ـــ عليه السلام .

أ - خطة السامرى .

ب - مساعدة بنى إسرائيل له .

جـ - دور هارون ـــ عليه السلام .

د ـــ عودة موسى ـــ عليه السلام ـــ بعد إخبار الله سبحانه إياه .

هـ - تحقيقه مع الأطراف الثلاثة .

١ - بنى إسرائيل .

٢ - هارون ـــ عليه السلام .

٣ - السامرى .

ـــ دروس وعبر .

## كلام الله سبحانه لموسى ـــ عليه السلام ، وطلب الرؤية :

يخبر الله سبحانه أنه واعد نبيه موسى – عليه السلام – بأن يتهيأ ، ويعد نفسه لتلقى الوحى بالتوراة . وهذا الإعداد سنة فى سير الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ [1] فالنبى موسى ـــ عليه السلام ـــ قد علم سلفاً أن فترة الإعداد ثلاثون ليلة أصلاً ، وإتمامها يكون بإضافة عشر لتصير أربعين ليلة [2] .

---

(١) كان خاتم الأنبياء محمد ـــ ﷺ ـــ يتحنث فى غار حراء الليالى ذاوت العدد ، حتى جاءه الوحى الكريم مبتدئا بقوله : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم** ،﴾ ( أوائل سورة العلق ) .

وعن أم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قال : أول ما بدئ به رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـــ وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ؛ حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ؛ فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال :« **ما أنا بقارئ** » قال : « **فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال ، اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال :**

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ...** ﴾

أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

كتاب الإيمان باب بدء الوحى رقم ٩٩ ص ٣٢ ، وفى صحيح البخارى ج ١ ص ٣ .

(٢) وقد رأى بعض التابعين أن الإتمام بعشر ؛ لتصير الليالى أربعين ، وما نزل على النبى الخاتم محمد ـــ ﷺ ـــ فى حجة الوداع : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ ( المائدة ٣ ) فالتعبير بأتممت وأتممناها ، وأن نزول الآية كان بعد عشر ذى الحجة ، أن الليالى الأربعين التى قضاها موسى – عليه السلام ـــ هى شهر ذى القعدة وعشر ذى الحجة . وربما يشير حديث الشيخين عن =

يقول الله تعالى :

**﴿ ووعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى[3] فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾**[4]

فلما تم الميقات ، عزم موسى ـــ عليه السلام ـــ على الذهاب إلى الطور ، وفى ذلك يقول تعالى :

**﴿ يا بنى إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾**[5] .

والمواعدة لبنى إسرائيل كانت فى شخص موسى ـــ عليه

---

= عمر ـــ رضى الله عنه ـــ إلى هذا . حين قال :

إن رجلا من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ، آية فى كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً . قال :أى آية ؟ قال : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾** قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم ، والمكان الذى نزلت فيه على النبى ـــ ﷺ ـــ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٩٥ ص ٨٣٩ ، ٨٤٠ كتاب التفسير .

= والرجل هو كعب الأحبار قبل أن يسلم ، ويفهم من رَدّ الفاروق أنها نزلت أصلاً فى يوم عزيز على المسلمين ، يوم عرفة ، خير يوم طلعت فيه الشمس ، ويوم جمعة أيضاً .

(٣) ورد فى حديث سابق أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال لعلى ـــ رضى الله عنه ـــ أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لانبى بعدى ، وذلك بعد أن استخلفه على المدينة حين الذهاب إلى تبوك ، وقول على : أتخلفنى على النساء والأطفال . ارجع إلى الحديث والتعليق عليه ص ٣٧٧ .

( فصل ، موسى ، وهارون ـــ عليهما السلام ـــ من هذا الكتاب . موضوع : سؤال موسى ـــ عليه السلام ـــ ربه سبحانه . ) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٢ .

(٥) سورة طه الآية رقم ٨٠ .

السلام ــ كما نصَّتْ الآية هنا ، تكرر مثل هذا فى مواقف أخرى ، وحين تم الميقات استخلف موسى ــ عليه السلام ــ على بنى إسرائيل أخاه هارون ــ عليه السلام ــ وكانت وصية هذا الاستخلاف بمتابعة الإصلاح ، والحذر من المفسدين الضالين ، من أمثال من حَنُّوا إلى الوثنية ، وطلبوا إلى موسى ــ عليه السلام ــ أن يجعل لهم إلهاً كما لغيرهم آلهة .

**ونرى من خلال الآيات السابقة :**

أن الإعداد النفسى يكون بالخلوة ؛ حيث تصفو النفس وتسمو .

وأن الليل تتم الخلوة فيه أكثر من النهار ، ولذا كان العدُّ بالليالى .

وأن النبى موسى ــ عليه السلام ــ اختار الله سبحانه له منهج الاكتمال والإتمام ؛ فهو مع شيخ مدين أتم عشر حجج ، والأصل ثمانٍ ، وهو هنا أتم أربعين ، والأصل ثلاثون .

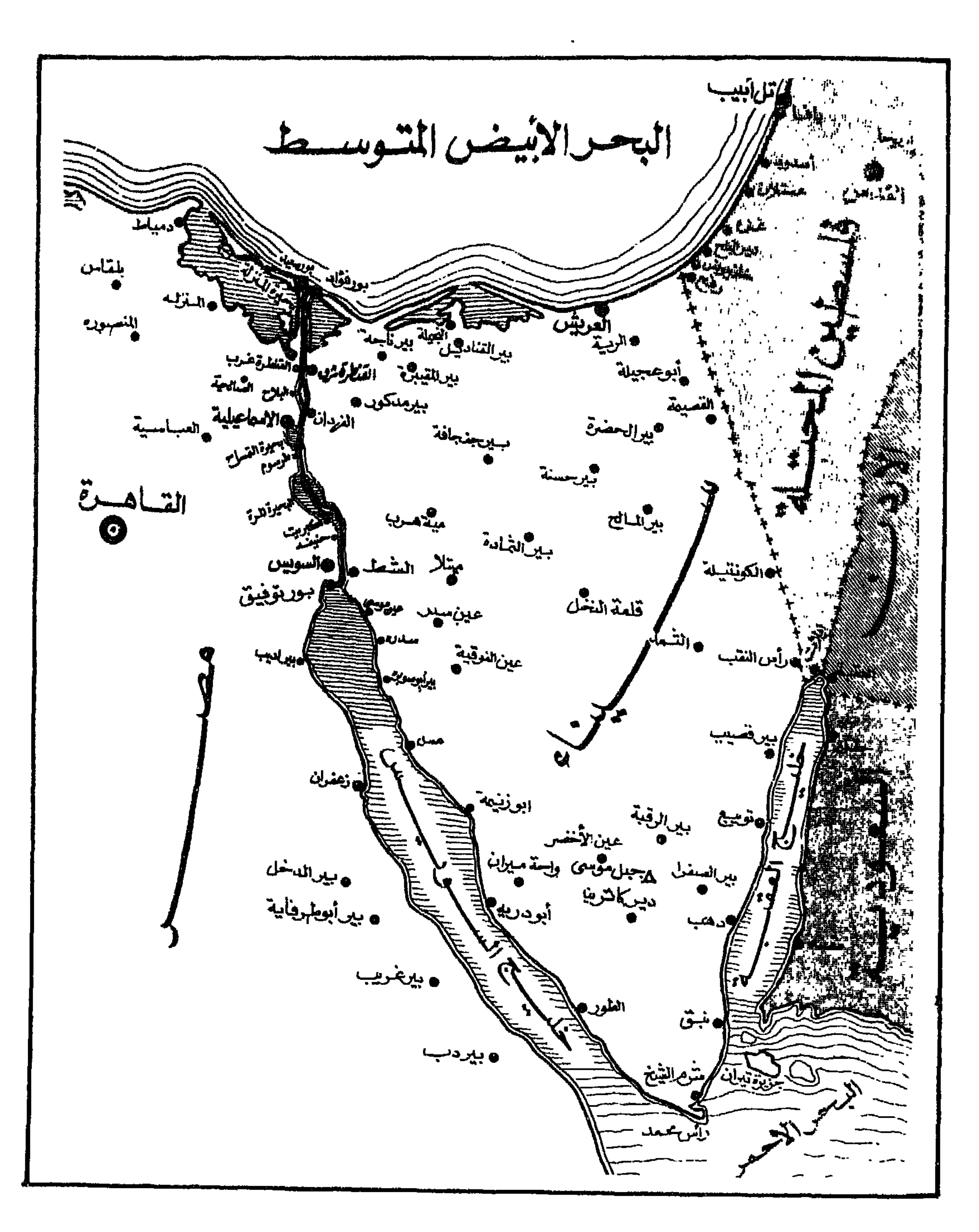
وأن القائد إذا ما كان له من سفر ، أو اعتزال فى إجازة مثلاً ، يجب عليه أن يخلف من ينوب عنه مع إسداء النصح له .

وأن الإنابة تكون للأَكْفَاء الصالحين أمثال هارون ــ عليه السلام .

وبعد أن تمت المواعدة جاء موسى ــ عليه السلام ــ إلى الميقات ، وهو جانب الطور الأيمن كما دلت آية سابقة . وتمت فى الميقات جملة أمور :

١ ــ فقد كلمه الله سبحانه وتعالى ؛ ولذا يسمى كليم الله ﴿ **وكلَّمه ربه** ﴾ .

٢ ــ طلب موسى ــ عليه السلام ــ إلى ربه النظر إليه ﴿ **رب أرنى أنظر إليك** ﴾ .




« خريطة تبين موقع الطور فى سيناء »

٣ ـــ نفى الله سبحانه أن يراه موسى ـــ عليه السلام ـــ وهذا فى الدنيا . ﴿ **لن ترانى** ﴾(٦) .

---

(٦) أما فى الآخرة ؛ فالأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ والصالحون المؤمنون بالله سبحانه ، وبرسله ، وكتبه ، واليوم الآخر ، يرون ربهم سبحانه كما يرى المرء القمر ليلة البدر .

قال الله تعالى :

﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ ( القيامة ٢٢ ، ٢٣ ) .

أما الكفار فيمنعون من هذه الرؤية ، قال تعالى :

﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ ( المطففين ١٥ ) .

وفى الحديث الذى أخرجه الشيخان عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال :

« **هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟** »قالوا : لا يارسول الله قال :

« **فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟** » قالوا : لا يارسول الله ، قال :

« **فإنكم ترونه كذلك** ... » اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية رقم ١١٤ ص ٤٢ .

وقد ورد حديث آخر رقم ١١٥ نفس المصدر فى نفس المعنى عن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه .

أما الرؤية فى الدنيا للنبى محمد – ﷺ – فقد أخرج الشيخان عن أم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : من زعم أن محمداً ـــ ﷺ ـــ رأى ربه فقد أعظم ، ولكن قد رأى جبريل ـــ عليه السلام ـــ فى صورته ، وخَلْقُه سادٌّ ما بين الأفق ، رقم ١١٢ نفس المصدر .

وعن مسروق قال : قلت لعائشة ـــ رضى الله عنها : يا أمتاه ، هل رأى محمد ـــ ﷺ ـــ ربه ؟

فقالت : لقد قَفَّ شعرى ( أى قام ) مما قلت :

أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ؟ ثم قرأت : =

٤٠ ـــ علق الله سبحانه رؤيته على استقرار الجبل ، ولم يجعل نفى الرؤية أبديا . قال تعالى ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾(٧) .

---

= ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ ( الأنعام ١٠٣ ) .

﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب** ﴾ ( الشورى ٥١ ) .

ومن حدّثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت :

﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً** ﴾ ( لقمان ٣٤ ) .

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، ثم قرأت :

﴿ **يأيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس** ﴾ ( المائدة ٦٧ ) .

ولكنه رأى جبريل ـــ عليه السلام ـــ فى صورته مرتين « المصدر السابق رقم ١١١ » .

ونخلص من هذا :

ـــ بأن الإدراك بمعنى الإحاطة منفى دنيا وآخرة ، كما تدل عليه آية الأنعام .

ـــ وبأن الرؤية منفية فى الدنيا دون الآخرة لما يفهم من الآيات والأحاديث .

ـــ وبأن الرؤية تكون فى الآخرة للأنبياء والصالحين ، كما تدل عليه آية القيامة ، والأحاديث .

ـــ وبأن الرؤية لا تكون للكفار فى كل حال . دنيا وآخرة ، كما تدل عليه آية المطففين وغيرها . والله أعلم .

(٧) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٣ .

٥ ـــ تجلى الله سبحانه للجبل فجعله دكا ؛ لما تأثر به من عظم التجلى لله سبحانه .

٦ ـــ صعق موسى ـــ عليه السلام ـــ من دك الجبل الذى هو من تجلى الله سبحانه . فالصعق أثر لأثر . قال تعالى :

**﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ﴾(٨) .**

٧ ـــ حين أفاق كليم الله سبحانه من الصعق استخلص ثلاثة أمور :

آ ـــ تنزيه الله سبحانه عن المثلية والمشابهة للبشر .

ب ـــ الرجوع إلى الله سبحانه ، وأن طلبه الرؤية كان فى غير محله .

جـ ـــ الإيمان بالله سبحانه عن إذعان كامل ، وتقبل التكاليف التى تناط بالإنسان . وفى ذلك يقول الله تعالى :

**﴿ فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين ﴾(٩) .**

هذا وقد أخبر النبى محمد – ﷺ – أصحابه عن تكريم موسى – عليه السلام – يوم القيامة ، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال فى حديث اليهودى والمسلم :

**« لا تخيرونى على موسى ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأصعق معهم ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدرى ، أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله ؟ » (١٠) .**

---

(٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(١٠) اللؤلؤ والمرجان كتاب الفضائل ، رقم ١٥٣٤ ص ٢٢٦ ، وفى الباب عن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ رقم ١٥٣٥ نفس المصدر .

## إيتاء كليم الله سبحانه الكتاب :

بعد أن أفاق النبى موسى ــ عليه السلام ــ من الصعق خاطبه الله سبحانه بقوله :

**﴿ قال يا موسى ، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى ، وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء ، موعظةً وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ؛ سأريكم دار الفاسقين ﴾**(١١) .

والخطاب يتضمن تكريما وتكليفا .

فالتكريم بما أعطاه الله سبحانه من رسالة ، والتكليف أن يأخذ ما أعطاه الله سبحانه بقوة ، وأن يبلغ قومه بذلك ، وأن يَلْزَمَ الشاكرين لله على نعمه السابقة ، ويتجنب الفاسقين . وذكر التكليف عقب التكريم يدل على تلازمهما ، فإذا لم يقم المرء بما عليه من واجبات فقد ألغى اسمه من سجل المكرمين ، والعكس هو الواجب والمطلوب .

وعبر الله سبحانه عما آتاه لنبيه بالكتاب فى أكثر من موقف . قال تعالى :

**﴿ ثم آتينا موسى الكتاب على الذى أحسن ، وتفصيلاً لكل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾**(١٢) .

وقال:

**﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، لعلهم يهتدون ﴾**(١٣) .

---

(١١) سورة الأعراف ، الآيتان رقما ١٤٤ ، ١٤٥ .
(١٢) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٥٤ .
(١٣) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٤٩ .

وأضاف هذا الكتاب إلى بنى إسرائيل عامة ؛ لأنه تنزل بشأنهم قال تعالى :

**﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ﴾**(١٤) .

كما أخبر سبحانه عن هذا الكتاب بأنه التوراة فى قوله تعالى :

**﴿ وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... ﴾**(١٥) .

ويفهم من الآيات السابقة :

١ ــ أن الله سبحانه أنزل على نبيه موسى ــ عليه السلام ــ كتاباً هو التوراة .

٢ ــ وأن هذا الكتاب نزل جملة فى ألواح مكتوبة ، وليس منجما حسب الحوادث كالقرآن الكريم .

٣ ــ وأن هذا الكتاب فيه الموعظة التى ترقق القلوب ، وتجعلها خاشعة لله سبحانه .

٤ ــ وأنه فيه الهدى والنور ، والرحمة لبنى إسرائيل .

٥ ــ وأنه فيه التشريع الذى يوضح لهم الحلال من الحرام . ليأخذوا بالحلال ، وينتهوا عن الحرام .

## تشريعات التوراة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، والسنة الشريفة :

١ ــ الحكم بالتشريع الذى أنزله الله سبحانه دليل الإيمان الصحيح ، وعدم الحكم بها دليل انتفاء الإيمان ، ودليل الكفر والظلم .

---

(١٤) سورة الجاثية ، الآية رقم ١٦ .

(١٥) سورة المائدة ، الآيتان رقما ٤٣ ، ٤٤ .

٢ ـــ أن الخشية تكون لله سبحانه ، ولا يليق بالمسلم أن يذل نفسه للبشر ، وفى ضوء ذلك تقام الصلاة ، وتعطى الزكاة لمستحقيها . قال تعالى :

**﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴾** (١٦) .

٣ ـــ عدم التنازل عن شرع الله سبحانه لقاء عرض دنيوى زائل .

٤ ـــ ومن التشريعات الجنائية :

النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص .

٥ ـــ للمعتدى عليه الحق فى التمسك بتوقيع القصاص من الحاكم على المعتدى ، كما أن له العفو عنه .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾** (١٧) .

---

(١٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٨٣ .

(١٧) سورة المائدة ،الآيات من رقم ٤٣ إلى رقم ٤٥ .

٦ ــ ما له ظفر حرام أكْلُه .

٧ ــ لحم البقر والغنم حلالٌ أكْلُه . ومن الشحوم ما هو حلال مثل : ماحمله الظهر ، أو حملته الأمعاء ، أو ما اختلط بعظم . وماعدا ذلك من الشحوم فحرام .

قال الله تعالى :

**﴿ وعلى الذين هادوا حَرَّمْنَا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرم عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون ﴾**[١٨] .

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : بلغ عمر ، أن فلاناً خمراً ، فقال : قاتل الله فلانا ؛ ألم يعلم أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

**« قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها »** [١٩]

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال

**« قاتل الله يهود ؛ حرمت عليهم الشحوم فباعوها ، وأكلوا أثمانها »**[٢٠] .

٨ ــ رجم الزانى المحصن .

عن عبدالله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فذكروا له أن رجلاً وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ــ ﷺ :

---

(١٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٤٦ .

(١٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساقاة رقم ١١٩ ص ٢٨٦ . جملوها : أذابوها واستخرجوا دهنها .

(٢٠) أخرجه الشيخان المصدر السابق رقم ١٠٢٠ ص ٣٨٦ ، صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٠٧ .

**« ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ .**

**فقالوا : نفضحهم ، ويجلدون ، فقال عبدالله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها ، وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد . فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ــ ﷺ ــ فرجما . قال عبدالله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة ( أى يكب نفسه عليها )[٢١] .**

٩ ــ إقامة الحد على السارق .

وقد كان فى شريعة يعقوب ــ عليه السلام ــ بأن يأخذ صاحب المال . السارق رقيقاً أو خادماً يخدمه . أما فى شريعة التوراة فقطع اليد كما يُفهم من الحديث التالى .

عن عائشة – رضى الله عنها – ( فى حديث المخزومية ) أن رسول الله – ﷺ – قال :

**« أما بعد ، فإنما أهلك الذين من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[٢٢] .**

١٠ ــ حرمة قتل الآخرين ، وإخراجهم من ديارهم .

١١ ــ حرمة فداء الأسارى .

قال تعالى :

---

(٢١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الحدود ، باب رجم اليهود ، رقم ١١٠٤ ص ٤٢٢ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٤٠ .

(٢٢) المصدر السابق ، ونفس الكتاب . رقم ١١٠٠ ص ٤٢١ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٤٦ .

**﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ (٢٣) .**

١٢ ــ حرمة وصل الشعر بشعر آخر ( الشعر المستعار ) .

عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف ، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان ــ رضى الله عنهم ــ عام حَجَّ ، وهو على المنبر ، وتناول قُصَّة من شعر كانت فى يد حَرَسِيٍّ يقول : يا أهل المدينة ، أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ ينهى عن مثل هذه ، ويقول :

**« إنما هلك بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم »(٢٤) .**

١٣ ــ تحريم العمل يوم السبت :

وقد ذكر فى القرآن الكريم أنهم حين فسقوا عن أمر الله سبحانه تحايلوا على هذا التشريع ، وذلك حين نصبوا شباك الصيد مساء الجمعة لتلتقط ما يظهر من أسماك يوم السبت ، ثم تسحب هذه الشباك صباح الأحد . قال تعالى :

**﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ إذ يَعْدُون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾(٢٥) .**

---

(٢٣) سورة البقرة ، الآيتان رقما ٨٤ ، ٨٥ .

(٢٤) أخرجه مسلم . المختصر رقم ١٣٨٥ ج ٢ ص ١٢٧ ، والقصة بضم القاف : شعر مقدم الرأس المقبل على الجبهة . والحرسيّ : هو غلام الأمير .

(٢٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦٣ .

وما كان اختفاء الحيتان فى غير أيام السبت إلا بسبب الفسق ، والخروج عن طاعة الله سبحانه ، وأن هذا التحايل على التشريع ما هو إلا مخالفة لأوامر الله سبحانه ، وامتداداً للفسق الذى كان سببا فى اختفاء الحيتان .

والبحر هنا هو الجزء المواجه لهم فى مسيرتهم ، وهو الجزء القريب من الطور ، مكان تكليم الله سبحانه لنبيه موسى ـــ عليه السلام ـــ فقد قال تعالى على لسانه :

**﴿ قال : هم أولاء على أثرى ﴾**(٢٦) .

أى إنهم سيلحقون بى ؛ حتى يصلوا إلى الطور المكان الذى شرف بالتكليم . وهو المكان أيضاً القريب من أرض مدين التى مر بها قبل ذلك حين ساعد الفتاتين ، وظل أجيراً عند شيخ مدين عشر حجج .

وقد روى بشأن تحايل اليهود أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال :

« **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** »(٢٧) .

وهذا التحايل كان سببا فى لعن من قاموا من بنى إسرائيل ، ومن يقوم به أيضاً من المسلمين . قال تعالى :

**﴿ يأيها الذين أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم . من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب**

---

(٢٦) سورة طه ، الآية رقم ٨٤ .

(٢٧) من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال ابن كثير : رواه الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة بإسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم الذى حدث أبا عبد الله الفقيه ذكره الخطيب فى تاريخه ووثقه ، وباقى رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً ( تفسير آية الأعراف ) ، و ( آيتى البقرة : ٦٥ ، ٦٦ ) .

**السبت ، وكان أمر الله مفعولا ﴾**(٢٨) .

١٤ ــ ومن التشريعات أيضاً التى أخذها الله سبحانه عليهم ماورد فى قوله تعالى بشأن صلة الوالدين وذوى القربى والعطف على اليتامى والمساكين .

**﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾**(٢٩) .

## عبادة بنى إسرائيل العجل :

حين طلب بنو إسرائيل إلى نبيهم أن يجعل لهم إلها كما للقوم الذين مروا عليهم آلهة ، رَدَّ عليهم ، ووبخهم ، وعاتبهم ، فرجعوا عما طلبوه ، ولكنهم حَنُّوا إلى الشرك من جديد ، وواتتهم فرصة من غياب نبيهم موسى ــ عليه السلام ــ فعبدوا عجلاً صنعوه بأيديهم .

وتفصيل القصة على هذا النحــو :

اتجه موسى ــ عليه السلام ــ إلى حيث واعده ربه سبحانه ، وكان من شأن المواعدة ، والتكليم ، والصعق ، والإفاقة ، وإلقاء ألواح التوراة إلى النبى الكليم .

وقد استخلف النبى موسى . أخاه هارون ــ عليهما السلام ــ ؛ ليقوم بشئون القوم حين غيابه ؛ حيث لا تترك الجماعة دون قائد عام يرعى شئونها ، ويفصل فى القضايا ، وذلك من فقه الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وعلى منوالهم يسير أولو الأمر لهذه الأمة فى استخلاف نائب ينوب عن الحاكم ، أو أى مسئول وقت غيابه ، ويختار للنيابة أصلح القوم لهذه المهمة ، وكان هنا هارون ــ عليه السلام .

والتقى فى قصة العجل منذ البداية أمران :

---

(٢٨) سورة النساء ، الآية رقم ٤٧ .

(٢٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٨٣ .

١ ـــ محاولات الإضلال التى قام بها السامرى ، واستطاع أن يُضلَّ شعباً بأكمله ، مما يدل على حبكه سبل الإضلال ، بحيث صدقها الشعب الإسرائيلى فى الطور .

٢ ـــ الأمر الثانى ، هو التهيؤ النفسى من بنى إسرائيل لمثل هذا الصنيع ، وقد سبق أن طلبوا هم ابتداءً إلى موسى ـــ عليه السلام ـــ وهو بين ظهرانيهم أن يجعل لهم إلهاً ، كما لغيرهم آلهة .

ويدل ذلك علـى :

ـــ أن عمليات الإضلال لأى شعب لا تجدى فيه ، ولا تؤتى ثمارها السيئة إلا حدثت خلخلة إيمانية وضعف التمسك بالقضايا المصيرية للأمة المسلمة .

ـــ وأن عمليات الإضلال تسبقها زمنيا تلك الخلخلة ، والاهتزاز الفكرى ، وقصر النظر ، وعدم تناول الأحداث بشكل موضوعى .

ـــ وأن المسئول الصالح يجب أن يهتم بشئون الأمة كلها ، ولا يغفل جانبا منها .

## ا ـــ خطة السامرى : ب ـــ ومساعدة القوم له :

رأى السامرى ـــ وهو أحد بنى إسرائيل ـــ الكثير من الحُلِى وأغلب الظن أنه من الذهب ، وليس فى القرآن الكريم ما يمنع ذلك ، فبقى على المعروف المألوف فى هذا .

هذه الحلى من حيث الواقع المشاهد ملك لبنى إسرائيل ، وهذا يفهم من إضافتها إليهم فى قوله تعالى : ﴿ **من حليهم** ﴾ .

وهى من حيث الأصل كانت لغيرهم ، وأنهم قد أخذوها دون وجه حق ، كما تشير الآية الكريمة : ﴿ **حملنا أوزاراً من زينة القوم** ﴾ .

وبناء الفعل للمجهول « حملنا » يدل على أن هذه الأموال حمَّلها لهم غيرهم ، أى أعطوها إياهم ، أى أعطى القبط بمصر أموالهم لبنى إسرائيل على

سبيل الأمانة ، أو أن بنى إسرائيل جمعوها بصورة من صور الدهاء والخديعة ، وكل من الأمرين محتمل ، ولكل ما يقويه .

فيقوى الاحتمال الأول ظاهر بناء الفعل للمجهول ، وأنهم لم يستطيعوا رد هذه الأمانات إلى أهلها ؛ خشية انكشاف أمرهم ، وافتضاح سرهم ، حين أمرهم موسى — عليه السلام — بالخروج من مصر معه ليلاً . والاتجاه صوب البحر الأحمر .

ويقوى الاحتمال الثانى أن الأحداث التى سبقت عملية الخروج من مصر ، لا تساعد أن يعطى القبط حليهم لبنى إسرائيل أمانة ، وأن بنى إسرائيل كانوا دون غيرهم منزلة ، ومجال الشك وارد بين القومين .

سواء كان هذا أو ذاك فلنا أن نفهم : أن الحلى صورت على أنها وزر ، ونتيجة لوزر ، كما تدل العبارة ، وأن خروج بنى إسرائيل بحلى غيرهم على أى وجه من الوجوه غير المشروعة لم يكن على علم موسى — عليه السلام — فالنبى لا يقر شيئاً غير مشروع .

ثم إن السامرى رأى أن يجمع هذه الحلى من أيديهم ، وقد بذلوها له طائعين ؛ لأنها تحقق ما تهفو إليه نفوسهم من وثنية . وصنع السامرى من الحلى تمثالاً على صورة عجل ، بعد عمليات الإذابة والصهر ، والصب ، والتشكيل ، وساعده القوم فى ذلك .

ولأن السامرى صاحب الفكرة كان الفاعل فى قوله تعالى :

﴿ **فأخْرَجَ لهم عجلاً جسدا له خوار** ﴾[٣٠] .

ولأن القوم ساعدوه كانوا فاعلين فى قوله تعالى :

﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار** ﴾[٣١] .

---

(٣٠) سورة طه ، الآية رقم ٨٨ .

(٣١) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٨ .

وبلغت مهارة السامرى أن تحايل فى صناعة هذا العجل حتى كان له صوت من مرور الريح فى أحشائه ، وليس هذا بغريب على قوم كان منهم من سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ، وفرح الجميع بعجل ماثل أمامهم ، زعموه إلها من دون الله سبحانه . قال تعالى :

**﴿ وقالوا : هذا إلهكم ، وإله موسى فنسى ﴾**(٣٢) .

وأقام بنو إسرائيل على عبادة العجل طوال فترة تغيب موسى ـــ عليه السلام ـــ فى الميقات .

## جـ ـــ دور هارون ـــ عليه السلام :

قال الله تعالى على لسانه :

**﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم ، إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾**(٣٣) .

ويفهم من النص الكريم :

١ ـــ أن هارون ـــ عليه السلام ـــ لم يتوان فى إنكار المنكر : فقد واجه المشكلة منذ التفكير فيها على يد السامرى .

٢ ـــ وأنه أنكر أمرين :

آ ـــ اتباع السامرى ؛ فهو يسير بهم إلى الضلال .

ب ـــ عبادة العجل .

٣ ـــ وأنه قد رسم الطريق الصحيح بديلاً للسلوك الخاطئ مبيناً أمرين :

---

(٣٢) سورة طه ، الآية ٨٨ .

(٣٣) سورة طه ، الآيتان رقما ٩٠ ، ٩١ .

آ ــــ اتباع خليفة موسى ــــ عليه السلام ــــ وهو هارون نفسه .

ب ــــ أن العقيدة الصحيحة تكون بالتوحيد لله سبحانه الخالق الذى رزقهم بالمن ، والسلوى ، وفجر لهم الحجر اثنتى عشرة عيناً ، وهو رحيم بهم .

٤ ــــ وأن بنى إسرائيل لم تنفع فيهم الموعظة على حكمتها ، وجلائها ، وأصروا على عبادة العجل إلهاً من دون الله سبحانه .

## د ــــ عودة النبى موسى ــــ عليه السلام :

أخبره الله سبحانه بأن فتنة قد حدثت لبنى إسرائيل فى غيبته ، وأن زعيمهم فى هذه الفتنة السامرى ، وليس هارون . قال تعالى :

**﴿ قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى ﴾**(٣٤) .

ورجع موسى ــــ عليه السلام ــــ لينظر ماحل بالقوم ، وقد تملكه الغضب ، والأسف لما صنعوا(٣٥) ، ولم يفقده الغضب توازنه ، فقد وقف موقف القاضى ، والمحاسب لكل من القوم ، وهارون ــــ عليه السلام ــــ والسامرى .

---

(٣٤) سورة طه ، الآية رقم ٨٥ .

(٣٥) عن عائشة ــــ رضى الله عنها ــــ أنها قالت : ما خير رسول الله ــــ ﷺ ــــ بين أمرين إلا اختار أيسرهما . ما لم يكن إثما . فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ــــ ﷺ ــــ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها . أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٠٢ ، ومختصر مسلم رقم ١٥٤٦ .

وعن عبدالله بن عمرو ــــ رضى الله عنهما ــــ قال : هجرت إلى رسول الله ــــ ﷺ ــــ يوماً ، قال : فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية ، فخرج علينا رسول الله ــــ ﷺ ــــ يعرف فى وجهه الغضب . فقال: « **إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب** » مسلم . المختصر رقم ٢١٢١ .

معنى ذلك أن الغضب إذا كان ممنوعاً منه بشكل عام ، ولكنه واجب إذا ما انتهكت حدود الله وحرماته ، كما حدث من كليم الله سبحانه .

### هـ ــ تحقيقه مع الأطراف الثلاثة :

#### ١ ــ مع بنى إسرائيل :

توجه النبى موسى ــ عليه السلام ــ بهذه الأسئلة ، بعد أن عاد إليهم ، ورآهم كما أخبره الله سبحانه عنهم :

**﴿ يا قوم ، ألم يعدكم ربُّكم وعداً حسناً ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ فأخلفتم موعدى ﴾(٣٦) .**

فموسى ــ عليه السلام ــ على الرغم من غضبه ، وأسفه ، وإلقائه الألواح ، وانزعاجه الشديد من عبادة العجل ، والشرك بالله سبحانه ، على الرغم من ذلك كان رفيقاً مع من يحقق معهم ؛ فهو يناديهم بأحب نداء لديهم « يا قوم » بالميم المكسورة التى تدل على ياء المتكلم المحذوفة ، أى يا قومى : فلازال الارتباط بهم قائماً ، ولم يحدث بعد أن تبرأ منهم ، ولم ييأس من هدايتهم طالما هو بين ظهرانيهم . ومع النداء الرفيق يكون الانتباه من المخاطبين ، والتهيؤ لما يعرض عليهم من أمور .

ولم يسرع موسى ــ عليه السلام ــ بالإنكار عليهم فعلتهم ، ولكنه قرر أولاً حقيقة فى صورة مقدِّمة مسلَّم بها . ولا تبنى النتائج إلا على المسلَّمات من المتكلم والمخاطب .

وتأمل هذا الإيقاع من الاستفهام التوبيخى فى قوله « ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟؟ » أى لم فعلتم ذلك ؟

وجاء العتاب فى صورة استفهامين بدلاً من الإنكار والتوبيخ . واعتمد فى هذا على أمرين آ ــ عدم طول العهد . ب ــ عدم الرغبة فى إحلال غضب الله سبحانه .

---

(٣٦) سورة طه ، الآية رقم ٨٦ .

إن واقع الحال أن العهد لم يطل ، وأن غياب موسى ـــ عليه السلام ـــ عنهم كان لمجرد أن كلمه ربه سبحانه ، وأعطاه التوراة . وفى ذلك إشارة إلى ما سيحدث من القوم حين يطول العهد بهم ، فقد حدث فعلا أن حرّفوا وبدّلوا ؛ كما سجل القرآن الكريم فى مواقف أخرى .

وجاء الاستفهام الإنكارى الثانى من جهة أخرى مخالفة للجهة السابقة ؛ فالجهة السابقة وهى طول العهد ، أو قصره ، تكون من خارج الإنسان ، أما الجهة الجديدة الثانية فمن داخل النفس البشرية ، حين ترغب فى الشىء أو ترغب عنه . ونوع موسى ـــ عليه السلام ـــ بذكر الجهتين ليلغى أى مبرر لوقوع الشرك منهم . فهل ترضى النفس البشرية السوية أن يحل بها غضب ؟ وأن يكون هـذا الغضب ممن أحبهم ، وفضلهم على العالمين .

ويأتى الحكم الذى أدين به بنو إسرائيل من نبيهم موسى ـــ عليه السلام ـــ وهو خُلْفُ الموعد . وهذا ما تضمنته آية أخرى ، قال تعالى :

﴿ **بئسما خلفتمونى من بعدى . أعجلتم أمر ربكم** ﴾(٣٧) .

فماذا قال بنو إسرائيل فى الدفاع عن أنفسهم ؟ قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ **قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ، فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى** ﴾(٣٨) .

إنهم على الفور نفوا التهمة عن أنفسهم ، وادَّعوا البراءة . فما حيثيات التبرئة التى ادعوها ؟ .

١ ـــ أنهم مغلوبون على أمرهم فى خلف الموعد فى زعمهم ؛ فهم يقرون ضمنا أن فى العمل خلفاً للموعد ولكنهم غلبوا على أمرهم من جهة خارجة عنهم .

٢ ـــ أن الحلى التى صنع العجل منها . حقيقة كانت معنا ، ولكننا أردنا

---

(٣٧) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٠ .

(٣٨) سورة طه ، الآية رقم ٨٧ .

التخلص منها ؛ لأنها لم تكن فى الأصل ملكا لنا . فقذفناها .

٣ ـــ وأن هذا العمل يتحمل وزره فى الدرجة الأولى من أضَلَّنا ، وقادنا به إلى الشرك ، وهو السامرى .

وبالنظر إلى دفاعهم عن أنفسهم ، نرى :

١ ـــ أن القوم أرادوا التخلص من وزر صغير بارتكاب جرم كبير ؛ وتلك فتنة شيطانية يلقيها الشيطان فى قلوب الغافلين ؛ فهم أرادوا أن يتخلصوا من أوزار الحلى بالمساعدة فى صناعة العجل ، ثم عبادته ، والفرح بذلك .

٢ ـــ أن وضوح الحق يرفض الغفلة عنه ، والاعتذار بعدم معرفته .

٣ ـــ أن المرء المسلم لا يوسع دائرة الإجبار ، والاضطرار لتشمل كل الحالات ، وعليه أن يزن الضرورة ويقدرها بقدرها قال تعالى :

**﴿ فمن اضطر فىٌ مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾**(٣٩) .

وقال أيضـــاً :

**﴿ فمن اضطر غير باغ ، ولاعاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم**(٤٠) .

فشرط الضرورة عدم تجاوزها ، والتوقف عند الحد الذى يدفع الضرر فقط ، ويكون بالنسبة لبنى إسرائيل بالتخلص من الأوزار بالتنازل عن الحلى مثلا ، وعدم إسهامهم فى صناعة العجل .

ولم يقبل دفاعهم عن أنفسهم ـــ ولذا خاطبهم الله سبحانه بقوله :

**﴿ أفلايرون ألا يرجع إليهم قولاً ؟ ولا يملك لهم ضرا ،**

---

(٣٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٣ .

(٤٠) سورة البقرة ، الآية رقم ١٧٣ .

**ولا نفعاً ؟ ﴾**[٤١] .

وقوله أيضـــاً :

**﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ، ولايهديهم سبيلا اتخذوه ، وكانوا ظالمين ﴾**[٤٢] .

ويتضمن خطاب الله سبحانه لهم :

١ ـــ أن هذا العجل الذى عبدوه من دون الله سبحانه لا يكلمهم ، ولا يرد على سؤالهم .

٢ ـــ وأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا يهديهم سبيلا اتخذوه .

٣ ـــ وأنهم بشركهم كانوا ظالمين لأنفسهم .

٤ ـــ وأنه كان من الواجب عليهم أن يتأملوا ، ويروا رؤيا بصر ، وبصيرة .

أما مايفهم من خطاب الله سبحانه لهم :

١ ـــ أن الجريمةالتى يرتكبها المرء فى حق نفسه أن يحرمها من التأمل ، والنظر ، والتفكير السديد ، وتقليب الآراء ، وأن يسير وراء كل ناعق ؛ لمجرد أنه أوتى جانبا من الدهاء ، والمكر ، والخبث .

٢ ـــ وأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة ، وهو الذى وهبهم النعم التى لا تعد ، ولا تحصى ، ولا يليق بالمرء فى زحمة الإضلال أن ينسى واهب النعم وهو الله سبحانه .

٣ ـــ وأن الله سبحانه يجازى على العمل فى ذاته ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، دون نظر إلى جنس أو لون **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** .

---

(٤١) سورة طه ، الآية رقم ٨٩ .

(٤٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٨ .

## ٢ ـــ التحقيق مع هارون ـــ عليه السلام :

على الرغم من أن هارون ـــ عليه السلام ـــ لم يشارك القوم فى جريمتهم ، بل اعترض عليهم ، وحاول ثنيهم عنها ، والتوجه إلى الله سبحانه ، فكان خطاب موسى ـــ عليه السلام ـــ له شديداً ؛ للمسئولية التى حملها من أخيه ، مسئولية القيادة فى غيبته .

ولنتأمل تلك الصورة :

موسى وقد رأى هارون ـــ عليه السلام ـــ يلقى ما بيده من ألواح التوراة ؛ لتأخذ هذه اليد رأس هارون ، وتقبض على لحيته ، وتجره بها .

فخطأ التقصير من القائد ، ولو كان يسيراً يفوق بمراحل ما يرتكبه الشعب مما هو أكبر منه ، ويدل على ذلك أيضاً الواقع المشاهد . قال الله تعالى على لسان موسى :

**﴿ قال : يا هارون ، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟ ﴾**(٤٣) .

ويتضح من الخطاب أنه لم يشارك القوم خطأهم وضلالهم ، ولكن كان يجب عليه أن يمنع هذا الإضلال بقوة أكبر ، فترك الشر دون محاولة قوية يعتبر عصيانا لموسى ـــ عليه السلام .

وقال الله تعالى على لسان هارون ـــ عليه السلام :

**﴿ قال : ابن أم ، إن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾**(٤٤) .

---

(٤٣) سورة طه ، الآيتان رقما ٩٢ ، ٩٣ .
(٤٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٠ .

وقال أيضـاً :

**﴿ قال : يا بن أم ، لا تأخذ بلحيتي ، ولا برأسي ؛ إني خشيت أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ، ولم ترقب قولي ﴾**[45] .

ـــ فهو يعلن أن القوم اجتمعوا عليه ، واستضعفوه ، ويوضح هذا ما رَدُّوا به عليه قبل ذلك : **﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾** ، فموقفهم موقف قوة ، لا موقف بينة ، وصرحوا بذلك في وجهه ، وصمموا على ما هم قائمون عليه .

ـــ وأن هذا الاستضعاف منهم اقترب من التخلص مني بالقتل لو أنا استمررت على الإنكار **﴿ وكادوا يقتلونني ﴾** .

ـــ وأنه لو اشتد في الإنكار عليهم ، وصار قتل منهم لي ، فسوف لا تغير شهادتي من الموقف شيئاً .

ـــ وأن هارون ـــ عليه السلام ـــ وضع نصب عينيه وحدة الأمة والشعب ، وأن هذه الوحدة إذا ما انتثر عقدها فسيضيع كل شيء ، وفي ذلك من الاهتمام بالوحدة مافيه .

ـــ وأن الضلال الذى وقعوا فيه ، اعتبره هارون ـــ عليه السلام ـــ ضلالا مؤقتا سينتهي بحضور موسى ـــ عليه السلام ـــ ولولا هذا الاعتبار ، ما جاز الاعتذار على أي حال ، قال تعالى :

**﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾**[46] .

وقال أيضـاً :

**﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾** [47] .

---

(٤٥) سورة طه ، الآية رقم ٩٤ .

(٤٦) سورة النساء ، الآية رقم ٤٨ .

(٤٧) سورة لقمان ، الآية رقم ١٣ .

ـــ وقبل موسى ـــ عليه السلام ـــ ماعرضه هارون ـــ عليه السلام ـــ بشأن الموقف ، ودوره فيه ، ودعا الله سبحانه له ولأخيه بالمغفرة . قال تعالى على لسانه :

**﴿ قال : رب اغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين ﴾**(٤٨) .

## ٣ ـــ التحقيق مع السامرى :

وتوجهت أصابع الاتهام من الجهتين السابقتين إلى السامرى تعلن ثبوت التهمة عليه .

قال الله تعالى فى شأن المساءلة التى تمت بين موسى ـــ عليه السلام ـــ والسامرى :

**﴿ قال : فما خطبك يا سامرى ؟ قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول ، فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى ، قال : فاذهب ؛ فإن لك فى الحياة أن تقول : لا مساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علما ﴾**(٤٩) .

وبدأ التحقيق بالسؤال عن القصة . كيف حيكت أطرافها ؟ « فما خطبك يا سامرى » ؟ .

والتعبير بالخطب يشير من أول وهلة إلى ثبوت الجريمة على المتهم ، وتقديم الاستفهام على النداء يدعم ذلك ، ويقويه .

وفى ضوء التعبير على لسان السامرى نرى :

ـــ أن السامرى تفوق على بقية القوم فى التفكير ، ولكنه استغل هذه

---

(٤٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥١ .

(٤٩) سورة طه ، الآيات من رقم ٩٥ إلى رقم ٩٨ .

القوة الفكرية فيما يفسد ، لا فيما يصلح ، وذلك شأن الكثير من مفسدى الأرض ، وعلى رأسهم إبليس لعنه الله .

ـــ أن اختيار « بَصُرْتُ » دون أبصرت ، يدل على أن الأمر المتحدث عنه ، اعتمد على البصيرة وهى العقل ، والتفكير ، لا على مجرد الإبصار ، فقيمة البصر ، والسمع تتجلى مع الفؤاد ، ولذا قال تعالى :

**﴿ إن السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾**(٥٠) .

ـــ وأن ما يدعم قوة السامرى الفكرية ، أنه استغل المشاهد المرئى بفكره ، فقد قبض قبضة من أثر الرسول جبريل ـــ عليه السلام ـــ فنبذها فى موضعها بعد أن صنع من العجل شيئاً .

ـــ وأن القدرة الذاتية التى مكنته من أثر الرسول ، كانت اختباراً له ولبنى إسرائيل معه .

ماذا يصنع ؟ وماذا يصنعون معه ؟ ويشير إلى هذا الاختبار ما سبق من قوله تعالى مخاطباً موسى ـــ عليه السلام :

**﴿ قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى ﴾**(٥١) .

ـــ وأن السامرى حيث لم يجد مناصا ، ومهرباً من التهمة الموجهة إليه اعترف بذلك صراحة ، « وكذلك سولت لى نفسى » وتستعمل « سَوَّلَ » حين يكون الإغواء والإضلال ، وفى ذلك ما قال تعالى عن الشيطان :

**﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم ، وأملى لهم ﴾** (٥٢) .

---

(٥٠) سورة الإسراء ، الآية رقم ٣٦ .
(٥١) سورة طه ، الآية رقم ٨٥ .
(٥٢) سورة محمد (ص) ،الآية رقم ٢٥ .

وما قاله أيضاً على لسان يعقوب ـــ عليه السلام ـــ مخاطباً أبناءه بعد مؤامرتهم :

**﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾** (٥٣) .

ومع ثبوت التهمة كان الحكم ، قال تعالى :

**﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين ﴾**(٥٤) .

وقد سبق على لسان موسى ـــ عليه السلام ـــ مايدل على فداحة الخطب ، وتحريق العجل ونسفه .

وتتضمن الآيات :

ـــ أن الشرك بالله سبحانه ، ومن مظاهره عبادة العجل يورث غضب الله تعالى ، ويورث الذلة فى الحياة الدنيا .

ـــ وأن عقوبة المسئول على قدر مسئوليته ؛ لأنه بجرمه يؤثر فيمن يليه ، فيتحمل وزره ، ووزر من عمل به إلى يوم القيامة .

ـــ وأن الحاكم المسلم إذا ما وجد مظهراً من مظاهر الشرك عليه أن يزيله إزالة بالغة الأثر بالتحريق مثلا كما صنع موسى ـــ عليه السلام(٥٥) .

---

(٥٣) سورة يوسف (ص) ، الآية رقم ١٨ .
(٥٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٢ .
(٥٥) وكما صنع النبى محمد ـــ ﷺ ـــ حين الفتح ، وبعده .

عن عبدالله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : دخل النبى ـــ ﷺ ـــ مكة ، وحول الكعبة ثلثمائه وستون نُصُباً ، فجعل يطعنها بعود فى يده ، وجعل يقول : « **جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** » أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الجهاد ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة رقم ١١٦٦ ص ٤٥٩ .

وبعد أن أزال مظهر الشرك زال الغضب بزوال أسبابه ، وتناول التوراة فبصحبة التوراة سيجد الهدى والرحمة للمؤمنين . قال تعالى :

**﴿ ولما سكت عن موسى الغضبُ أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾** [٥٦] .

---

(٥٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٤ .

## دروس وعبر :

ـــ من يتحمل عبء الدعوة إلى الله سبحانه عليه أن يعدَّ نفسه الإعداد اللائق لهذه المهمة ؛ بغية إنجاح العمل . وذلك بالعبادة ، والفهم ، والإخلاص لله سبحانه . وعلى هذا الدرب كانت المواعدة أربعين ليلة قبل إنزال الوحى من السماء ، وكان أيضاً التحنث فى غار حراء الليالى ذوات العدد .

ـــ الله سبحانه أعدَّ رسله ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ بأفضل الأعمال ؛ فموسى ـــ عليه السلام ـــ أقام مع شيخ مدين عشراً بدل ثمان ، وأتم المواعدة أربعين بدل ثلاثين ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ـــ أن المسئول إذا ما اضطر لسفر ، فعليه تنظيميا أن ينيب عنه فى غيابه من يقوم بشئون الأمة .

ـــ رؤية الله سبحانه لا تتحقق فى الدنيا ، كما أنها لا تكون فى الآخرة إلا للمؤمنين فقط .

ـــ أن الرسل جميعاً أسرة واحدة يدعون إلى عقيدة واحدة ، ولا يصح التفضيل بينهم على أساس من عصبية مع إقرار أن النبى الخاتم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أفضل الأنبياء جميعاً ، وأن أمته أفضل الأمم .

ـــ كتب الله سبحانه هداية ، ونور ، للبشرية ، فالتوراة هدى ونور ، والقرآن يهدى للتى هى أقوم ، وتتفق الكتب جميعها فى إقرار عقيدة التوحيد ، وإن اختلفت فى الجانب التشريعى الذى يختلف باختلاف الأقوام وظروفهم .

ـــ أن ضلال الأمم من عدة عوامل :

آ ـــ مسئولية خبيثة لئيمة تتصف بالدهاء مثل السامرى .

ب ـــ استعداد الشعب نفسيا للإضلال ، بسبب خلخلة إيمانية .

جـ ـــ أن الخلخلة الإيمانية تنذر بتحول خطير فى مسيرة الأمم إلى الفساد والإفساد .

د ــ ضعف المسئول ــ على الرغم من صلاحه فى ذاته ــ أمام العوامل السابقة لا تقدر على التصدى دون مساندة .

ــ من تاريخ بنى إسرائيل حملهم حلى الأقباط بمصر ، وخروجهم بها دون إرجاعها إلى أصحابها ، وأن هذه الحلى اتخذت لمخالفة أخرى ، وهى صناعة العجل وعبادته .

ــ على الداعية أن يواصل الدعوة ، حتى ولو تجمعت القوى ضده ، كما صنع هارون ــ عليه السلام .

ــ إذا ما غضب المسلم فلا انتقاما لنفسه ، ولكن متى انتهكت حرمة من حرمات الله سبحانه ، شريطة ألا يفقد توازنه ورشده .

ــ الأحداث التى تمر بالأمة لابد أن يحقق بشأنها لتتبين جوانب الأخطاء فيها ، وعلى من تقع المسئولية ؟ ليأخذ المجرم جزاءه ؛ شريطة أن يأخذ التحقيق العدالة منهجاً ، ولا يقر الاتهام إلا بالأدلة والبراهين .

ــ أن التحقيق ليس غرضه الأساسى توقيع العقوبة ، ولكن الهدف الأكبر إصلاح العوج ، ودعم السلوك السوى المستقيم .

ــ على المرء أن يفكر فى مظاهر الشرك ؛ ظاهرها ، وخفيها ، ويناقشها عقليا ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره .

ــ محاكمة المسئول أيا كان مركزه الأدبى فقد حقق موسى مع هارون عليهما السلام .

ــ الحرص على وحدة الأمة من منهج الأنبياء والصالحين ، ومن أهم الأهداف التى تسعى إليها الأمة..

**﴿ إنى خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل ﴾** .

ــ اللجوء إلى الله سبحانه حين يلم بالمسلم ذنب أو تقصير ؛ طلباً للعفو والمغفرة .

ـــ كشف ألاعيب المتآمرين على مصالح الأمة ، وتعريتهم أمام الجمهور ، فى محاكمة علنية عادلة .

ـــ تقليم أظفار الفساد ، وإغلاق الروافد التى تدعمه من واجبات المسلم المسئول إذا ما كان بإمكانه ذلك .

## مواقف لبنى إسرائيل فى سيناء

**— طلبهم رؤية الله سبحانه .**

**— نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة .**

**— أهل القرية ، وطوائفها الثلاث .**

آ — الطائفة الأولى : التى اعتدت فى السبت فمسخت .

ب — الطائفة الثانية : من أنكرت على الأولى فنجت .

جـ — الطائفة الثالثة : من سكتت ولم تشارك الأولى ولا الثانية .

د — وفى التاريخ طائفة أخرى .

**— قصة ذبح البقرة :**

**موضوعها ، عناصرها ، سير الأحداث فيها .**

**— دعوة بنى إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة ، ومراحلها .**

آ — مرحلة التهيئة ، والتذكير بالنعم .

ب — مرحلة الدعوة إلى التحرك والفتح .

جـ — رفض الدعوة ، والاعتذار بأسباب واهية .

د — دور الناصحين .

هـ ـــ إصرار وتأكيد على القعود .

و ـــ ما على الرسول إلا البلاغ .

ز ـــ ختام الموقف ، واستحقاق العقوبة .

ـــ **متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟**

ـــ **دروس ، وعبر .**

## طلبهم رؤية الله سبحانه :

طلب النبى موسى ـــ عليه السلام ـــ أن يرى ربه سبحانه فكان الصعق له ، ولما أفاق ذكر الله تعالى قائلا : ﴿ **سبحانك تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين** ﴾[1] ثم رجع إلى قومه بعد أن أخبره الله تعالى بما صنعوا من عبادة العجل ، وكان التحقيق معهم جميعاً ، وتبصيرهم بالصواب الواجب اتباعه ، والضلال اللازم اجتنابه والبعد عنه .

واختـار موسى ـــ عليه السلام ـــ للميقات نقباء عن القوم ، ومن المألوف أن يكون المختار من أمثل الناس وأفضلهم . فجمع من أخيار القوم سبعين رجلاً ؛ ليخصهم بتوجيهه ، وليكونوا نماذج رائدة لبنى إسرائيل جميعاً ، وخلاصتهم . وعليهم قيادة المسيرة إلى بر الأمان [2] قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ **واختار موسى قومه ، سبعين رجلا لميقاتنا** ﴾ [3] .

ووصل الرجال السبعون مع نبيهم ـــ عليه السلام ـــ إلى الميقات ، وتشير الآيات إلى أن القوم المختارين رأوا ما اختص به موسى ـــ عليه

---

(١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(٢) وتلك سنة من سنن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – حين يكون العدد كثيراً . فقد طلب النبى – ﷺ – إلى الأنصار فى بيعة العقبة الثانية نقباء عنهم ؛ يتكلمون باسمهم ، فاختاروا اثنى عشر نقيباً ، تمت المبايعة بوساطتهم ، فعن أبى الوليد ، عبادة ابن الصامت – رضى الله عنه – قال : بايعنا رسول الله – ﷺ – على السمع ، والطاعة ، فى العسر ، واليسر ، والمنشط ، والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » أخرجه البخارى ، ومسلم ، والنسائى وابن ماجة وكان عبادة أحد النقباء المختارين .

( رياض الصالحين ، باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، رقم ١٨٦ ص ١٠١ ) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٥ .

السلام ـــ دونهم ، من كلام الله سبحانه له ، ووحيه إليه ، ليكون لما طلبوا أدنى مبرر . والله أعلم .

ورأى القوم أن تلك فرصة لطلبهم رؤية الله سبحانه ؛ خاصة وأنهم قد اختيروا من مجموع القوم ، لخصوصية فيهم دون غيرهم . ووقع بنو إسرائيل فى مخالفتين جديدتين :

١ ـــ طلبهم رؤية الله سبحانه ـــ وربما يكونون على علم بما صار لصعق موسى ـــ عليه السلام ـــ وسببه .

٢ ـــ تعليقهم الإيمان على هذه الرؤية . قال الله تعالى :

**﴿ وإذ قلتم : ياموسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾** (٤) .

وتعليق الإيمان بموسى ـــ عليه السلام ـــ على الرؤية جهرة يبين لنا :

آ ـــ هذا النوع الجديد من الإيمان ، وهو النوع التجارى الذى تعلن فيه تلك المزايدات الحرام .

ب ـــ تناسى نعم الله سبحانه ، والتى غمرت بنى إسرائيل جميعاً ، منذ أن أرسل إليهم نبيهم ـــ عليه السلام .

جـ ـــ العنت فى طلب الرؤية ، فعلى الرغم من أنهم يطلبون غير الممكن ، فقد بالغوا ، واشترطوا أن تكون الرؤية جهرة .

د ـــ إصرارهم على هذا الطلب ؛ فقد بدءوا يحددون أنظارهم ؛ انتظاراً لرؤية الله سبحانه كما تدل بقية الآية الكريمة السابقة .

هـ ـــ إلغاء عقولهم حين طلبوا هذا الطلب ؛ فكانوا بذلك سفهاء وأغبياء .

وفعل القوم ما استحقوا عليه جزاء الإهلاك ، قال تعالى :

---

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٥ .

﴿ **فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ (٤) .

وقال أيضـــاً :

﴿ **أخذتهم الرجفة** ﴾(٥) .

إنها صاعقة ورجفة أهلكتهم وأماتتهم .

وتوجه موسى – عليه السلام – إلى ربه بالدعاء ، والتضرع ، قال تعالى على لسانه :

﴿ **قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا ، وارحمنا ، وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾(٦) .

وقوله ﴿ **بما فعل السفهاء منا** ﴾ يراد به القوم الذين طلبوا الرؤية جهرة ، والذين وافقوا أيضاً على هذا الطلب ، والذين سكتوا أيضاً دون إنكار هذا المنكر ، فقد وقعوا جميعاً فى دائرة المخالفة التى تستحق العقاب الذى عوقبوا به(٧) ، وخرج من دائرة المخالفة موسى – عليه السلام .

---

(٥) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٧) عن أم المؤمنين ، أم الحكم ، زينب بنت جحش – رضى الله عنها – أن النبى – ﷺ – دخل عليها فزعاً يقول :

« **لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ، ومأجوج مثل هذه** » ( وحلق بأصبعيه ؛ الإبهام والتى تليها ) ، فقلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « **نعم ، إذا كثر الخبث** » .

والخبث : الفسق والفجور ، وفى الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام ، ففيه بيان شؤم المعصية ، والتحريض على إنكارها ، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس . =

وفى لجوء موسى - عليه السلام - إلى ربه سبحانه - نرى :

- تفويض الأمر إلى الله سبحانه ؛ يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء .

- أن الفتن ما هى إلا اختبار ، وابتلاء للناس ، وعلى المؤمنين أن يجتازوها بنجاح .

- أن العبد إذا ما أذنب عليه أن يسرع بالتوبة من ذنبه ، ويعود إلى الله سبحانه .

- تمجيد الله سبحانه فى الدعاء تذللاً ، وتضرعاً .

- طلب الخير جائز شرعاً ، إذا ما كان مساعداً على طاعة الله سبحانه .

- أن أكبر شيء يسجل فى صحيفة العبد يوم القيامة الرجوع إلى الله ، والتوبة من الذنوب ؛ فهدنا إليك : أى رجعنا إليك ، ومضارعها : يهود ، أى يرجع ، ولذا سمى بنو إسرائيل بيهود ، وتدخل الألف ، واللام عليها فيقال : اليهود ، كما فى يزيد ، واليزيد .

ورد الله سبحانه على نبيه موسى - عليه السلام - بقوله :

**﴿ قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذى هم بآياتنا يؤمنون ﴾**[٨] .

ومن خصوصيات هذه الآية :

- أن رحمة الله سبحانه بمعناها العام ، وسعت كل شيء فى الكون ، جماده ، وكائناته الحية .

---

= أخرج الحديث البخارى ، ومسلم ، وأحمد . رياض الصالحين ، باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . رقم ١٨٩ ص ١٠٢ .

(٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٦ .

– وبمعناها الخاص وهو النجاة من العذاب ، فهى لمن تحققت فيهم هذه الشروط :

آ – الذين يتقون الله سبحانه ، ويخافون عذابه .

ب – والذين يؤمنون بآيات الله سبحانه .

جـ – والذين يترجمون هذا الإيمان إلى مساعدة الناس فى ظل تشريع الزكاة .

د – والذين يتبعون النبى الخاتم محمد بن عبدالله – ﷺ – وفى ذلك يقول تعالى :

**﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه . أولئك هم المفلحون ﴾**(٩) .

**نتق الجبل فوقهم :**

إن رحمة الله سبحانه كتبت للمتقين المؤدين للزكاة المفروضة عليهم ، والذين آمنوا بالآيات الكريمة . إن بنى إسرائيل هنا متلكئون فاترو الإيمان بالتوراة ، وتعاليمها ، فالإيمان الصحيح تلزمه السرعة فى التلبية والامتثال لأمر الله سبحانه ؛ إنهم قد تناولوا التوراة بلين وفتور ، فكان أن توعدهم الله سبحانه إن ظلوا على هذا الفتور ، وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾** (١٠) .

---

(٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٧ .    (١٠) سورة البقرة ، الآيتان ٦٣ ، ٦٤

وقال أيضـاً :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واسمعوا ، قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١١) .

وقال أيضـاً :

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، وإذ أخـذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ﴾(١٢) .

وتدل الآيات الكريمة على جملة أنماط من سلوك بنى إسرائيل ، وهم بجوار جبل الطور فى جنوب سيناء مثل :

– أن الله سبحانه أخذ عليهم الميثاق والعهد فى عدم العودة إلى الكفر ونقض العهد والمخالفة لأمر الله سبحانه ؛ سواء أكان هذا الميثاق حين أخذ الله سبحانه من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم كما تدل الآية الأخيرة ، أو كان هذا الميثاق بعد نجاتهم من هلاك نازل بهم ، ولكنهم تابوا ونصحوا ، وعوهدوا ألا يعودوا إلى مخالفة أخرى ، كما تدل الأحداث السابقة . سواء كان هذا ، أو ذاك ، فخلف العهد ليس من سمات المؤمنين إيمانا حقاً .

– أنهم تناولوا التوراة بفتور وضعف ، وحسبوا أن ذلك منج لهم من عذاب الله سبحانه .

– وأنهم ما تغير حالهم إلا حين رأوا الجبل قد رفع فوقهم ، وبصدد أن ينزل عليهم إن لم يستجيبوا لأمر الله سبحانه ، وذلك :

---

(١١) سورة البقرة ، الآية رقم ٩٣ .

(١٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ .

- بأن يأخذوا الكتاب بقوة ، وجد ، دون ضعف وفتور .
- وأن يتدارسوا تشريعاته لتكون منهج الحكم فى حياتهم .

**أهل القرية ، وطوائفها الثلاث :**

انقسم الناس فى هذه القرية إلى طوائف ثلاث :

- من اعتدوا فى السبت .
- من أنكروا على المعتدين .
- من سكتوا ولم ينكروا ، ولم يشتركوا فى الاعتداء .

**آ - الطائفة الأولى :**

يقول الله تعالى فى شأن هذه الطائفة :

**﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظة للمتقين ﴾**(١٣) .

وقال أيضاً :

**﴿ قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة ، والخنازير ، وعبدالطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾**(١٤) .

وقال :

**﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ إذ يعدون فى السبت ؛ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لاتأتيهم ،**

---

(١٣) سورة البقرة الآيتان ٦٥ ، ٦٦

(١٤) سورة المائدة الآية ٦٠ .

**كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[١٥] .**

وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : سئل رسول الله – ﷺ – عن القردة والخنازير : أهى مِمَّا مسخ الله ؟ فقال :

**﴿ إن الله لم يهلك قوماً – أو قال : لم يمسخ قوماً – فيجعل لهم نسلاً ، ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك ﴾[١٦] .**

أى : لقد علمتم يا معشر اليهود ، ما حل من البأس ، والشدة بأهل القرية التى كانت حاضرة البحر الأحمر ، وقد عصى أهلها أمر الله سبحانه ، وخالفوا عهده ، وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم يوم السبت ، والقيام بأمره ، إذ كان مشروعاً لهم هذا التعظيم ، فتحايلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت ، ومقتضى التعظيم ينهى عن ذلك ، وهذا التحايل كان نتيجة اختبار ، وابتلاء من الله سبحانه لهم ، إذ تأتيهم حيتانهم يومِ سبتهم شرعاً ؛ أى ظاهرة واضحة لهم ، طافية على سطح الماء ، سهلة التناول ، وبالتالى سهلة الصيد لو كان صيد ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ؛ أى إذا كان يوم الأحد لزمت أسفل البحر فلا يرى منها شىء حتى يكون يوم السبت .

وربما يكون تحايلهم بنصب الشباك مساء الجمعة ، وتربط بالشاطئ مثلا ؛ لتقع فيها الحيتان يوم السبت ، وتجرّ يوم الأحد ، وربما تفتح فتحة صغيرة

---

(١٥) سورة الأعراف الآية ١٦٣ .

(١٦) رواه مسلم من طريقين ، سفيان الثورى ، ومسعر ، كلاهما عن مغيرة ابن عبد الله اليشكرى ، عن المعرور بن سويد ، عن ابن مسعود ، ورواه أحمد ، وأبو داود الطيالسى من حديث داود بن أبى الفرات ، عن محمد بن زيد ، عن أبى الأعين المعبدى عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود بلفظ : « لا ، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم ، فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم » ابن كثير فى تفسير آية المائدة ٦٠ ولم أعثر على رواية مسلم فى المختصر ، ولعلها فى الأصل ، والله أعلم .

للنهر تصل إلى حفرة صغيرة ، فإذا كان يوم السبت فتح أهل القرية هذه الفتحة لتدخل الحيتان ، ولا يستطيع الحوت أن يخرج منها لقلة مائها ، فإذا كان يوم الأحد جاء الصائد فأخذه وسواء أكان هذا ، أو ذاك ، أو غيرهما ، فهناك تحايل على أى حال بأى وجه من الوجوه .

وهذا التحايل لا يخرج القوم من المؤاخذة ؛ فالله سبحانه يجازى على النوايا التى جرت إلى العمل على أى وجه كان ، وكانت عقوبة هؤلاء القوم أن مسخوا قردة منحطة .

وتضيف الآية الثانية أن المسخ كان إلى خنازير أيضاً نتيجة لعن الله سبحانه لهم ، وغضبه عليهم بسبب هذا اللؤم ، والتحايل على شرع الله سبحانه .

ويدل الحديث الشريف على أن المسخ إلى قردة وخنازير لم يحولهم إلى حيوانات بنوعها المألوف الذى ينسل ، ويتوالد ، بل ظلت على هذا الشكل حتى فنيت وبادت .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يُدرى ما فعلت ، وإنى لا أراها إلا الفأر ؛ إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب ، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت »** .

فحدثت كعبا فقال : أنت سمعت النبى – ﷺ – يقوله ؟ قلت : نعم . قال لى مراراً .(١٧)

والدليل على المسخ فى الحديث . إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب ؛ لأن لحوم الإبل ، وألبانها حرمت على بنى إسرائيل ، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت ؛ لأنها حلال لهم كلحمها وهو دليل على المسخ .

ومخالفة هذا الحديث للحديث السابق من توالد الممسوخ وتناسله يرى

---

(١٧) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الزهد والرقائق ، باب الفأر وأنه مسخ رقم ١٨٨٦ ص ٨٣٥ .

الجمهور فى التوفيق بينهما بأن عدم التوالد والتناسل كان لممسوخى أهل القرية ، وأن الفأر المتوالد كان لمن مسخ من غير أهل القرية والله أعلم .

ويسجل القرآن الكريم عليهم اللعن إلى الأبد حيث قال تعالى :

**﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود ، وعيسى ابن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾**(١٨) .

ومما ورد بشأن المسخ أيضاً – على وجه الاحتمال ، وليس على سبيل اليقين .

عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن أعرابياً أتى رسول الله – ﷺ – فقال : إنى فى غائطٍ مُضِبَّةٍ ( مكان يكثر فيه الضَّبُّ ) وإنه عامة طعام أهلى ، قال : فلم يجبه ، فقلنا : عاوده فعاوده ، فلم يجبه ثلاثاً ، ثم ناداه رسول الله – ﷺ – فى الثالثة فقال :

**« يا أعرابى ، إن الله لعن – أو غضب على سبط بنى إسرائيل فمسخهم دوابا يدبون فى الأرض فلا أدرى ، لعل هذا منها ، فلست آكلها ، ولا أنهى عنها »**(١٩) .

---

(١٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٨ .

(١٩) أخرجه مسلم ، كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الضب ، مختصر مسلم ج ٢ ص ١١٥ رقم ١٣٢٤ ، وقلنا : على وجه الاحتمال فى التقديم للحديث لما وجد فى نصه « فلا أدرى . لعل هذا منها .... ولا أنهى عنها » ولما أخرجه مسلم أيضاً فى نفس الباب رقم ١٣٢٣ من نفس المصدر .

عن عبدالله بن عباس ، أن خالد بن الوليد – رضى الله عنهم – الذى يقال له : سيف الله أخبره : أنه دخل مع رسول الله – ﷺ – على ميمونة ، زوج النبى – ﷺ – وهى خالته ، وخالة ابن عباس ، فوجد عندها ضبا محنوذا ( سمينا ) ، قدمت به أختها حفيدة بنت الحارث من نجد ، فقدمت الضب لرسول الله – ﷺ – وكان قلما يقدم إليه بطعام حتى يُحَدَّث به ويُسَمَّى له ، فأهوى رسول الله – ﷺ – يده إلى الضب ، فقالت امرأة من النسوة الحضور : أَخْبِرْن رسول الله – ﷺ – بما قدمتن له ، قلن : هو الضب يا رسول =

ومما ورد بشأن الإصابة برجس الطاعون .

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ، أنه سمعه يسأل أسامة ابن زيد (٢٠) – رضى الله عنهم – ماذا سمعت من رسول الله – ﷺ فى الطاعون ؟

فقال أسامة : قال رسول الله – ﷺ – :

**« الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه »** (٢١) .

ويفهم من الحديثين السابقين : أن من بين العقوبات التى تعرض لها بنو إسرائيل رجس الطاعون ، وليس بالحديث ما يدل على أن العقوبة هذه كانت لأهل القرية ، فبقيت مطلقة ، كما يفهم احتمال المسخ إلى الفأر ، وليس بالحديث مايؤكد ذلك ، وفى ضوء كل ما سبق يتبين لنا أن التحايل على شرع الله سبحانه حرام يجازى عليه صاحبه (٢٢) .

---

= الله ، فرفع رسول الله – ﷺ – يده فقال خالد بن الوليد : أحرام الضب يا رسول الله ؟ قال : **« لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه »** قال خالد : فاجتررته ، فأكلته ، ورسول الله – ﷺ – ينظر ، فلم ينهنى ، أخرجه مسلم ، كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الضب ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ رقم ١٣٢٤ .

(٢٠) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل ، حب رسول الله – ﷺ – ابن حبه ، يُكنى أبا محمد ، وأمه أم أيمن ، بركة الحبشية ، حاضنة النبى – ﷺ – ولد فى الإسلام ، ومات النبى – ﷺ – وله عشرون سنة تقريباً ، وكان قد أمره على جيش عظيم ، فمات قبل أن يتوجه ، فأنفذه الصديق ، وفضله الفاروق فى العطاء على ولده عبد الله ، واعتزل الفتن بعد مقتل عثمان ، إلى أن مات فى أواخر خلافة معاوية ، سكن المزة بدمشق ، ثم وادى القرى ، ثم مات بالمدينة سنة أربع وخمسين ، روى عنه بعض الصحابة كأبى هريرة ، وابن عباس – رضى الله عنهم أجمعين – . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٣٠ رقم ٨٩ .

(٢١) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ح ٤ ص ٢١٣ ( المتن ) .

(٢٢) وقد فكر بعض الصحابة فى نوع من التحايل على الشرع ، ولكن =

ب - **الطائفة الثانية** . التى أنكرت على المعتدين :

قامت هذه الطائفة بعمل إيجابى فى إنكار المنكر على هؤلاء الذين اعتدوا فى السبت ، وتحايلوا على شرع الله سبحانه ، وقد ورد بيان موقفهم فى معرض الحوار بينهم ، وبين من سكتوا ولم يشاركوا المعتدين فى اعتدائهم ، ولا منكرى المنكر فى إنكارهم على المعتدين ، قال تعالى :

**﴿ وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، أو معذبهم عذابا شديداً ؟ قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون . فلما نسوا ماذكروا به**

---

= النبى - ﷺ - قطع فى المسألة ، ورد على الفور . فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سئل نبى الله - ﷺ - عن الرجل يطلق امرأته ثلاثا ، ويتزوجها آخر ، فيغلق الباب ، ويرخى الستر ، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها . هل تحل للأول ؟ قال : « **لا ، حتى يذوق العسيلة** » أى ، لا تحل إلا إذا حدث جماع ، رواه أحمد والنسائى من رواية سفيان الثورى ( نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ، ص ٢٨٥ كتاب الرجعة والإباحة للزوج الأول ) .

وقد حذر النبى - ﷺ - أتباعه من اتباع طريقة اليهود ، والنصارى ، وتحايلهم على شرع الله سبحانه وأخبر أن من هلاك الأمم اتباع السابقين فى شرهم ، وضلالهم . فعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« **لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى ولو دخلوا جحر ضب تبعتموهم** » قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « **فمن ؟** » ( أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، رقم ١٧٠٨ ص ٧٢٤ ) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :
« **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** » .

قال ابن كثير : إسناد الحديث جيد ، فالذى حدث به عن أبى هريرة هو أحمد ابن محمد بن مسلم ، وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى ، وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح ، ( تفسير آيتى البقرة : ٦٥ ، ٦٦ ) ، وآية الأعراف ١٦٣ .

**أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ (٢٣) .**

وفى مواقف أخرى ذكرت آيات قرآنية ملامح هذه الطائفة الناجية بشكل عام غير مقيدة بحادثة الاعتداء فى السبت وأهل القرية ، قال الله تعالى :

**﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون ﴾(٢٤).**

وقال أيضاً فى مجال تعداد طوائفهم بشكل عام :

**﴿ ليسوا سواءً ؛ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ، وهم يسجدون ، يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين ﴾ (٢٥) .**

ولهذه الطائفة التى أنكرت على المعتدين ملامح فى ضوء الآية الأولى .

١ - أن أهلها لم يلتفتوا إلى المثبطين للهمم والعزائم ، بحجة عدم الفائدة .

٢ - وأنهم فهموا أن الإنكار للمنكر اختبار فى ذاته ؛ فلزم القيام به أيا كانت الأحوال « معذرة إلى ربكم » .

٣ - لم يتسرب اليأس إلى قلوبهم ، فربما تأتى الهداية من حيث لا يدرون « لعلهم يتقون » ، فالمؤمن يهفو دائماً إلى هداية الآخرين على يديه ؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا ومافيها .

٤ - أنهم طائفة متميزة عن غيرهم سلوكا وتفكيراً ؛ فيما بينهم يكونون وحدة متماسكة تتمتع بالمناعة الذاتية ، ولا يذوبون فى غيرهم ، وحين يحتكون بغيرهم ، إنما بهدف التعرف على المدعو من ناحية ، وبذل الجهد لهدايته من ناحية أخرى .

---

(٢٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٦٤ ، ١٦٥ .  (٢٤) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٩ .

(٢٥) سورة آل عمران الآيات من رقم ١١٣ إلى رقم ١١٥ .

وتكتمل الصورة المضيئة للفئة المؤمنة فى آية الأعراف الثانية ، وآيات آل عمران .

٥ - أنهم يبغون الحق منهجاً فى الحياة ، يقيسون الناس به ، فالرجال يُعْرفون بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال .

٦ - الارتباط على أساس من الإيمان ، فيجب على كل منهم أيا كان ، وأين أقام ؟ ومتى عاش ؟ أن يحب إخوانه السائرين على منهج الحق ، المتعلقين بكتاب الله سبحانه ؛ لا يحرفونه ، ولا يبدلونه .

٧ - يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتنافسون فى وجوه الخير . وقد قال الله سبحانه فى شأن هذه الطائفة :

**﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون ، يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾** (٢٦) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

**﴿ إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون ، وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب ﴾** (٢٧) .

**جـ - الطائفة الثالثة :**

وقفت هذه الطائفة فى وسط الطريق ، فهى لم تشارك الطائفة الأولى اعتداءها فى السبت ، كما أن يأسها من المعتدين سيطر على نفوس أصحابها ؛ فلم يشاركوا الطائفة الأولى أيضاً فى إنكارها المنكر ، ولم تكتف بهذا الموقف السلبى من الطائفتين ، بل حاولت تثبيط همم الطائفة الثانية التى قامت بالدعوة إلى الحق ، وإنكار المنكر ، وحجتهم أنهم هالكون لا محالة ، وتعجبوا من أمر المنكرين

---

(٢٦) سورة النساء ، آية رقم ١٦٢ .

(٢٧) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ج ٤ ص ٢١١ .

للمنكر ، واستغربوا حالهم ، قال الله تعالى على لسانهم :

**﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، أو معذبهم عذابا شديداً ﴾**

فهم وقد وقعوا فى مساءة التثبيط لهمم الداعين إلى الله سبحانه ، لازالت بقية من إيمان لديهم ، فلازال اعتقادهم بأن الله سبحانه يعاقب من يخالف أمره ، ويتحايل على الاعتداء فى السبت ، وعلى هذا جاز لنا أن نرجح أنهم ناجون مع الطائفة الثانية ، وإن لم يحظوا بمنزلتهم ، وهذا رأى جمهرة العلماء ، وقد رأى البعض أنهم هالكون مع المعتدين ؛ حيث لم يشاركوا الطائفة الثانية ، وإن كان لهم نوع من الإيمان ، فقد كان للطائفة الأولى نوع من الإيمان أيضاً ، ولكنه لم يترجم إلى امتثال وعمل ،(٢٨) والله أعلم بالصواب .

**د - وطائفة أخرى رابعة فى تاريخ بنى إسرائيل :**

كما أن طائفة رابعة نشأت فى بنى إسرائيل ، من حيث موقفها من المنكر ، وإن لم ترتبط بأهل القرية فى تاريخها .

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

---

(٢٨) وفى هذا روى عن أبى بكر الصديق - أنه قال :
يأيها الناس ، إنكم لتقرءون هذه الآية **﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾** ( المائدة : ١٠٥ ) ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

**﴿ إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا عليه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ﴾** .
( رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى بأسانيد صحيحة ، وأحمد وابن ماجة وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان - رياض الصالحين ، وهامشه - رقم ١٩٧ ، باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص ١٠٦ ) .

والأخذ على اليد : أى المنع من الظلم ، باليد أو باللسان ، أو بالقلب ، يعمهم الله بعقاب منه : أى يقع على الظالم لظلمه ، وعلى غيره لإقراره عليه ، وقد قدر على منعه ولم يفعل .

« إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ؛ فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله ، وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ، أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله ، والنبى ، وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾(٢٩) .

ثم قـال :

« كلا ، والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم »(٣٠) .

وتتميز هذه الطائفة عن الطوائف الثلاث السابقة .

- فهى لم تشارك الطائفة الأولى المعتدية بالتناول المباشر للاعتداء ،

---

(٢٩) سورة المائدة ، الآيات من رقم ٧٨ إلى رقم ٨١ .

(٣٠) رواه أبو داود ، والترمذى ، وقال : حديث حسن . وقال المحققون بالهامش : وأخرجه أحمد وفى سنده انقطاع ، لكن فى الباب عن أبى موسى - رضى الله عنه - عند الطبرانى ، قال البيهقى : فى مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح ، واللفظ لفظ أبى داود .

ولفظ الترمذى ، قال رسول الله - ﷺ - :

« لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى ، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم ، وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود ، وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول =

والتجاوز ، بل قامت بصورة – عرجاء – من صور الإنكار

– وهى لم تشارك الطائفة الثانية الناجية فى الثبات على دعوة الحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل ترددت بين الإنكار ، والتعايش مع المنكر عليهم فى اليوم التالى .

– ولم تشارك الطائفة الثالثة فى اليأس من عودة المنكر عليهم إلى الحق ، والاعتقاد بأن الله سبحانه سيهلك المعتدين العاصين .

ولنا من موقفهم عبرة وعظـة :

١ – أن القعود عن محاربة الفساد فى الأمة ، يبدأ بالإنكار البارد المريض ، الذى فقد حرارة الرغبة فى التغيير .

٢ – أن الإنكار المريض يفسر الازدواجية فى السلوك ؛ فالمنكر يقول بلسانه ما يخالف سلوكه ، ينكر على القوم فعلهم باللسان ، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم ، وأكلهم وشربهم ، ومجالسهم ، دون أثر للإنكار السابق فى تلك المشاركة .

٣ – أن المنكر عليهم وقد أحسوا برودة الشعور بمضمون النصيحة فى تلك الطائفة ، ظنوا أن الأمر ليس بالخطورة كما تفوه الناصحون .

٤ – أن الإنكار على هذا النحو لا ينجى صاحبه من العقوبة ، واللعن من الله سبحانه ؛ فهو فى الحقيقة معصية له .

٥ – أن دعاة الحق يجابهون فى دعوتهم جملة أصناف :

آ – من يباشر المنكر ويجاهر به .

---

الله – ﷺ – وكان متكئاً ، وقال : « لا ، والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

رياض الصالحين ، باب فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، رقم ١٩٦ ، مع هامش الحديث .

وتأطروهم : أى تدفعوهم . ولتقصرنه : أى لتقيمنه على الحق دون الباطل .

ب - من ينكر بمجرد اللسان ، دون عزلة شعورية واقعية عن العصاة الظالمين .

جـ - من فترت حماستهم فى الدعوة إلى الله سبحانه ، ووقفوا موقف المثبطين لهم .

د - من يعتقد شرعية المنكر ، ويزعم صلاحه ، ولكنه يظهر بمظهر المنكر له ؛ خداعاً ولؤما ونفاقاً .

هـ - من اتخذ أولياء من اليهود والنصارى الملحدين ، وفضلهم على إخوانه من المسلمين .

٦ - أن الهلاك للأمم يكون بسبب انحراف الناس عن الطريق المستقيم ، طريق الله سبحانه وتعالى .

## قصة ذبح البقرة :

### موضوع القصة :

موضوع هذه القصة هو البحث عن القاتل ، وقد جاء متأخراً فى القصة ؛ لأن المقام مقام تذكير لبنى إسرائيل بما فعلوه مع موسى - عليه السلام - فتقدم ما سيقت القصة له ، ثم ختمت بالأصل ، وهو ظهور القاتل ، والتعرف عليه ؛ بوساطة معجزة تمت على يد النبى - عليه السلام - قال الله تعالى :

**﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته ؛ لعلكم تعقلون ﴾**[٣١] .

### عناصر القصة :

١ - موسى - عليه السلام .

٢ - بنو إسرائيل .

---

(٣١) سورة البقرة ، ٧٢ ، ٧٣ .

٣ – البقرة ميدان الحوار ، ووسيلة المعجزة .

سير الأحـداث :

حدثت جريمة قتل فى بنى إسرائيل ، وكليم الله سبحانه بين أظهرهم ولم تظهر أدلة تدين شخصاً معيناً بالجريمة ، فاختلفوا على أنفسهم ، واختصموا ، وتضاربت الآراء ؛ كل يأخذ جهة ، وطالما الأمر على اختلاف فمن ارتكب جريمة القتل فى مأمن من القصاص ، ودم القتيل سيضيع هدراً ، وقد كان بينهم عزيزا محبوباً .

ولجأ القوم إلى موسى – عليه السلام – ليسأل الله سبحانه عن القاتل ، فكان أن أبلغهم عن الله سبحانه بأن يذبحوا بقرة . ولو كان الأمر من بشر لجاز للمرء أن يستغرب ، ويعجب ، ولكن الأمر من الله سبحانه ، الذى يعلم السر وأخفى ، وخاصة أنهم توجهوا إليه موقنين بأن الله سبحانه سيخبرهم بالحقيقة ، ولكن القوم عجبوا فعلاً ، ووجهوا تعجبهم إلى موسى – عليه السلام – على الرغم من أنه مبلغ عن الله سبحانه ؛ ظنا منهم بأن هذا الطلب باجتهاد منه ، دون رجوع إلى الله سبحانه ، ولكن موسى – عليه السلام – يقول لهم : إن الله يأمركم ، والرسول أمين فى النقل والبلاغ ، ولكن القوم دون هذا التفكير السوى ، فوصموا نبيهم بالهزء والسخرية – حاشاه عن ذلك – وفى هذا الشأن يقول الله تعالى على لسانه ، ولسانهم :

**﴿ وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾**(٣٢) .

وكان من الممكن أن يكتفوا بهذا ، وينفذوا ؛ فقد سيقت كلمة « بقرة » النكرة ؛ لتدل على أى بقرة ، ولكن القوم وقد بدءوا باعتراض تمادوا فى التعنت ؛ فأضافوا مخالفة إلى مخالفة . فعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم .(٣٣)

---

(٣٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٧ .

(٣٣) بإسناد صحيح عن غير واحد عن ابن عباس – رضى الله عنهما .

فطلبوا من جديد أن يبين لهم . ماهى ؟ فجاء قيد جديد يضيق عليهم فى العثور عليها . وكان القيد بهذه المواصفات : ليست كبيرة السن « لا فارض » وليست صغيرة « ولا بكر » ولكنها وسط « عوان بين ذلك » وطلب إليهم الامتثال الحرفى والضمنى لما يؤمرون ، قال تعالى على لسانه ، ولسانهم :

**﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ، ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ماتؤمرون ﴾**(٣٤) .

وعلى الرغم من ختام الآية الكريمة السابقة ، الذى لا يتحمل تأويلاً « فافعلوا ما تؤمرون » ، عاودوا الكرة من جديد . فطلبوا تحديد اللون ، فكان أن حدد الله سبحانه : فاللون أصفر ، والاصفرار نقى ، وهى من حيث الشكل تسر الناظرين بجمال لونها . يعنى بقرة بقاؤها على قيد الحياة أفضل من ذبحها ، وقد كانوا السبب فى ذلك . قال تعالى :

**﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء ، فاقع لونها ، تسر الناظرين ﴾**(٣٥) .

وتابع القوم تعنتهم ، وكأن الموضوع قد نُسِىَ تماماً ، فى ثنايا هذه المطالب ، والقيود ، فكيف وقد ظهر اهتمامهم وحرصهم على معرفة الجانى . فالتعنت قد طغى على أصل الموضوع مما يدل على طبعهم فى تعاملهم مع نبيهم – عليه السلام – وربهم سبحانه . فبرغم التحديد السابق لم يكتفوا به زاعمين أن البقر تشابه عليهم ، والتعليل الذى ساقوه ينقض صنيعهم ؛ فهم لم يكلفوا – فى ضوء ما سبق – إلا أن يذبحوا أى بقرة تنطبق عليها هذه المواصفات . قال تعالى :

**﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا ؛ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾**(٣٦) .

---

(٣٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٨ .
(٣٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٩ .
(٣٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٧٠ .

وكان تحديد جديد كما طلبوا : فهى ليست مذللة مسخرة لحرث الأرض ، وليست مذللة لسقيها ، ولا علامة فيها ؛ فالاصفرار النقى يعم كل جسمها ، وليس بها أى عيب ؛ من قطع ، أو عرج ، أو هزال ، أو مرض . وسمع القوم تلك الصفات الجديدة ، وبدل أن يفهموا منها التشديد عليهم حيث طلبوه ، اعتقدوا أنه الحق ، وما سبق والعياذ بالله غير الحق . وليتهم حين توجهوا إلى الذبح كانوا على رضا تام ، ففى اللحظة الأخيرة والحاسمة بدا منهم تردد وشك ، وكأنهم رأوا أن يعودوا من جديد للتشدد وطلب المواصفات ، قال تعالى :

**﴿ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ، ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها . قالوا : الآن جئت بالحق ، فذبحوها ، وما كادوا يفعلون ﴾**(٣٧) .

وتهيأ الجميع لما سيحدث بعد ذلك ، فهو غيب عليهم ، واستعادوا ماظن أنه قد نسى من شأن الجناية ، قاتلاً ومقتولاً . فقال لهم موسى – عليه السلام : خذوا قطعة من تلك البقرة المذبوحة ، واضربوا بها جثة المقتول . والله أعلم بمدى إذعانهم لهذا الأمر ، فالآيات طوت تلك الصفحة ؛ فما تقدم فيه الدليل الكافى على طبع قوم ملىء بالتعنت والتشدد . وعادت الحياة من جديد للقتيل بعد أن ضرب بجزء من البقرة ، وسئل عن القاتل فقال : فلان .

وأضافت الآيات إلى موضوع القصة شيئاً مهما ولازماً فى أمر العقيدة . هو موضوع البعث والنشور ، وإحياء الموتى ، ولعل تعميق الإيمان فى هذا الجانب يعدل من سلوكهم وسلوك أمثالهم ، وسوف لا يتأتى هذا التعديل فى السلوك إلا إذا استعمل المرء عقله وتفكيره ، وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ماكنتم تكتمون ، فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته ؛ لعلكم تعقلون ﴾**(٣٨) .

---

(٣٧) سورة البقرة ، الآية رقم ٧١ .

(٣٨) سورة البقرة ، الآيتان رقما ٧٢ ، ٧٣ .

## دعوة بنى إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة :

وأوشكت رحلة نبى الله موسى – عليه السلام – على الانتهاء حين بدا العزم على دخول الأرض المقدسة ، أرض فلسطين ، موطن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – ويعقوب – عليه السلام – هو إسرائيل ، وهؤلاء جميعاً أحفاده ، وأبناؤه بنو إسرائيل ، والذى يؤمن بيعقوب إيماناً حقاً هم كما وصفهم الله تعالى :

**﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾**(٣٩) .

والرحلة من الطور إلى فلسطين دون الألف من « الكيلو مترات » وهى أقل من نصف المسافة بين نهر النيل والطور تقريبا – إذا نظرنا إلى الخريطة بخط مستقيم دون اعتبار آخر – وإذا كانوا قد عاشوا فى مصر تحت نير فرعون ، واستبداده ، وتسخيره ، فقد عاشوا فى الطور أحراراً ؛ سلطتهم بأيديهم ، وقيادتهم فى يد نبى منهم هو موسى – عليه السلام – وطعامهم مَنٌّ وسلوى ، ثم بقل وعدس وقثاء ، وبصل ، وثوم ، حسب ما طلبوا ورغبوا . ما يريدونه يفعلونه ، حتى ولو كان تحايلاً على الشرع ، أو حراماً بشكل صريح ، وإن كان من هلاك لبعضهم ، أو مسخ فهو للمصرّ على الاعتداء ، والمعصية ، فيخلو مجتمعهم من جديد ممن يصر على المعصية .

وما يظن والحال هكذا إلا أنهم يلبون نداء التحرك إلى أرض يعقوب ، يبذلون فى سبيلها دماءهم ، وأرواحهم وأموالهم ، ويقاومون كفرا استبدّ بالأرض ، وعاث فيها بالفساد – ولكن الذى حدث أنهم استمرءوا النعمة

---

(٣٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٧ .

سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، فاستناموا وتراخوا ، ورفضوا أن يُقَدِّمُوا فى سبيل الأرض المقدسة أىَّ جهد عسكرى ، وبرغم النصائح من بعضهم ، وإلحاح موسى – عليه السلام – عليهم بالتحرك والتضحية فى سبيل الهدف المنشود . فلم يتحركوا أبداً بل سخروا ، وطلبوا إلى موسى – عليه السلام – أن يقاتل مع ربه سبحانه ، دون أى إسهام منهم ؛ فقعودهم فى الصحراء أغراباً متعة لهم ، وأفضل من أن ينعموا بالأرض المقدسة التى تسبقها تضحية ، وجهاد .

هكذا كان الحال المؤسف منذ فجر التاريخ – توطئة وتمهيداً لقوم آخرين ، هم الذين سيلبون النداء عند أول صيحة ؛ إنهم المسلمون الذين يؤمنون بمحمد وموسى ، وكل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ولا يفرقون بين أحد من رسله .

وحكم الله سبحانه على القاعدين عن الجهاد من بنى إسرائيل أن يتيهوا فى أرض سيناء أربعين سنة جزاء قعودهم ، وجبنهم ، وعدم تلبيتهم داعى الجهاد فى سبيل الله تعالى .

**وأخذ هذا الموقف جملة مراحل :**

**١ – مرحلة التهيئة والتذكير بالنعم :**

قال الله تعالى :

**﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم ؛ إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ﴾**(٤٠) .

قبل أن يدعو النبى موسى – عليه السلام – بنى إسرائيل إلى التحرك نحو الأرض المقدسة ، حاول أن يهيىء نفوسهم بالتركيز على الآتى :

– إنه يريد منهم أن يسترجعوا النعم التى ساقها الله سبحانه إليهم بشكل عام ، من أول نجاتهم من فرعون الطاغية حتى الآن كما مرت سابقاً .

---

(٤٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٠ .

– ثم هو يقدم لخطابه إياهم بما يفيد هذا التودد ، والعطف ، بهذا النداء « يا قوم » بالميم المكسور ، دلالة على ياء المتكلم المحذوفة ، أى فأنتم قومى وعشيرتى ؛ أرسلت لأنقذكم من ضلال الوثنية من جهة ، ومن ظلم فرعون من جهة أخرى .

– ثم هو يضرب الأمثلة على تلك النعم المسداة إليهم ؛ ليلفت أنظارهم إليها ، والأمثلة التى ضربها اختارها مقابلة لما كانوا عليه قبلها . كما سيأتى .

– فقد جعل فيهم أنبياء رسل الهداية والنور ، والأنبياء الذين سجلهم القرآن الكريم حتى عصر هذا الموقف ، يعقوب ، يوسف ، موسى وهارون – عليهم السلام .

– وجعلهم ملوكا ، واختلاف التعبير هنا عن سابقه ﴿ **جعل فيكم أنبياء** ﴾ بحذف الجار والمجرور يدل على أنهم جميعاً صاروا ملوكا ، وتعميم هذه الصفة عليهم جميعاً يخرجها عن المركز السياسى المعروف ، ويضعها فى حيز الاستغناء ، وحضور ضروريات الحياة المادية والاجتماعية ، والحرية الشخصية التى فقدت منهم تحت نير فرعون .

– وقد آتاهم الله سبحانه الطيب من المطعم ، والمشرب ، والظل ، مالم يؤت أحداً من العالمين فى زمانهم كما سبق .

والشخص الذى يدرك قيمة النعمة ويحسها أكثر من غيره . من كان فاقداً لها ثم أعطيها ، أما من ولد فى بحبوحة من الحياة فأمر النعمة فى نظره عادى . وبنو إسرائيل تترى عليهم النعم من كل صوب ، بعد أن كانوا فاقدين لها .

وموقف موسى – عليه السلام – مثل كريم فى الدعوة إلى الله سبحانه لمن يأتى بعده من الدعاة والمصلحين ، حين يدرسون ظروف المدعوين ، ويختارون لهم الأمثلة المناسبة التى تهيئهم نفسيا لتلقى الدعوة ، وقبولها .

### ٢ – مرحلة الدعوة إلى التحرك :

قال الله تعالى :

﴿ **يا قوم ، ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾(٤١) .

بعد المقدمة السابقة فى المرحلة الأولى ، والتى ذكرت فيها النعم السابقة ، والمسلَّمة من الطرفين جاء عرض الموضوع الذى من أجله كان الموقف ، وتتضمن هذه المرحلة عرض الآتى :

– التحرك إلى تحرير الأرض المقدسة ، أرض فلسطين .

– وهذا التحرير سيوفر لبنى إسرائيل الإقامة بها ، والعيش فى ظلها « ادخلوا » .

– مشاركة النبى القائد لهم فى هذا ، كما يشير إليه النداء « يا قوم » .

– إن النصر على الخصم محقق ، ومؤكد ؛ لأن هذه الأرض كتبت للمؤمنين من بنى إسرائيل ، الذين لا يحرفون ولا يبدلون . ﴿ **التى كتب الله لكم** ﴾ .

– التحذير من المخالفة والردة ، فالمخالفة ستؤدى إلى خسارة كبرى ، ولا يتحقق للمخالفين ما وعد به الله سبحانه للمؤمنين .

وتعليق الخسارة على المخالفة ، والتى وقعت بالفعل بعد ذلك يفسر المفهوم من قوله تعالى :

﴿ **التى كتب الله لكم** ﴾ أى أن هذه الأرض لا تكون لمخالف عاص ، وأن من يستحق دخولها هو الذى يؤمن بالله سبحانه ، وليست خصوصية لجنس أى جنس ، فقد تلقى بنو إسرائيل عبارة الأمر « ادخلوا .... » وتلقوا بعدها أيضاً عبارة النهى « ولا ترتدوا ... » وفى ذلك من الدلالة ما فيه .

---

(٤١) سورة المائدة ، الآية رقم ٢١ .

### ٣ - رفض التحرك ، والاعتذار بأسباب واهية :

قال الله تعالى :

**﴿ قالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾(٤٢) .**

هالت بنى إسرائيل تلك الدعوة على الرغم من وجاهتها وفائدتها لهم شخصيا ؛ إنهم فزعوا وأصابهم ذعر ، وخوف . لماذا ؟ ؛ لأن فيها قوماً جبارين ، ووصف القوم بالجبارين على لسانهم يشير - قبل ذكر العبارة التالية - إلى أن القوم معتذرون عن التلبية للدعوة .

وتصور قوماً تقول لهم : تقدموا إلى المعركة ، فتكون العبارة التى يردوا بها : إن فيها قوماً جبارين ، أى : لا طاقة لنا بمجابهتهم ، ومواجهتهم فى معركة ، ولا نرضى لأنفسنا الموت على هذه الحال ، وأولى بنا أن نظل حيث نحن الآن ، مهما كان أمر الإقامة .

- ثم يكون الرد الصريح « وإنا لن ندخلها » حكموا على أنفسهم ابتداءً بأنهم لن يدخلوها ، وفرق كبير بين « لن ندخلها » ولن نستطيع دخولها ، فالعبارة الأولى تتضمن الرفض المباشر للدخول . ثم هم علقوا دخولها على خروج الجبارين منها ، وخروج الجبار من مكان أقام فيه دون قوة تجبره على ذلك أمر مخالف للعقل والعرف . ثم هم كرروا قضية الرفض بشكل معكوس . **﴿ فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾** .

والموقف هنا فيه تقاعس ظاهر ، وتخاذل مؤسف ، وقعود عن تحرير أرض باركها الله سبحانه ، وسبق للقوم أن عاشوا فيها مع الجد الأكبر يعقوب - عليه السلام - ويدل على مرض نفسى ، وطبع غير سوى ، ومبدأ بعيد عن المنطق مضمونه : أن نصرى على غيرى ، لابد أن يعتمد على قوة خارجة عنى ، كما نراه الآن ونشاهده .

---

(٤٢) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٢ .

٤ - مرحلة الناصحين :

قال الله تعالى :

﴿ قال رجلان من الذين يخافون ، أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾(٤٣) .

ولم يعدم القوم من طائفة خيرة طيبة ، كما سبق أيضاً فى قصة أهل القرية ، ويجوز أن يكونوا هم النقباء الاثنى عشر كما قال تعالى :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله : إنى معكم ؛ لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ... ﴾ (٤٤) .

فماذا كان من أمر هذين الرجلين وتلك الطائفة المؤمنة ؟

- كانت طائفة تخاف الله سبحانه ، وتخاف مخالفة أمره ، وأمر نبيه ، إذن فهذه الطائفة تنكر على القوم تخاذلهم وتقاعسهم ، وترى ما لايرون .

- ولكن هذه الطائفة لم تقم كلها بالنصح ، فالذى قام به اثنان منها فقط ، وقد بلغا درجة أكبر فى الخير ، وتفوقا عليهم فى تلك المحنة وذلك الاختبار ، فقد أنعم الله سبحانه عليهما بالرشد فى العقل ، والسلامة فى السلوك ، والقوة فى الشخصية .

- وأن نعمة الله سبحانه عليهما من جهتين : جهة المصدر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وجهة النوعية ، وهى كما ترى فتوى عسكرية ، برسم خطة هجوم سهلة .

- إن الرجلين أرادا أن يكسرا حدة الخوف من مجابهة القوم الجبارين ؛ بالتحايل عليهم ، وإحكام الخطة .

---

(٤٣) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٣ . (٤٤) سورة المائدة ، الآية رقم ١٢ .

– مؤدى هذه الخطة العسكرية الهجومية : الصبر حتى دخول الباب ، ودخول هذا الباب سجدا أى تخفيا من عرض الجسم بكامله أمام الخصم كما يحدث من دورية استكشاف واستطلاع ، بالإضافة إلى معنى الشكر لله سبحانه ، قال تعالى :

**﴿ وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً ﴾**(٤٥) .

ودخول الباب يعنى فتح المدينة ، وأن هذا الصبر المطلوب للدخول بحاجة إلى توكل على الله سبحانه ، وأن الإيمان الصحيح يستلزم هذا التوكل والصبر ، وإن انتفى التوكل انتفى الإيمان .

– كما أن الخطة لخصت سريعة ؛ لتوحى بسهولتها **﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾** ثم جاء بعدها ما يشير إلى النتيجة **﴿ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾** وتلخيص الخطة فيه رَدٌّ مباشر على الرفض السابق « لن ندخلها » ؛ لتكون أقرب إلى الاستساغة والقبول من الرافضين .

ذانكم رجلان أنعم الله سبحانه عليهما ، يضربان مثلا حيا لمن يريد أن يزن نفسه بميزان الإيمان فيضع نفسه حيث أمر الله سبحانه ، ناصحاً متوكلا ، مستعدا للأحداث العسكرية المناسبة ولظروف الوقت والقوم .

هذا وقد أعطت آية النقباء معانى إضافية من بذل لأسباب تحقق المعية الإلٓهية فى الدنيا ، والفوز بالجنة فى الآخرة .

**٥ – إصرار ، وتأكيد على القعود :**

قال الله تعالى :

**﴿ قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً مادامو فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ؛ إنا هاهنا قاعدون ﴾**(٤٦) .

---

(٤٥) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٤ .

(٤٦) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٤ .

وكأن النصيحة لم تذكر بالكلية ، ولم يسمعوها من شخصين اثنين .

فالنداء « يا موسى » يدل على تحولهم عن الرجلين اللذين قدما النصيحة السابقة . وقد يوحي بما هو أكثر غرابة . أن هذين الرجلين - في زعمهم - مدفوعان من موسى - عليه السلام - عليهم ، أو بالتعبير الحديث من صنائعه وعملائه ، وتدل على ذلك بقية الآية . والرفض الجديد جاء فيه لفظ « أبداً » ليدل على الإصرار الكبير برغم الدعوة الأولى ، وبرغم النصحية بعد ذلك ، وبرغم التهيئة فى مقدمة الآيات .

وكانت الخاتمة المفجعة التى ظلت عاراً وسُبَّةً لهم إلى الأبد ، حين أعلنوا صراحة ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ، وبعد هذا الإعلان لم يُحِرْ موسى - عليه السلام - جواباً ؛ لأن المخالفة للأمر العسكرى مشحونة بالخوف ، والذعر ، من القتال ، حيث صرَّحوا بلفظ القتال « فقاتلا » وطالما وصلت بهم الحال المعنوية إلى هذا الحد ، فلا يجدى معهم نقاش ، حتى ولو تحركوا إلى قتال فستكون الهزيمة من نصيبهم ؛ لأن الإيمان يتنافى وهذا النوع من الخوف(٤٧) .

---

(٤٧) قال ابن شهاب : سمعت ابن مسعود - رضى الله عنه - يقول : شهدت من المقداد بن الأسود - رضى الله عنه - مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبى - ﷺ - وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبى - ﷺ - أشرق وجهه ، وسره . يعنى قوله . ( صحيح البخارى ، قصة غزوة بدر ، ج ٤ ص ٩٣ ، وأورده ابن كثير أيضاً فى تفسير سورة المائدة ج ٦ ص ٦٤ ) .

وقد وردت رواية أخرى ، عن طارق ، عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال المقداد يوم بدر : يا رسول الله ، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ولكن امض ونحن معك ، فكأنه سرى عن رسول الله - ﷺ - . ( صحيح البخارى ، تفسير سورة المائدة ج ٦ ص ٦٤ ) .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - شاور حين بلغه إقبال أبى =

= سفيان ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة ، فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغماد لفعلنا ، قال : فندب رسول الله - ﷺ - الناس ، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ... ( أخرجه مسلم - مختصر مسلم ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ باب فى غزوة بدر ، كتاب الهجرة والمغازى ) . لأخضناها : أى لو أمرتنا بإدخال خيولنا فى البحر لفعلنا . برك الغماد بفتح الباء عند الأكثرين وكسرها بعضهم : هو موضع فى أقاصى أرض هجر ، ذكره فى « معجم البلدان » عن عياض « محقق المختصر . وبهامش السيرة النبوية لابن هشام : برك الغماد موضع ناحية اليمن .. ، « وإيانا تريد » يعنى الأنصار الذين بايعوا النبى - ﷺ - على أن يحموه حين يهاجر إليهم ، والموقف فى بدر هجوم على قريش ، وليس دفاعاً عن المدينة ، أو حماية لأهلها .

وبين الموقفين اختلاف :

ففى غزوة بدر طلب النبى - ﷺ - المشورة إلى أصحابه ، وفى بنى إسرائيل كان الأمر صريحاً لهم . وفى بدر لم يحدد النبى الأنصار تحديداً صريحاً باللفظ ولكنهم فهموا ذلك فهماً وكان فهمهم صحيحاً ..

وقبل بدر كانت بيعة من شروطها أن الأنصار يحمون النبى - ﷺ - حين يقدم عليهم ، ولا يدخل فى الحماية هذه استرداد أموال المهاجرين من قافلة قريش ، فلهم إذن عذرهم ، أما بنو إسرائيل فلم يسبق مايجعل لهم مثل هذا العذر ..

وبالرغم من ذلك فقد رضى الأنصار بعد المشورة بالقتال ، أما بنو إسرائيل فقد رفضوه بإصرار .

وأدرك الأنصار قيمة العبرة والعظة من التاريخ ، وعرضوا التضحية بكل مالديهم من قوة وفى أى مجال يؤمرون به ، أما بنو إسرائيل فقد سخروا بقولهم ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا** ﴾ .

فالفارق كبير جدا بين الأنصار - رضى الله عنهم - وبنى إسرائيل .

**٦ - ما على الرسول إلا البلاغ :**

قال الله تعالى :

**﴿ قال : رب ، إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾(٤٨) .**

تضرع موسى - عليه السلام - إلى ربه سبحانه ، فقد بذل كل ما فى وسعه مع هؤلاء القوم فلم يستجيبوا له ، وأنه أصبح لا يملك فى الامتثال إلا نفسه ، وأخاه هارون - عليهما السلام ، وأنه طلب إلى ربه سبحانه أن يعزله عن هؤلاء القوم المخالفين ؛ لأنهم لا يستحقون حتى الإقامة بينهم . ولا تطلب العزلة إلا بعد أن تبذل الوسائل والأسباب التى فى مقدور البشر ، فإذا لم يجد النصح كانت الهجرة والعزلة ، كما طلب موسى - عليه السلام - وكما صنع النبى الخاتم - ﷺ - حين ترك مكة مهاجراً إلى المدينة .

**٧ - ختام الموقف ، واستحقاق العقوبة :**

بعد المقدمة فى أول الآيات ، وبعد عرض القضية ، ومناقشتها ، ودخول عنصر الناصحين فيها ، وإصرار القوم على قعودهم ، جاءت الخاتمة التى تناسب قوماً هذه حالهم . قال الله تعالى :

**﴿ قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾(٤٩) .**

ذلك حكم المحكمة الإلٓهية :

- أن الأرض المقدسة التى وعدتهم بها حرام عليهم .

- وأن هذا التحريم بسبب عملهم ، ولذا جاءت الفاء فى قوله :« فإنها » .

---

(٤٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٥ .

(٤٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٦ .

- وأن هذا التحريم مدته أربعون سنة[٥٠]

- وأنهم فى هذه المدة فى حالة ضياع ، وضلال ، وتيه ، حيث لم يرضوا بالتضحية فى سبيل الأرض المقدسة .

- وأنهم بذلك سجلوا فى قائمة الفاسقين .

وسكتت الآيات عما سيحدث بعد أربعين سنة ، ليدل على أن القوم إذا حدث فيهم تغير إلى الإيمان بالله سبحانه ، والتزام طاعته ، وطاعة رسوله فى شخصية الأنبياء جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - فهم بتلك الصفة الإيمانية سيدخلون فلسطين ، ولا يدخلونها لمجرد الجنسية الإسرائيلية ، التى ليست فى ميزان الله سبحانه أى شيء ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ أيا كان جنسه أو لونه ، أو مركزه ، والله سبحانه أعلم بالصواب .

**متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟**

لم يجب بنو إسرائيل الدعوة التى دعاهم إليها كليم الله سبحانه فى التحرك إلى الأرض المقدسة ، وحكم عليهم بأن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة كما سبق .. وجمد هذا التحرك إلى حين .

وعاجل الموت نبى الله سبحانه قبل أن يدخل الأرض المقدسة ، والتى كان يريد من قومه أن يتحركوا معه فنكصوا وقعدوا .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : أرسل ملك الموت إلى موسى - عليهما السلام - فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه ، فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ، قال : ( أى بعد أن حكى له ملك الموت هذا الكلام ) أى رب ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، قال : فسأل الله

---

(٥٠) إما أن يكون تعلق أربعين سنة بكلمة « محرمة » السابقة ، أو « يتيهون » اللاحقة ، وكلاهما جائز حصوله فى وقت حصول الآخر .

أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال أبو هريرة - رضى الله عنه : فقال رسول الله - ﷺ - :

**« لو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر »**(٥١) .

والشاهد هنا قوله : ( فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ) يعنى أنه خارجها ، وأنه لم يتحقق بعد فتح فلسطين الأرض المقدسة فى حياته ، فما كان منه - عليه السلام - إلا أن يدعو ربه سبحانه بأن يقربه منها ، وأن يكون هذا القرب بمسافة قصيرة ، كما أن الله سبحانه أخبر نبيه الخاتم - ﷺ - بمكان قبره ، ولو كان هناك لأخبر الناس عن هذا المكان إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر .

وبقى بنو إسرائيل يتجرعون كأس التيه ، والحرمان ، من عدم دخولهم الأرض المقدسة تلك المدة الطويلة المخبر عنها .

وتذكر بعض الروايات أن يوشع بن نون هو الذى قاد حملة الفتح بعد أربعين سنة ، وقد كان نبيا . فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

**« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لانبى بعدى ، وسيكون خلفاء كثيرون »** قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : **« فُوا بِبَيْعَةِ الأول فالأول ؛ أعطوهم حقهم ؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم »**(٥٢) .

وفى شأن دخول الأرض المقدسة من حيث الخطة ، والدافع ، ومدى

---

(٥١) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى - عليه السلام - رقم ١٥٣٣ ص ٦٢٥ ، وصحيح البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى عليه السلام - ج ٤ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٥٢) أخرجه الشيخان ، المرجع السابق ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢٠٨ ص ٤٨٣ .

استجابة القوم ، وردت هذه النصوص . قال الله تعالى .

**﴿ وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، وادخلوا الباب سجَّداً ، وقولوا : حطة ، نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم : فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾** (٥٣) .

وقال أيضاً :

**﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً ، وقلنا لهم : لا تعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾** (٥٤) .

وقـــال :

**﴿ وإذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا : حطة ، وادخلوا الباب سجداً ، نغفر لكم خطيئاتكم . سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾**(٥٥) .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

**« قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجّداً ، وقولوا : حطة ، فبدلوا ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة فى شعرة »** (٥٦) .

---

(٥٣) سورة البقرة ، الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
(٥٤) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٤ .
(٥٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦١ .
(٥٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب التفسير ، رقم ١٨٩٣ ص ٨٣٩ ، وصحيح البخارى كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٠ ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه غيرهم أيضاً .

**الخطة فى ضوء النصوص السابقة على هذا النحو :**

١ – التحرك نحو الأرض المقدسة .

٢ – التوجه إلى أبواب المدينة للتمكن منها .

٣ – قصد الأبواب الصغيرة للنفاذ منها سجوداً وركوعاً .

٤ – القتال حتى الغلبة والنصر .

٥ – الدعاء وطلب حط الذنوب عنهم ، وبخاصة ذنب النكوص عن الفتح من أربعين سنة .

٦ – الانتشار فى القرية ، والإقامة بها سكنا ، ومعيشة .

وترى هذه الخطة المطلوب تنفيذها فى هذه العبارات :

**﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ ، ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ ، ﴿ وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة ﴾ .**

**﴿ ادخلوا الباب سجدا ﴾**

**﴿ اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شِئتم ، وقولوا : حطة ، وادخلوا الباب سجَّدا ﴾**

**﴿ ادخلوا الباب سجدا ، وقولوا : حطة ﴾ .**

**الدافع لدخول الأرض المقدسة :**

١ – النجاة من تدمير جبل الطور لهم ، وذلك حين رفع فوقهم ؛ تهديداً لهم من مغبة الإعراض ثانية عن دخول الأرض المقدسة .

٢ – الوفاء بالميثاق الغليظ مع الله سبحانه وتعالى .

٣ – تحصيل حياة رغدة ، حين تكون الإقامة والسكنى .

٤ – تحصيل كل متطلبات الإنسان فى حياته من أنواع الأكل والشرب ،

بما يتوافق مع ما طلبوه سابقاً من تغيير المنّ ، والسلوى إلى قثاء المدينة وعدسها وبصلها ...

٦ - التنافس فى إحسان العمل ؛ فمن يحسن سيزيد ثواباً على ثواب .

وفى هذا الدافع على اختلاف جوانبه وردت هذه العبارات :

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وردت قبل الأمر بالدخول .

﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا ﴾ وردت بعد الأمر بالدخول .

﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ والعبارتان تسهمان فى الخطة والدافع .

﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد المحسنين ﴾ .

**مدى الاستجابة والتنفيذ من القوم :**

١ - تركوا لأنفسهم حرية التبديل والتغيير فى الخطة ، على الرغم من وضوحها ، وصراحتها .

٢ - كان تبديلهم فى القول : أن قالوا « حبة فى شعرة » أى حبة فى شعرة ، لو فيها شعرة ؛ هزءًا وسخرية . وقد أمروا أن يقولوا : « حِطَّة » أى نرجو منك يا ربنا ، حَطَّ الذنوب .

٣ - كان تبديلهم فى الحركة ، أن زحفوا على أستاههم أى أدبارهم ؛ ليدخلوا الباب الصغير ، وقد أمروا بالدخول سجدا ، وبرغم تأكيد هذا الأمر فى كل النصوص ..

وفى هذا الشأن وردت هذه العبارات :

﴿ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ﴾.

﴿ فبدّلوا . فدخلوا على أستاههم ، وقالوا : حبة فى شعرة ﴾ .

**جـزاء العاصين :**

هذا ويفهم من النصوص أيضاً أن هذا التبديل لم يكن منهم جميعاً ، ولكن كان من بعضهم .

**﴿ الذين ظلموا منهم ﴾ .**

وأن الذين بدلوا وحرفوا كانوا فاسقين بالخروج عن الطاعة ، وظالمين بتجاوزهم الحد **﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ و ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾** .

وأنهم استحقوا عقاب الله سبحانه ، وهو رجز وعذاب من السماء مثل الطاعون ؛ فقد سأل سعد بن أبي وقاص أسامة بن زيد – رضى الله عنهم – ماذا سمعت من رسول الله – ﷺ – فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله – ﷺ – :

**« الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ... »**(٥٧) .

---

(٥٧) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٢١٣ كما رواه مسلم والنسائى من طرق مختلفة ( وقد مر الحديث بتمامه ) .

**دروس وعبر :**

– تختار الأمة من يمثلها ، وينطق باسمها من الأشخاص الأكفاء ، فى صورة مجلس يتفاوض أعضاء هذا المجلس فيما بينهم بما يوفر المصلحة العامة للأمة ، وسندنا فى ذلك هنا اختيار سبعين عند بنى إسرائيل للميقات ، واختيار اثنى عشر نقيباً فى بيعة العقبة .

– من كمال الإيمان عدم التعنت فى الطلب ، والاشتراط على الله سبحانه ، كما اشترط بنو إسرائيل .

– إن الهلاك العام يكون بسبب ارتكاب المعصية من جهة ، والسكوت وعدم النصح من جهة أخرى ؛ فالسكوت على المنكر معصية أيضاً .

– إن رحمة الله سبحانه تخص من عباده :

من اتقى الله سبحانه ، وخاف عقابه ، فاجتنب محارمه فى الدنيا .

من عامل الناس بالحسنى ، فَعَال فقيرهم ، وسدَّ عَوَزَ المحتاج منهم ، وأدى زكاة ماله ، ولم يلوثه بأى كسب حرام ينتقص به حقوق الآخرين .

– إن اتباع النبى الخاتم محمد – ﷺ – لازم وضرورى لنجاة أهل الكتاب من النار ، كما أن الإيمان بالرسل السابقين جزء من الإيمان .

– ارتبط إيمان بنى إسرائيل بالعنف : حين يخافون العقوبة والإهلاك بالدنيا يكون الإيمان ؛ فلم يأخذوا التوراة بجد إلا حين رفع جبل الطور فوقهم . وهذا المسلك ليس سوياً ، فالتصديق والإذعان ، والتسليم المطلق لأخبار الغيب من ديدن المسلم ، وموقف الصديق – رضى الله عنه – من الإسراء والمعراج خير مثل على ذلك .

– الذين يقاومون المنكر يجابهون فى دعوتهم :

من يرتكب المعصية ، من ينكر باللسان فقط ثم يشارك العاصين ويعايشهم ، من لم يفهموا الغرض من الإنكار وهو الإعذار إلى الله سبحانه ، والأمل فى هداية العاصين . من لم يعرفوا الأسلوب الصحيح فى الإنكار بالتدرج .

– التحايل على الشرع حرام ؛ فالله سبحانه أدرى بالقلوب ؛ فتحايل أهل القرية لم ينجهم من العقوبة .

– إن إنكار المنكر يجب أن يتسم بالوضوح ، والصراحة ، ومراعاة حال العاصين المفسدين ، وأن تكون الغاية هى إرضاء الله سبحانه ، كما يجب أن تكون المفاصلة الشعورية ، والتمايز عن المنحرفين – برغم دعوتهم – فلا مؤاكلة ، ولا مشاربة ، ولا تزاور ، إلا فى حدود المصلحة للدعوة من التعرف على الآخرين ، وأجدى السبل فى دعوتهم .

– على المسلمين أن يسعوا لاختيار الأرض التى تقوم عليها دولتهم والتى تحكم بشرع الله سبحانه ؛ فعناصر الدولة تتكون من :

آ – الأرض التى تقوم عليها .

ب – الدستور وهو هنا الكتاب المنزل ، والسنة المبينة ، وما يلحق من اجتهادات فى ضوئهما .

جـ – القائد وهو هنا النبى المرسل ، ومن يخلفه ..

د – الشعب وهو أتباع النبى أو خليفته .

ففقدان عنصر من العناصر الأربعة يخل بقيام الدولة ، ولنا المثل فى طلب كليم الله سبحانه دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة . كذلك لم تقم دولة الإسلام إلا حين توفر لها الأرض بالمدينة المنورة بعد الهجرة .

– لا يتحقق النصر بمجرد وجود قائد ، ولكن لابد من وجود أمة على استعداد أن تقدم التضحيات فى سبيل إقامة الدولة ، ولذا تأخر قيام الدولة فى الأرض المقدسة لنكوص بنى إسرائيل – على الرغم من وجود موسى – عليه السلام ، وقامت الدولة المسلمة حين لبى أبناؤها نداء الهجرة إلى المدينة المنورة .

– الداعية المسلم يختار فى خطابه للمدعوين :

مقدمات مسلمة ، يتدرج بها إلى الموضوع المطلوب ، ويذكر من الأدلة على صحة دعواه ؛ وذلك فى ضوء طلب موسى – عليه السلام – إلى

قومه ، دخول الأرض المقدسة .

– والداعية المسلم أيضاً ، يراوح فى عرض المكاسب حين التلبية ، ووخيم العواقب حين التولى والإعراض ؛ ولا يركز على إحداها دون الأخرى .

– استفادة الأنصار من تجارب السابقين حين التعرض لقريش فى بدر ، وشأن المسلم دائماً أن يستلهم العبر والعظات من الأحداث السابقة .

– القائد المسلم ، يشرح خطة الهجوم إذا ما أمن عدم وصولها إلى الخصم ؛ فالناصحون من قوم موسى – عليه السلام – وضعوا للقوم أساس الخطة ، أما حين فتح مكة – مثلاً – كان إخفاء أمر الهجوم مهما جدّاً ، والسرعة فى مسابقة من حاول إفشاء أمر الهجوم ، والحصول على رسالته قبل وصولها إلى الخصم .

– إن الجهاد فى سبيل الله مناط الاستقرار والاطمئنان فى الأرض ، لا كما يزعم الغافلون الساذجون ؛ فالجهاد فى سبيل الأرض المقدسة سبيل إلى استقرار الفاتحين ، ونكوصهم عن الجهاد جعلهم فى تيه وضلال أربعين سنة .

– حب الأماكن المقدسة ، لتكون مركز إشعاع إيمانى لجنبات الأرض – لا لتكون مكان انزواء وقعود عن الجهاد فى سبيل الله تعالى .

– يتحقق الفتح للبلد إذا ماتوفر : الدافع للفتح ، الخطة للفتح ، حماسة الجنود للتنفيذ ، التعرف على السلبيات ، ومناقشتها إذا ما فترت الحماسة .

– من دواعى الإيمان السوى تلبية أمر الله سبحانه فى عزائمه وفى رخصه ، لا التعنت والتحايل على شرع الله سبحانه .

## إلياس – عليه السلام .

- أصــله .
- قومــه .
- دعوتـه .
- أثر دعوته فى قومه .
- عاقبة المكذبين .
- جزاء المؤمنـين .

## أصـــله :

ورد اسمه – عليه السلام – ضمن أنبياء بنى إسرائيل ، مما يرجح أنه منهم ، قال الله تعالى :

**﴿ وزكريا ويحيى وعيسى ، وإلياس . كل من الصالحين ﴾**(١) .

وورد اسمه مرتين مع سرد قصته – بعد ذكر موسى وهارون – عليهم السلام – يرجح أيضاً بأنه تال لهما ، وقد يكون من نسل أحدهما – والله أعلم بالصواب .

قال الله تعالى بعد ذكر موسى وهارون – عليهما السلام . -

**﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ؛ إذ قال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ، ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه ، فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ؛ إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾** (٢) .

والمتأمل فى الآيات السابقة يتعرف على الأحداث التى عاشها إلياس – عليه السلام .

## قومـــه :

إن قوم إلياس – عليه السلام – ككل الأقوام السابقين – ارتدوا عن الصراط المستقيم الذى ورثوه عن المؤمنين من بنى إسرائيل ، وعبدوا من الله سبحانه إلهاً لا يضر ، ولا ينفع . وتظل البشرية تنهض ، وتكبو فى مسيرتها ، فإذا ما كان نهوض فسببه الأصيل توحيد الله سبحانه ، وتطبيق منهجه فى الأرض ، وإذا ما كان ارتكاس وضلال ؛ فلأن القوم انحرفوا عن توحيد خالقهم وربهم

---

(١) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٥ .

(٢) سورة الصافات ، الآيات من رقم ١٢٣ إلى رقم ١٣٢ .

سبحانه ، ولذا كانت القضية الأولى فى دعوة كل رسول ، وكل مصلح ، تصفية العقيدة مما أصابها من ضعف ، أو تبديل ، أو تغيير .

واتجه القوم إلى صنم جديد ، وعكفوا عليه ، وعلقوا عليه آمالهم ، وأطلقوا عليه اسماً هو « بعل » لمزيد اهتمامهم ، وعبوديتهم له .

**دعـوته :**

وجه إلياس – عليه السلام – دعوته إلى قومه ، معتمداً على أمرين :

١ – توجيه القوم إلى الطريق المستقيم .

٢ – تحطيم فكرة الوثنية التى شاعت بينهم .

وفى الأمر الأول حضهم على تقوى الله سبحانه ، والخوف منه « ألا تتقون » وبين لهم أنه سبحانه هو الذى خلقهم فأحسن خلقهم ، الذى رباهم ، وربى آباءهم ، وعليهم أن يعبدوه .

وفى الأمر الثانى : عقد مقارنة بين عقيدتين : عقيدة الشرك ، وعقيدة التوحيد ، فالإله المزعوم « بعل » لم يخلقهم ، والله سبحانه هو الذى خلقهم وأحسن خلقهم ، وساق العبارة « أتدعون بعلاً » بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، وقصر العبارة لأنه لا يستحق من الذكر إلا الإنكار وكفى ، ثم هو يفسح التعبير نسبيا عن أحسن الخالقين .

**أثر الدعوة فى قومه :**

انقسم القوم إلى فريقين اثنين :

١ – أكثرية كذبت ، وظلت تعبد « بعلاً » وأصمت الآذان وألغت العقول ، ولم تفد معها المقارنة بين باطل وحق .

٢ – قلة استجابت للدعوة ، وهجرت الشرك ، وأخلصهم الله سبحانه إليه ، فوحدته وعبدته .

**عقوبة المكذبين :**

ذكرت الآيات أن هؤلاء المكذبين سيحضرون إلى العذاب يوم الحساب يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

**جــزاء المؤمنين :**

وبالمقابل فجزاء المؤمنين الذين آمنوا بإلياس – عليه السلام – هو ثوابه سبحانه فى الآخرة . كما أن المؤمنين اللاحقين سيذكرونه بالخير والسلام عليه ، وذلك جزاء من أحسن العمل وأتقنه مرضاة لله سبحانه ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾ .

وهذا توجيه من الله سبحانه إلى الجيل المسلم أن يزف تحيته وسلامه للرعيل الأول ، الذى جاهد فى سبيل الله سبحانه ؛ دعوة وسلوكا ، وإنكاراً للشرك ، وتطبيقا لحكم الله سبحانه ، فسلام الله عليهم أجمعين .

# داود - عليه السلام .

- بين طالوت وجالوت .

آ - التفكير والنظر .
ب - تعيين القائد .
ج - تحرك الجيش تحت إمرة القائد ، واختباره كفاءة الجنود .
د - التحام الجيشين ، وانتصار الفئة القليلة المؤمنة .

- داود - عليه السلام .

- أصله .

- قوته .

- أكله من عمل يده .

- صيامه وصلاته .

- كتابه .

- تسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وعمل الدروع ، والملك الكامل ، وفصل الخطاب .

- نبأ الخصم .

آ - مفاجأة مفزعة .
ب - موضوع القضية .
ج - الحكم فى القضية .
د - فى أعقاب القضية .

- دروس ، وعبر .

## بين طالوت ، وجالوت :

### آ – التفكير والنظر :

تعرفنا فيما سبق على رواية أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – أنه قال :

**« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء . كلما هلك نبى خلفه نبى ... »[1] .**

وبدأ التفكير فى تلك المعركة أن اتجه رؤساء القوم ووجهاؤهم إلى نبيهم الذى بينهم ، يطلبون إليه أن يعين لهم قائداً يقاتلون معه فى سبيل الله ، واستمع النبى إليهم ووقف على الرغبة والشرط ، والشخصية المتحدثة ، وعلى الرغم من ذلك أراد أن يستوثق ويتأكد بالسؤال :

إذا ما عينت القائد لكم ، وأمرتكم بالقتال فصار مفروضاً ولازما عليكم الامتثال ، فهل سيكون منكم أداء هذا الفرض ؟

ويأتى الجواب بإلحاح جديد على القتال فى سبيل الله سبحانه ، ولهم من المبررات للنهوض بهذا الفرض ما يكفى ، وحدث أن كان تعيين القائد ، والأمر بالقتال ، ولكن الذين لبُّوه قلة ، وكان المظنون أن يكونوا جميعا ، أو على الأقل الكثرة ، لا القلة . قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ؛ إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم**

---

(١) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٢٠٨ ، ورياض الصالحين رقم ٢٥٤ باب أمر الولاة بالرفق . وقد سبق فى موضوع : متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟ فصل : مواقف لبنى إسرائيل فى سيناء ، ص ٥٤٧ .

بالظالمين ﴾[٢] .

ونرى فى ضوء هذه الآية الكريمة :

– أن النبى فى القوم كان محل تقدير بشكل عام ، وبيده تصريف شئونهم .

– توجه الملأ والسادة من بنى إسرائيل – على الرغم من علو منزلتهم – إلى هذا النبى الكريم يؤكد تقديرهم له .

– عرض هؤلاء السادة على نبيهم أن يعين لهم قائداً ؛ يقاتلون تحت إمرته .

– وأن هذا القتال ليس لغرض دنيوى ، ولكن فى سبيل الله سبحانه ، ورفع كلمته ، ونشر دعوته .

وتلك الأمور تبين حرص القوم على القتال . فقد اختاروا من يتوجهون إليه بالسؤال ، وحددوا صفة من يقودهم ، وأظهروا رغبتهم وهدفهم من القتال .

– وأراد نبيهم أن يستوثق من امتثالهم لماطلبوا ، فأثارهم وحمسهم بأسلوب الاستفهام ، « هل عسيتم ... » .

– وبين لهم أن الأمر سيختلف بالنسبة للقتال ، فهو بعد الأمر يصير فرضاً لازماً ، دونه قبل الأمر . وهذا اختبار من القائد ، وتبصير لجنوده حتى يكونوا على علم كامل بالحكم الشرعى .

– دلل القوم على صدق نيتهم فى القتال بأمرين :

آ – أنهم قد أخرجوا من ديارهم التى أقاموا فيها ، وربما تكون هى المقصودة بالجهاد لتحريرها .

ب – وأنهم فصلوا عن أبنائهم ، وأهليهم ، ومن العقوق تركهم دون

---

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٤٦ .

تخليصهم من العدو ، وربما يكون هذا الأمر قد حدث لهم فى سابق تاريخهم .

– وبينت الآية المرحلة الأخيرة فى تلك الجولة حين فرض القتال عليهم :

آ – الكثرة تولت وأعرضت عما طلبته سابقاً ، وأعلنت الأسباب التى تدل على السلبية .

ب – وأن هذه الكثرة ظلمت نفسها ، وغيرها بالنكوص عن أداء الغرض وهو القتال .

جـ – وأن الله سبحانه عليم بهم فى كل أحوالهم السابقة واللاحقة .

د – وأن القلة التزمت بالعهد ، فوفت ، وبدأت تسير نحو المرحلة الثانية فى السير نحو المعركة ، وبعد أن تولت وانسحبت الكثرة الظالمة .

**تعيين القائـد :**

يقول الله تعالى :

**﴿ وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ، وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى ، وآل هارون تحمله الملائكة ؛ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾**(٣) .

والحوار هنا بين القلة الباقية ، بعد انسحاب الكثرة ، وبين النبى الكريم المبعوث فيهم ، ومنهم . وتتضمن هذا الحوار :

– تحديد القائد وتعيينه ، وهو طالوت .

– وأن هذا التحديد من الله سبحانه بوساطة نبيهم .

---

(٣) سورة البقرة ، الآيتان رقما ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وكان المظنون من القلة هذه أن تسلم بهذا التحديد ، وقد أُعْلن عليهم صراحة أنه من الله سبحانه ، ولكن الاعتراض عليه بدا واضحاً فى كلامهم ، فقد قاسوه على أسس أرضية لا تقبل أن تكون أسساً للتقويم من المؤمنين ؟

آ – فطالوت فى نظرهم دونهم فهم أحق منه بالقيادة .

ب – وهو ليس ذا مال وفير يضمن له احترامنا ، وتقديرنا .

إنها مقاييس جاهلية تعلن ممن ؟ من القلة التى لم تُعْرض ، وتنسحب فما بال الكثرة المنسحبة لو كانت مشتركة هنا ؟! . وكان لابد أن تبين الأسس السليمة لتقويم الإنسان .

آ – اصطفاء الله سبحانه للإنسان ، فالله سبحانه واسع العلم ؛ يختار للأمة من يصلحها ، ومن يكون على يديه الخير .

ب – وأن القائد تلزمه خبرة ، ودراسة بفنون القتال ، وقد زاده الله سبحانه فى هذا العلم .

جـ – كما أن القائد يكون له من الصفات الجسمية لتمكنه من ممارسة عمله ، ونشاطه ، بكفاءة وجدارة .

د – البرهنة الظاهرة على صلاح هذا القائد ، وكانت هنا فى صورة معجزة على يد طالوت ؛ فقد رأى القوم ملائكة بين السماء ، والأرض تحمل تابوتا تضعه بين يدى طالوت ، وبهذا التابوت بقية تتصل بآل موسى ، وآل هارون – عليهما السلام ، ونزول التابوت على هذا النحو ، وبهذا المحتوى سيبعث على السكينة ، والطمأنينة فى مواجهة العدو .

**جـ – تحرك الجيش تحت إمرة القائد ، واختباره كفاءة الجنود :**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ، قال : إن الله مبتليكم بنهر ؛ فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا : لا طاقة**

**لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله ؛ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾[٤] .**

فى الآية الأولى كان فرض القتال على بنى إسرائيل بناء على طلبهم ، فلما فرض تولى الكثير منهم ، وبقى على العهد قليل . وفى الآية الثانية عين لهذا القليل قائد ملك هو طالوت ، فكان من القليل اعتراض على تعيينه ، ورد عليهم نبيهم ببيان المقياس الصحيح فى اختيار القادة للمعارك ، وفى الآية الثالثة ظهرت معجزة تدعم اختيار طالوت فتمت موافقة ، وفى الرابعة ، والتى نحن بصددها الآن تعرض هذا العدد الموصوف بالقليل - بالنسبة لبنى إسرائيل - إلى نقص جديد . وسارت الأحداث الجديدة على هذا النحو :

بعد أن جمعت المعجزة شمل الجنود تحت إمرة طالوت تحرك بهم صوب ميدان المعركة ، وكان عليهم أن يعبروا نهراً وهم بالطريق إلى العدو ، ووضع طالوت جنوده أمام اختبار قبل التحامه بالعدو ؛ ليتأكد فى لحظاته الأخيرة من عزيمتهم ، وصدق نيتهم ، وهو فى هذا الاختبار يخبر عن الله سبحانه ، ولا يخبر عن الله سبحانه إلا نبى كريم ، وموضوع الاختبار بالنهر الذى سيمرون عليه ، عدم الشرب من النهر ، ومن يشرب منه فليس معدوداً حينئذ من أتباع طالوت وجنوده ، أما إذا كانت ضرورة فلتكن غرفة باليد فقط .

لم يذعن الجنود لأمر القائد - على الرغم من وضوح الأمر العسكرى - ماعدا القليل منهم .

ترى ماذا بقى منهم ممتثلا حتى الآن ؟

عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب [٥] - رضى الله عنه - قال : كنا ،

---

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٤٩ .

(٥) البراء بن عازب بن الحارث ، الأنصارى ، الأوسى ، يُكنى أبا عمارة ، وأبا عمرو ، استصغره النبى - ﷺ - هو وابن عمر - رضى الله عنهما - يوم بدر ، وأول مشاهده أحد ، وهو الذى افتتح الرىّ سنة أربع وعشرين ، وشهد معركة تستر مع أبى موسى ، وشهد مع على - رضى الله عنهم - الجمل ، وصفين ، وقتال الخوارج ، ونزل =

أصحاب محمد – ﷺ – نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت ، الذين جاوزوا معه . ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، بضعة عشر وثلثمائة (٦) .

هذا وقد كان داود – عليه السلام – من هؤلاء الذين جاوزوا ، ويظهر أنه لم يكلف الرسالة حتى الآن .

وفوجئت الفئة القليلة المؤمنة ، والتى جاوزت النهر مع طالوت ، أنهم أمام عدو كثير العدد ، والعدة . تحت إمرة قائدهم جالوت ، فأصابتهم هزة كادت أن تؤثر فيهم ، ولكن الله سبحانه ثبتهم ، وأعاد السكينة إلى قلوبهم .

**د – التحام الجيشين ، وانتصار الفئة القليلة المؤمنة :**

قال الله تعالى :

**﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده . قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين ﴾** (٧) .

على الرغم من المحاولات السلبية السابقة ، التى أنقصت من عدد المؤمنين ، ومحصَّتهم ، وميَّزتهم عن غيرهم من ضعاف النفوس ، فقد انتهت المعركة بسرعة ، وتحقق النصر إلى جانب الفئة القليلة المؤمنة التى لا تزيد على بضعة عشر وثلثمائة عدة أصحاب بدر .

---

= الكوفة وابتنى بها داراً ، ومات فى إمارة مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين . الإصابة ، لابن حجر ، ج ١ ص ١٤٢ رقم ٦١٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى باب عدة أصحاب بدر ج ٥ ص ٩٤ ، وقد روى عن ابن إسحاق من ثلاث طرق ...

(٧) سورة البقرة ، الآيات من رقم ٢٥٠ إلى رقم ٢٥٢ .

وتضمن هذا اللقاء على سرعته مواقف :

آ - موقف المواجهة ، ورؤية كل من الجيشين للآخر ، هذا بعدده القليل ، وذلك بكثرته عددا ، وعدة .

ب - موقف اللجوء إلى الله سبحانه ، وقد رأوا تفوق العدو عليهم ؛ وقد ظهر هذا اللجوء فى :

رجائهم أن يفرغ الله سبحانه عليهم من الصبر ما يكفل تحقيق النصر ، وجاءت كلمة « أفرغ » لتوحى بأنهم محتاجون لكثير من الصبر ، يشملهم من كل ناحية .

٢ - رجائهم أن يثبت الله سبحانه أقدامهم ، فلا يرتدون على أعقابهم أيا كانت الظروف .

٣ - رجائهم النصر على الكافرين .

جـ - موقف الانتصار الباهر على الكافرين ، وجاء التعبير مبدوءًا بالفاء « فهزموهم » ؛ ليدل على سرعة النصر بعد اللجوء إلى الله سبحانه .

د - موقف داود - عليه السلام - البارز من بين الجنود ؛ لأنه هو الذى تصدى لجالوت ، واستطاع أن يقتله ، وكان هذا سبيلا إلى :

- أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الملك ، وآتاه الحكمة ، وعلمه مما يشاء وكان ختام هذا اللقاء ببيان أمرين :

**الأمر الأول** : أن الجهاد فى الإسلام ، لإزالة الفساد من الأرض ؛ من طغيان ظالم ، وكبت للحريات ، وانتقاص الناس حقوقهم . وأنه بهذه الصفة يقرر العدل فى الحكم ، وفى كل أمور الحياة .

**الأمر الثانى** : أن هذه الدروس السابقة فى التاريخ ، لا تذكر دون هدف وغاية ، إنما هى رصيد مقدم لخاتم الأنبياء محمد - ﷺ - ليكون زاداً له فى مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه . ومقدم أيضاً إلى دعاة الأمة المسلمة أيا كانوا ؟ ومتى عاشوا ؟

### داود – عليه السـلام :

#### أصـله :

قال الله تعالى فى أول العرض لأحداث المعركة السابقة :

﴿ **ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى** ﴾ (٨) .

وقال أيضاً فى نهاية هذا العرض :

﴿ **وقتل داود جالوت** ﴾ (٩) .

وهذا يدل صراحة على أن داود – عليه السلام – كان من بنى إسرائيل ، وأنبيائهم .

#### قوتـه :

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ (١٠) .

والأيد : القوة ، كقوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون** ﴾(١١) أى بنيناها بقوة ، وإذا ما أطلقت بالنسبة للإنسان أريد بها القوة الجسمية ، كما ورد فى قصة موسى – عليه السلام – قوله تعالى على لسان الفتاة لأبيها :

﴿ **يأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ (١٢) ووجه الاستشهاد أن الله سبحانه ذكر لموسى – عليه السلام – صفتين : الأولى :

---

(٨) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٤٦ .
(٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥١ .
(١٠) سورةص ، الآية رقم ١٧ .
(١١) سورة الذاريات ، الآية ٤٧ .
(١٢) سورة القصص ، الآية رقم ٢٦ .

جسمية وهى : القوى ؛ حيث قوى على سقى الغنم وحده للفتاتين ، والثانية : معنوية ، وهى الأمين .

وقد ظهر أثر هذه القوة لداود – عليه السلام – حين كان جنديا من جنود طالوت ، وحين وجهها للدفاع عن الدين الحق ضد الكفر ، فهى نعمة يجب أن توجه إلى طاعة من وهبها سبحانه ؛ فقد استطاع داود – دون غيره – أن يتجه إلى رأس الكفر جالوت ، القائد العام للعدو ، ويقتله . على الرغم من أن المؤمنين كانوا قلة ، والكافرين كثرة .

**أكله من عمل يده :**

عن جابر بن عبد الله (١٣) – رضى الله عنهما – قال : كنا مع رسول الله – ﷺ – نجنى الكباث ، وإن رسول الله – ﷺ – قال :

« **عليكم بالأسود منه ؛ فإنه أطيبه** » قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « **وهل من نبى إلا وقد رعاها** » (١٤) .

وهذا الحديث يدل بوجه عام على أن كل نبى كان يعمل بيده ، وفى رعى الغنم ، وأنه لم يعش عالة على غيره من أهل وأقارب . ولكن داود – عليه السلام – كان ملكا ؛ فقد قال تعالى فى شأنه :

﴿ **وآتاه الله الملك والحكمة** ﴾ .

---

(١٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، الأنصارى ، السلمى ، ومن كناه أبو عبد الله ، وأبو عبد الرحمن ، من المكثرين فى الرواية عن النبى – ﷺ – كان مع من شهد العقبة ، وأسهم فى سقى القوم يوم بدر ، وقيل منعه أبوه فى بدر ، وأحد ، كانت له حلقة درس فى المسجد النبوى ، يؤخذ عنه العلم ، ومات بالمدينة بعد أن كُف بصره سنة أربع وسبعين ، عن نيف وتسعين زمن الحجاج ، وكان قد أوصى ألا يصلى عليه . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٣١٢ رقم ١٠٢٦ .

(١٤) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩١ ، مختصر مسلم ، وقد سبق الاستشهاد به .

ومثل هذه المراكز كثيراً مانرى أصحابها يُخْدَمُونَ من غيرهم ، ويُعْفَوْنَ من العمل باليد . فماذا كان من أمر نبى الله داود - عليه السلام - وحاله على هذا النحو ؟

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

**« خفف على داود القرآن ( القراءة ) ، فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده »** (١٥) .

وذلك فى وقت أن كانت له خيول تسرج ، ويملك الأمر لمن يقوم بإسراجها من جنود . وأتباع ، ومع ذلك يكون التأكيد بأسلوب الحصر فى العبارة « ولا يأكل إلا من عمل يده » والأكل من عمل اليد يدل من جهة أخرى على القوة الجسمية التى سبق الحديث عنها .

**صيامه ، وصلاته :**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ؛ إنه أواب ﴾** (١٠) .

والأواب هو الكثير الرجوع إلى الله سبحانه ، فكيف كان بيان ذلك فى السنة النبوية ؟

عن عمرو بن أوس الثقفى ، سمع عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال لى رسول الله - ﷺ - :

**« أحب الصيام إلى الله ، صيام داود ؛ كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ؛ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سُدُسَهُ »** (١٦) .

---

(١٥) أخرجه البخارى من طريقين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - ج ٤ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، كتاب الأنبياء .

(١٦) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصيام رقم ٧٢٠ ، صحيح =

ودرجة الحب الواردة فى الحديث السابق ، لا تعنى قيام داود – عليه السلام – بما عليه من فرض وواجب ، وإنما تعنى أداء النوافل – والتطوع التى تدل على رغبة العابد الشديدة فى التقرب إلى الله سبحانه .

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

**« إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه »**[17] .

وقد منع النبى – ﷺ – عبدالله بن عمرو – رضى الله عنهما – أن يفعل أكثر من ذلك ، برغم حرصه على المزيد ؛ لأنه لا أفضل من ذلك ، والمعنى : أن داود – عليه السلام – فعل قمة العبادة من صلاة وصيام ، واستحق وصف الله سبحانه له « إنه أواب » .

## كتاب داود – عليه السلام .

أنزل الله سبحانه على نبيه داود – عليه السلام – كتاب الزبور ، وفى ذلك قال الله تعالى :

**﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾**[18] .

وفى الكتاب كانت الحكمة ، والعلم ، قال تعالى :

**﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾**[19] .

---

= البخارى ، كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٦ ، وقد رواه أيضاً من طريق سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبدالرحمن ، وأبى العباس ، وفى الروايات الأخرى ذكر السبب فى نصيحة عبدالله بن عمرو بهذا .

(١٧) أخرجه البخارى . الأربعون النووية ، الحديث الثامن والثلاثون .

(١٨) سورة النساء ، الآية رقم ١٦٣ ، وسورة الإسراء ، الآية رقم ٥٥ .

(١٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥١ .

وكما تعلم منه ، ومن غيره الحكمة ، والعلم ، علم الأسلوب الصحيح فى القضاء ، وفصل الخطاب ، بالفهم فى المسائل التشريعية ، والقضائية[٢٠] .

**تسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وعمل الدروع ، والملك الكامل ، وفصل الخطاب .**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ؛ يا جبال أوبى معه ، والطير ، وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات ، وقدر فى السرد ، واعملوا صالحاً ؛ إنى بما تعملون بصير ﴾**[٢١] .

وقال أيضاً :

**﴿ اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة ، وفصل الخطاب ﴾**[٢٢] .

يخبر الله سبحانه عما أنعم به على نبيه داود – عليه السلام – مما آتاه من الفضل المبين :

– فقد سخر له الجبال تردد التسبيح معه ، إذا ما سبح وذكر الله تعالى .

– وقد أمرت الجبال مباشرة من الله سبحانه أن تؤوب معه ، وتسبح فى كل وقت .

– كما أن داود – عليه السلام – قد أعطى فى هذا المقام من الصوت الجميل الرقيق ، وقد سمع النبى – ﷺ – صوت أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – يقرأ من الليل ، فوقف ، واستمع لقراءته ، ثم قال :

---

(٢٠) عزاه البخارى إلى مجاهد ج ٤ ص ١٩٦ كتاب الأنبياء .
(٢١) سورة سبأ ، الآيتان ١٠ ، ١١ .
(٢٢) سورة ص ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠ .

« **لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود** » (٢٣) أى صوتاً جميلاً مثل صوته .

— وألان الله تعالى له الحديد ؛ إما بإلانته مباشرة ، وصيرورته فى يده مثل الجسم اللين ، وإما بتعريفه سبل الإلانة ، والإذابة ليصنع منه ما يشاء ، والثانى أرجح والله أعلم .

---

(٢٣) رواه الشيخان – رياض الصالحين ، للنووى ، كتاب الفضائل باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن رقم ١٠٠٣ ص ٤١٨ .

قال صاحب القاموس : مزامير داود : ما كان يتغنى به من الزبور ، وضروب الدعاء . والمفرد : مزمار ، ومزمور ، ما يزمر به ، وزَمَرَ يَزْمُرُ : غنى فى القصب .

وما يتصل بالصوت أيضاً عزف الرياح : أصواتها ، والمعازف : الملاهى ( أى أدوات اللهو ) ، والواحد : عُزْف أو مِعْزَف ، والعازف اللاعب بها ، والمغنى . اهـ .

هذا وقد وردت فى مثل هذا أحاديث :

١ – عن محمد بن حاطب ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « **فصل ما بين الحلال ، والحرام ، الدُّفُّ ، والصوت فى النكاح** » رواه الخمسة إلا أبا داود .

٢ – وعن أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال النبى – ﷺ : « **يا عائشة ، ما كان معكم من لهو ؛ فإن الأنصار يعجبهم اللهو** » رواه البخارى ، وأحمد .

٣ – وعن عمرو بن يحيى المازنى ، عن جده أبى حسن ، أن النبى – ﷺ – كان يكره نكاح السر ، حتى يضرب بدف ، ويُقال : أتيناكم ، أتيناكم ، فحيونا نحييكم » رواه عبد الله بن أحمد فى المسند .

٤ – قال فى الفتح فى رواية شريك : فقال : هل بعثتم جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ قلت : تقول ماذا ؟ قال : تقول :

**أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم**
**ولولا الذهب الأحـ مر ما حلت بواديكم**
**ولولا الحنطة السمرا ء ما سمنت عذاريكم**

قال أبو العباس ، وأبو حنيفة ، وأصحابه : ضرب الدف مباح ، قال الشوكانى : =

= وهذا هو الظاهر للأحاديث المذكورة فى الباب ، بل لا يبعد أن يكون ذلك مندوباً ؛ ولأن ذلك أقل ما يفيده الأمر فى قوله : « **أعلنوا هذا النكاح** » قال المهلب : وفى هذا .. إعلان النكاح بالدف ، وبالغناء المباح ، وفيه إقبال الإمام إلى العرس ، وإن كان فيه لهو ، ما لم يخرج عن حد المباح . اهـ . نيل الأوطار ، للشوكانى ج ٦ ص ٢١٠ باب الدف ، واللهو فى النكاح ، وكتاب آداب الزفاف للشيخ ناصر الدين الألبانى .

٥ - وعن عبد الرحمن بن غُنْم ، قال : حدثنى أبو عامر ، أو أبو مالك الأشعرى ، سمع النبى - ﷺ - يقول : « **ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحِرَ ، والحرير ، والخمر والمعازف** » أخرجه البخارى تعليقاً ، وأبو داود ، وصححه ابن حبان ، وله شواهد . قال الجوهرى ، وغيره : المعازف : الملاهى . والحر بكسر الحاء : الفرج ، أى يستحلون الزنا ، قال الشوكانى : المعازف : آلات الملاهى : ونقل عن الجوهرى أيضاً : الغناء ، والذى فى صحاحه ، أنها اللهو ، وقيل : صوت الملاهى ، ونقل الشوكانى حجج من قالوا بالتحريم ، وحجج من قالوا بالجواز ..فى كتابه نيل الأوطار ج ٧ ص ١٠٠ باب ما جاء فى آلة اللهو . و ج ٢ ص ١٠٣ ولم يسند البخارى الحديث للشك الواقع من المحدث ؛ حيث قال أبو عامر ، أو أبو مالك .

**وفى ضوء ما تقدم أرى والله أعلم بالصواب :**

- أن تحسين الصوت بالقرآن مرغوب فيه شرعاً ، كما أن تحسين الصوت بالدعاء محبب أيضاً .
- أن آلات العزف واللهو قسمان .

(١) الأول ما هو مقطوع بإباحته مثل الدف .

الثانى ما فيه اختلاف بين الإباحة ، والحرمة .

- أن اللهو ، والغناء ، مطلوبان شرعاً فى مناسبات الأفراح مثل الأعراس .
- أن المعازف بمعنى ما يعزف الإنسان ، ويصرفه عن ذكر الله حرام قطعاً . واستعمالها بهذا المعنى مقرون بالزنا . وشرب الخمر ، ولبس الرجال للحرير . فى الحرمة .
- أن ما يباح مما تقدم مشروط بألا ينسى الإنسان ذكر ربه ، وألا يصرفه عن الكلام المباح إلى الحرام .

– وقد كانت إلانة الحديد لهدف سام يسعى إليه داود – عليه السلام – هذا الهدف هو صناعة الدروع السابقة بشكل سهل وسريع ، ثم تكون الدروع بعد التصنيع على صلابتها ومتانتها ، ويتضح هذا الهدف من قوله تعالى :

﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ (٢٤) .

– وبلغ داود – عليه السلام – من المهارة فى تلك الصناعة أن قدر كل شيء فيها.من مسمار وغيره ، حتى تفوقت على ماسبقها من دروع .

– وها هى الطيور أيضاً ذات الصوت الجميل إذ بها وهى تسبح فى الفضاء تسمع صوتا أجمل من صوتها ، وهو صوت داود – عليه السلام – فتردد معه تسبيحه ، وذكره .

– وقد أمر داود – عليه السلام – بأن يتخذ الصالح فى كل عمل يعمله ؛ لأن المراقب والبصير يراه ويسمعه ، وبذلك وجهت هذه النعم إلى الإصلاح فى الأرض ، وإزالة الفساد .

– وإذا ما كانت الجبال متجاوبة معه ، وكذا الطير ، وإذا ما كان الحديد قد سخر ، وصنعت منه أدوات القوة والنصر . كان ملك داود – عليه السلام – على هذا الأساس شديداً مهاباً .

فأى ملك أعظم لإنسان من ملك داود – عليه السلام ؟

– وإذا ما كان التسخير السابق ، فمؤدى هذا أن يكون تابعوه من البشر كثرة تعمل له الحساب ، ولا ينتظر منهم التمرد عليه ؛ خوفاً منه .

**نبأ الخصم .**

قال تعالى :

﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ،**

---

(٢٤) سورة الحديد ، الآية رقم ٢٥ .

**ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ؛ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾**(٢٥) .

فى موقف آخر خاطب الله سبحانه نبيه محمداً – ﷺ – بقوله بعد حديث عن بنى إسرائيل :

**﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾**(٢٦) .

وأخبره أيضاً ببيان أساس هذه الشريعة بقوله :

**﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾** (٢٧) .

ثم قدم له فى نص ( نبأ الخصم ) الجديد رصيداً من التجربة الإنسانية على يد الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهو سبحانه يهيئه ويشوقه إلى ما سيخبره من أمر الغيب ، الذى لا يعلمه إلا هو سبحانه ؛ **﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ؟ ﴾**

وقد أجرى الله سبحانه اختباره أيضاً على داود – عليه السلام – الذى آتاه الله الملك ، وعلمه مما يشاء . فماذا كان من أمر هذا الاختبار ؟

---

(٢٥) سورة ص ، الآيات من رقم ٢١ إلى رقم ٢٦ .
(٢٦) سورة الجاثية الآية رقم ١٨ .
(٢٧) سورة النحل ، الآية رقم ٩٠ .

آ - **مفاجأة مفزعــة .**

جماعة من البشر بينهم خصومة شديدة ، دفعتهم إلى ارتكاب خطأ ؛ رغبة فى الوصول بسرعة إلى حكم داود - عليه السلام - فيما بينهم .

- فهم قد تسوروا المحراب ، ولم يتمهلوا ليدخلوا من الباب .

- وهم لم يخففوا من مفاجأتهم ، وقد واجهوا نبيهم ، وحاكمهم بنهى حيث قالوا : « لاتخف » الذى كان عرض القضية بعدها مباشرة .

- وهم جماعة من البشر قد حضروا مع خصمين ، مما يدل على أن الخصومة أخذت أبعاداً أوسع .

- وفى تقديمهم القضية كان تهديد وأمر ؛ بالحكم بينهم بالحق « فاحكم بيننا بالحق » وتهديد وتحذير من الجور ، والشطط « ولاتشطط » وآخر أمر كان أقرب إلى الرقة والهدوء « واهدنا إلى سواء الصراط» فهنا نهيان ، وأمران فى آن واحد ، وبعد تسور المحراب ، وقبل التعرف على موضوع الخصومة التى جاءوا من أجلها .

فالجو يوحى بالفزع بشكل عام ؛ وظهر أثره على داود - عليه السلام - منذ أن تسوروا المحراب . تلك الحالة النفسية الأولى لمحكمة ، قاضيها فزع ، وخصومها يهددون .

ب - **موضوع القضيــة :**

بدأ عرض القضية من الطرف الأول ، الذى ظن أن ظلما وقع عليه . وفحواها من وجهة هذا الطرف .

أنه كان يملك شاة ، فهو بذلك فقير ليس هناك ما يدل على امتلاكه غيرها ، وهو بحاجة إلى مساعدة من غيره ، قبل أن يساعد هو غيره ، وقد تأدب حين بدأ الحديث عن خصمه ، فعبر عنه بأنه أخوه « إن هذا أخى » وإن كان هذا الأدب قد تناوله بحذر ، مخافة الاتهام بالضعف ، وهو أمام قاض عادل ، فأشار إلى أخيه بهذا دون ذكر اسم هذا الأخ .

إن هذا الأخ يملك تسعا وتسعين شاة ، عدداً هائلا بالنسبة لشاة واحدة فقط وقد طمع هذا الأخ الغنى فى مال أخيه الفقير وأراد أن يضم الواحدة إلى الكثير لتبلغ المائة . وأعطته سلطته الاقتصادية سلطة بيانية ، فغلب أخاه فى النقاش والحوار . ومحاولات الإقناع بأن مسألة الضم هذه شرعية لا ضير فيها ، وعجز الفقير المسكين عن مبادلة الحجة بالحجة « وعزنى فى الخطاب » فجاء ليعرض مشكلته أمام عدة أطراف :

١ - جماعة الناس التى حضرت مع الخصمين .

٢ - الأخ الذى حاول ضَمَّ شاته ، إلى شياهه ، وقد عَزَّهُ فى الخطاب .

٣ - القاضى داود - عليه السلام .

وهو إذ يعرض مشكلته ودعواه متهلف إلى أن يأخذ حقه ، وعلى وجه السرعة ، ولذا أسهم مع الآخرين فى تسور المحراب .

**جـ - الحكم فى القضية :**

تلك هى الحال التى عرضت القضية فى جوها ، والتى أخذت على داود - عليه السلام - لبَّه ، ففزع ، فأراد أن ينهى الموقف بحكم سريع ، فى ضوء الظاهر من عرض طرف واحد فى الخصومة .

فماذا كان الحكم ؟ وما حيثياته ؟

إن ضم الشاة الواحدة إلى التسع والتسعين ظلم ، وهذا الظلم يجب أن يزال ، وتنفض الخصومة .

ثم علل مرشداً وموجهاً ببيان طريقين :

١ - طريق ظالم ، يجنح إليه كثير من الخلطاء والشركاء ، حين يبغى القوى على الضعيف وهذا الطريق يجب أن ينبذ ، ولا تبرره وصمة الكثرة به ، وتمرغهم فى وحله .

٢ - طريق عادل ، يؤمن به من البشر من أخلص قلبه لله سبحانه ، وعلم أنه مطلع عليه فى سره ، وعلنه ، وأنه سيجازيه على الصغيرة والكبيرة ، وأنه

سيقتص لعباده المظلومين يوم الحساب ، ومع هذا الإيمان عمل صالح ﴿ **آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم** ﴾ .

ورفعت الجلسة ، وانتهت الخصومة على هذا النحو ، وبدأ داود - عليه السلام - يستعيد ما حدث آنئذ ، وبسرعة .

**د - فى أعقاب القضيـــة :**

إن داود - عليه السلام - لا يعلم ما بالقلوب والنوايا ، فعلمها عند الله سبحانه ، ولكنه مكلف ومطالب بالشكل القضائى : البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . ثم هو يسمع كلا من الطرفين فى عرض رأيهما ، ويجتهد حسب طاقته البشرية فى محاولة الوصول إلى الحقيقة ، بوضع الخصوم فى اختبارات ، ومساءلات ، فإذا ما كانت بعد هذه الجهود القضائية بلاغة أحد الخصمين ، ومهارته فى عرض خصومته ، فحكم القاضى له برغم أنه ليس بصاحب حق ، فليس على القاضى إثم ، وأمر الظالم موكول إلى الله سبحانه .

عن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول :

« **إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر** »(٢٨) .

إن داود - عليه السلام - تذكر جانب الشكل فى القضاء فوجد فيه جانبا لم يكتمل . فماذا كان من أمره بعد أن استرجع القضية ؟

---

(٢٨) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ رقم ١١١٨ ص ٤٣١ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٥٦ ج ٢ .

وقد حذر النبى - ﷺ - هؤلاء الظالمين الذين يقتطعون لهم من مال الناس ، دون وجه حق ، لمجرد أنهم يجيدون تزويرهم ، وإلباسه ثوب الحق .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - زوج النبى - ﷺ - أنه سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال :

رأى أنه مر باختبار شديد فى تلك القضية ، وليس الاختبار إلا تعليماً وتوجيها لما يأتى من اختبارات أخرى ، فكان منه :

- استغفار مما ظن أنه تقصير فى تناول القضية ، والحكم بناء على سماع طرف واحد .

- سرعة الخضوع والذلة لله سبحانه « خر راكعا » .

- رجوع وتوبة ، وتعديل لخطة عمل قضائى .

---

= **« إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق ، فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار ، فيحملها ، أو يذرها »** ( أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١١١٥ باب الحكم بالظاهر ، واللحن بالحجة ص ٤٢٨ ، ومختصر مسلم رقم ٤٠٥١ ج ٢ ص ٤٠ ) .

وعن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

**« إن أبعض الرجال إلى الله الألد الخصم »** .

والألد : بفتح اللام ، وتشديد الدال الشديد الخصومة . والخصم : بكسر الصاد الحاذق بالخصومة ( أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب العلم ، باب فى الألد الخصم ، رقم ١٧٠٧ ص ٧٢٤ ، ومختصر مسلم ، باب إذا حكم الحاكم ، رقم ١٠٥٢ ج ٢ ص ٤٠ )

وعنها أيضاً قالت : قال رسول الله - ﷺ :

**« من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »** .

أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور رقم ١١٢٠ ص ٤٣١ فى أمرنا : فى ديننا . فهو رد : من باب إطلاق المصدر على اسم الفعول ، أى فهو مردود . أى باطل غير معتد به ، ويفهم من هذا أنه إذا تبين فى الحكم نوع من الخلل يلزم الرجوع إلى الحق من أى الأطراف : المدعى ، المدعى عليه ، القاضى ، الشهود وانظر أيضاً إلى فصل سليمان - عليه السلام - موضوع . الهدهد وملكة سبأ ، وقوله تعالى : ﴿ **سننظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟** ﴾ .

واستحق داود - عليه السلام - بعد الاستغفار والإنابة جائزتين :

١ - جائزة المغفرة ، والقربى من الله سبحانه ﴿ **فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

٢ - جائزة تكليفه الخلافة عن الله سبحانه فى الأرض ، ومن لوازم هذه الخلافة :

آ - الحكم بين الناس بالحق .

ب - عدم اتباع الهوى فى هذا الحكم ؛ لأن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله سبحانه ، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يقومون الأحكام بميزان الله سبحانه .

**دروس وعــبر :**

– كثير من الناس يتعجلون الأحداث ، ويتحمسون وهم خارج دائرة المعاناة ، والابتلاء ، ولكنهم حين يجد الجد ، ويدعون إلى القتال ينكصون عنه ، وأولى بهم أن يتبعوا منهجاً مرحليا ، ويصدقوا النية مع الله سبحانه ، ومع أنفسهم .

– على المسلم أن يذعن إذعانا كاملاً لأمر الله سبحانه ، وأمر نبيه – ﷺ – ولا يخالجه أى تردد فى التنفيذ .

– قد يظهر على ألسنة الكثرة من الناس أنهم على خير ، والحقيقة غير ذلك ، فالأحداث هى التى تمحص النفوس ، وتظهر الصادق من غيره .

– يجب أن يُخْتَارَ القائد العسكرى على أساس الإيمان والكفاءة الحربية ، من خبرة علمية ، وقوة جسمية .

– القائد الناجح هو الذى يجعل حس المعركة فى أذهان جنوده دائماً ؛ بالمناورات العسكرية التى تظهر جلد الجندى ، ومدى صبره عليها .

– إن الكثرة التى تضم ضعاف الإيمان لا تساوى شيئاً ، وإن القلة المؤمنة ذات الكفاءة الحربية تبدد شمل الخصم العنيد ، والكثير العدد والعدة ، وتلحق به الهزيمة ، وتنتصر عليه .

– من علامات الإيمان للجنود ، الالتجاء إلى الله سبحانه ، وطلب المدد منه ، والثبات عند اللقاء ، والصبر على لأواء الحرب ، والرغبة الملحة فى النصر مع بذل أسبابه .

– إن الجهاد فى الإسلام تعمير للأرض ، وإصلاحها ، وإزالة للفساد والخراب ، ومن أسس الإعمار التوازن فى تلبية متطلبات الإنسان فيها . وإفسادها يكون بإعلاء جانب على حساب جانب آخر ، كما نرى فى الحضارة الحديثة المادية من جهة ، وما نراه من مغالاة فى التعبد وإهمال الدنيا ومصالح الناس فيها .

وما تقدم فى ضوء المعركة بين طالوت وجالوت .

– الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أعطاهم الله سبحانه من ما تكفل لهم القيام بأعباء الرسالة ، « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وقد اختارهم من أفضل البشر .

– خير لقمة يقدمها المرء لنفسه ما كان من عمل يده ، فالعمل نعمة ومنهج حيوى ؛ لتسير الحياة نحو الرق دائماً .

– إن الله سبحانه قد خص داود – عليه السلام – بتسخير كائنات له من غير البشر ؛ وذلك لإخضاع البشر الذين تعودوا التمرد على أنبيائهم من قبل ، وهم بنو إسرائيل .

– إن الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وتسخيره للإنسان من نعم الله سبحانه ؛ فيجب أن يستغل فى إعمار الأرض ، وقمع الظلم .

– على القاضى أن يتريث فى الحكم ؛ حتى يسمع حجة كل من الخصمين ولا يقضى بعد أن يسمع طرفاً واحداً فإذا جاء أحد الخصمين ، وقد فقئت عينه فلا يحكم حتى يسمع ويرى الخصم الآخر فقد تكون العينان قد فقئتا ، أو ماهو أكبر من ذلك .

– إن القاضى مطالب بمراعاة الظاهر أمامه ، ويجتهد فى الوصول إلى الحق ، كما نص الحديث فى ذلك .

– إن الله سبحانه يطالب عباده المؤمنين :

بأن يحكموا بالعدل ، وعدم اتباع الهوى فى الحكم .

– على الخصم فى عرض قضاياهم أمام القضاء أن يراقبوا الله سبحانه ، ولا يحاولوا أن يضللوا القاضى بما يملكون من بلاغة ومهارة فى الإقناع .

# سليمان ـــ عليه السلام

ـــ هبة الله سبحانه لداود ـــ عليه السلام .

ـــ نعم الله سبحانه على سليمان ـــ عليه السلام .

ـــ حكمه بشأن الطفل .

ـــ جيش سليمان ـــ عليه السلام :

( ا ) القيادة .

(ب) قصة الهدهد ـــ جنديا ـــ وملكة سبأ :

١ ـــ شجاعة أدبية .

٢ ـــ النبأ اليقين .

٣ ـــ وعى الجندى .

٤ ـــ التحقق من الدعوى .

٥ ـــ الملكة تناقش أمر الكتاب .

٦ ـــ موقع الهدية فى نفس سليمان ـــ عليه السلام .

٧ ـــ العفرينت الذى عنده علم من الكتاب .

٨ ـــ الملكة فى الأرض المباركة .

(ج) تسخير الجن .
(د) تسخير الريح .
(هـ) الجياد ، وفتنة سليمان ـــ عليه السلام
ـ تعلمه منطق النمل .
ـ موت سليمان ـــ عليه السلام .
ـ الشياطين يعلمون الناس السحر .
ـ السحر فى ضوء الكتاب والسنة :
( ا ) السحر لا يغير حقائق الأشياء .
(ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه .
(ج) عقوبة الساحر .
(د) اتهام الكفار الرسل بالسحر .
ـ قصة سبأ .
ـ دروس وعبر .

## هبة الله سبحانه لداود ــ عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿ ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ؛ إنه أواب ﴾ [1] .

وقال :

﴿ وورث سليمان داود ﴾ [2] .

وكانت الهبة جليلة القدر ، عظيمة الشأن :

ــ فقد أخبر الله سبحانه عنها بقوله : ﴿ نعم العبدْ ﴾ أى نعمت الهبة التى تحققت فى شخص سليمان ــ عليه السلام .

ــ ومن أبرز صفات سليمان ــ عليه السلام ــ أنه أواب كثير الأوب والرجوع إلى الله سبحانه .

ــ وكانت النبوة فى قمة معطيات الله سبحانه لسليمان ــ عليه السلام ــ فقد ورثها عن أبيه داود ــ عليه السلام [3] .

## نعم الله سبحانه ــ على سليمان ــ عليه السلام :

إن الله سبحانه وتعالى ، قد أعطى نبيه ــ عليه السلام ــ العلم ؛ فقال فى ذلك :

---

(١) سورة ص ، الآية رقم ٣٠ .

(٢) سورة النمل ، الآية رقم ١٦ .

(٣) إن من أفضل ما يكون للمرء بعد عمله أن يرزق بابن صالح ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : « **إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » ( رواه مسلم ، رياض الصالحين ، كتاب العلم رقم ١٣٨١ ص ٥٢٥ ، والمختصر كتاب الوقف ، باب ما يلحق الإنسان ثوابه بعده ، رقم ١٠٠١ ص ٢٤ ج ٢ ) .

**﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ (٤) .**

ونعمة العلم المعطاة إلى كل منهما : داود ، وسليمان — عليهما السلام — كانت سببا فى التوفيق إلى نعمة أخرى ، وهى شكر الله سبحانه ، على هذا العلم الخاص ، وهذا التفضيل . وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الشكر من زاوية أخرى فقال :

**﴿ نعم العبد ؛ إنه أواب ﴾ (١) .**

أى من شكره لربه سبحانه توبته ، واستغفاره ، وكثرة الرجوع إليه .

كما أعطاه ربه سبحانه اتساع الملك ؛ فقد دعا ربه سبحانه بما قال على لسانه :

**﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكا ، لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ (٥) .**

وقد أجاب الله سبحانه دعاءه ، فكان له ملك لم يتمتع به أحد ممن بعده .

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — :

**« إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ؛ ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ؛ حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ رب هب لى ملكا ؛ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ فرددته خاسئاً » (٦) .**

---

(٤) سورة النمل ، الآية رقم ١٥ .

(٥) سورة ص ، الآية رقم ٣٥ .

(٦) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ، ومواضع الصلاة ، باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة رقم ٣١٤ ص ١٠٩ ، وصحيح البخارى ، واللفظ له ، كتاب الأنبياء وغيره ج ٤ ص ١٩٧ ، وقال البخارى : عفريت : متمرد من إنس أو جان ، وبهامش اللؤلؤ ما يخصصه بالجن ، وقيل بالهامش أيضاً ـ رده الله خاسئا : أى مطروداً .

ومن مظاهر اتساع الملك أيضاً أن كان تحت إمرته : الطير ، والريح والإنس والجن ، والجياد ، وسيأتى كل فى مجاله الخاص إن شاء الله تعالى .

## حكمه بشأن الطفل :

عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أنه سمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

**« مثلى ، ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعل الفراش ، وهذه الدواب ، تقع فى النار » وقال : « كانت امرأتان ، معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود ، فأخبرتاه ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل ، يرحمك الله هو ابنها . فقضى به للصغرى »** (٧) .

والقصة المطروحة تدل على أن المرأة الكبرى كاذبة فى دعواها أن الطفل ابنها ، وأن الذئب جاء فذهب بابن الصغرى ، وأن هذا الكذب لم يظهر حين عرضت القضية على داود ـــ عليه السلام ـــ ولكن سليمان ـــ عليه السلام ـــ يعلم ما تكنه الأم لابنها من حب ، وما تتمناه له من طول الحياة ، والعافية البعيدة عن أى مصيبة تلحقه . وأى مصيبة أفدح من القتل ؟ ! فالقتل دون كل المصائب فى نظر الأم ، حتى ولو كانت مصيبة الحرمان منه .

واستغل نبى الله سبحانه سليمان ـــ عليه السلام ـــ علمه بنفسية الأم ، فأراد أن يقوم باختبار ، فقد طلب سكيناً لقطع الطفل نصفين ، وهَمَّ بذلك دون نية التنفيذ ـــ حاشاه أن يفعل ذلك ؛ لأنه سيعلم قبل أن يكون هذا التنفيذ : من

---

(٧) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٨ ، كتاب الأنبياء ، باب ووهبنا لداود سليمان ، ومختصر مسلم ج ٢ ص ٤١ رقم ١٠٥٧ كتاب القضاء والشهادات ، باب اختلاف المجتهدين فى الحكم ، واللفظ للبخارى .

الأم الحقيقية التى تود بقاء ابنها على قيد الحياة ؟ وكانت الصغرى ، فحكم برد الطفل إليها ، ونزعه من الكبرى .

وهذا الفهم والعلم من نعم الله سبحانه على سليمان ــــ عليه السلام ــــ الذى خصه به ، قال الله تعالى فى شأنه فى موقف آخر :

**﴿ ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما ، وعلماً ﴾** (٨) .

فالفهم الذى تميز به نتيجة تفهيم الله سبحانه إياه ، كان بدرجة أعلى من فهم أبيه داود ــــ عليه السلام ــــ كما تدل الآية الكريمة .

## حكمه فى الحرث :

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ وداود ، وسليمان ، إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ﴾** (٩) .

تصرح الآيتان الكريمتان بموضوع القضية دون تفصيل : حرث لشخص ، أفسدته غنم لقوم آخرين ليس لهم حق فيه .

كما تصرح بشهادة الله سبحانه لكل من داود ، وسليمان ــــ عليهما السلام ــــ وعلمه بهما . وأن حكم سليمان ــــ عليه السلام ــــ تميز بدرجة كبرى من الفهم ، كما سبق .

وتوقفت الآيتان عند هذا ، ولكنهما تشيران ــــ مجرد إشارة ــــ إلى جوانب أخرى فى القضية ، وعرضها ، والحكم فيها ، ويعيننا فى ذلك ما سبق من نص الحديث ، الذى يدل على أسلوب كل منهما فى الحكم ، وما تشير إليه أيضاً

---

(٨) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٩ .

(٩) سورة الأنبياء ، الآيتان رقما ٧٨ ، ٧٩ .

الأحاديث الأخرى ، وإن كانت بها علة تضعفها ـــ وقد أخذت على نفسى ألا أستشهد بحديث إلا بما اطمأننت إليه من حيث الصحة ـــ ولكنها هنا فى مقام الاستئناس بما يفهم منها توضيحاً لما تشير إليه الآيتان الكريمتان ، والعلم عند الله سبحانه وتعالى . وبناء على هذا أقول :

## موضوع القضية :

ـــ أرض بها زرع قد يكون عنبا ، أو شجراً آخر ، وقد يكون عشباً ، أو بقولًا ، أو غيرها . فالأرض المقدسة التى بها سليمان ـــ عليه السلام ـــ أرض باركها الله سبحانه ، وفى شأنها قال تعالى :

﴿ **الأرض التى باركنا فيها** ﴾ (١٠) .

ـــ هذا الزرع بذل فيه جهد من صاحبه ، وجهد ظاهر ، وأوله حرث ، وما يتبعه من سقى ، وعناية ، ورعاية له مما يفسده ، ولذا أطلق عليه الحرث ، ولا يراد الحرث فى ذاته ، حيث لا تفسده أغنام ، فبقى لنا أن نفهم أنه يدل على ما يتبعه من زرع قد نما وكبر .

ـــ أن الغنم تجولت فيه ، وتناولته بالإفساد من نواح كثيرة متفرقة ، حيث ﴿ **نفشت فيه** ﴾ وإن كانت لم تأت على جميعه بالإفساد ، فأفسدته تدل على إفساده كله ، وأفسدت فيه تدل مما تدل على إفساد البعض .

ـــ التصريح بملكية القوم للأغنام يشير إلى أن التهمة موجهة إليهم جميعاً ، فهم قد أهملواكلهم ، وأثر هذا الإهمال واضح مشاهد فى الحرث .

ـــ ولأن التهمة ظاهرة فلم يكن من اللازم التصريح بما يدل على صاحب الحرث ؛ لأن ذلك معلوم ، والمعلوم فى مقام المذكور ، وإلا فكيف وصلت الدعوى إلى القضاء ؟ .

---

(١٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

**هيئة المحكمة :**

ـــ مكونة من الأصل ، وهو داود ـــ عليه السلام ـــ ويساعدنا فى الاستنباط :

( ا ) تقديمه فى الآية .

(ب) هو الوالد ، والأكبر .

(ج) التعبير الأخير ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ أى بعد أن كان تفكير سابق ، واجتهاد ، ولكنه ليس بدرجة اجتهاد سليمان ـــ عليه السلام ـــ والتفكير ، والاجتهاد السابق لشخص ثان ، وليس غير داود ـــ عليه السلام .

ـــ إن الله سبحانه هو أحكم الحاكمين ، والشاهد لهما ، يعلم سير الأحداث فى القضية ، وطرق علاجها قضائيا .

ـــ إن سليمان ـــ عليه السلام ـــ فرع مساعد لداود ـــ عليه السلام ـــ فالحكم منوط بهما ، وكل منهما يبذل جهده حسب توفيق الله سبحانه له .

**فى الحكم :**

ـــ يظهر أنه قد صدر حكمان :

( ا ) حكم من الأصل وهو داود ـــ عليه السلام .

(ب) حكم من المساعد وهو سليمان ـــ عليه السلام . كما سبق فى حديث الطفل . وأن حكم سليمان ـــ عليه السلام ـــ أكثر دقة وفهماً ، وأنه هو الذى نفذ فى القضية .

ويمكننا أن نأخذ من هذه القضية ، وسابقتها :

ـــ أن الأمور الاجتهادية التى ترتبط ببشرية الإنسان ، ويصدر بها

حكم ، يتبين بعد ذلك فيه خطأ ، يلزم الرجوع عنه (١١) .

## جيش سليمان ـــ عليه السلام :

### ( ا ) القيادة:

بلغت القيادة درجة لم تتحقق لأى نبى من الأنبياء ، فضلا عن البشر جميعاً ، فقد استجاب الله دعاء نبيه سليمان ـــ عليه السلام ـــ حين قال على لسانه :

**﴿ رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾** (٥) .

وأدار هذا الملك بعلم ، وحكمة قال تعالى :

**﴿ وكلا آتينا حكما ، وعلماً ﴾** (٨) .

**﴿ ولقد آتينا داود ، وسليمان علما ﴾** (٥) .

يعلم شئون جنده ، وما يدور على ألسنتهم من أحاديث ، قال تعالى على لسانه :

---

(١١) فإذا كانت عن إقرار ، وظل المقر على إقراره يجب إقامتها ، إما إذا رجع عن إقراره فيلزم الرجوع عن إقامة الحد ، وذلك فى ضوء ما حدث من ماعز حين فكر بالهروب .

أصل الحديث أخرجه الشيخان عن أبى هريرة – رضى الله عنه – كما فى بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلانى ، وقال الصنعانى فى شرحه للحديث فى كتابه سبل السلام ، كتاب الحدود ج ٤ ص ٦ ، ٧ .

وأخرج أبو داود أنه قال – ﷺ – حين علم بهربه :

**« هلا رددتموه إلى »** وفى رواية **« هلا تركتموه ، لعله يتوب الله عليه »** .

وبصحة رجوع المقر أخذ الشافعى وأحمد .

**﴿ علمنا منطق الطير ﴾** (١٢) .

يأمر فيؤتمر لأمره ، قال تعالى :

**﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾** (١٣) .

ويتفقد جنوده ؛ اطمئنانا على الضبط ، والربط . ويعاقب المقصر منهم **﴿ وتفقد الطير ، فقال : ما لى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾** (١٤) .

وقال أيضاً فى ذلك :

**﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن ، والإنس ، والطير ﴾** (١٥) .

ويجمع تحت يده ما يتم من عمل ، وصناعات .

**﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾** (١٦) .

**﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾** (١٦) . أى له دون غيره .

يوجه الموروث من الدروع وجهته القويمة ، حيث النفع العام ، لا الخاص (١٧) .

---

(١٢) سورة النمل ، الآية رقم ١٦ .

(١٣) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

(١٤) سورة النمل الآيتان رقما ٢٠ ، ٢١ .

(١٥) سورة النمل الآية رقم ١٧ .

(١٦) سورة سبأ الآية رقم ١٣ – سبأ الآية ١٢ .

(١٧) أخرج البخارى عن عائشة أم المؤمنين ، وأبى هريرة ، وعمرو بن الحارث – رضى الله عنهم – أن ما تركه النبى – ﷺ – صدقة ، ولا يورث .

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

**« لا يقتسم ورثتى ديناراً ، ما تركت بعد نفقة نسائى ، ومؤنة عاملى فهو صدقة »**

= كتاب الوصايا ، باب نفقة القيم للوقف ج ٤ ص ١٥ : وباب فرض الخمس ج ٤ ص ٩٩ باب نفقة نساء النبى - ﷺ - بعد وفاته .

وعن عمرو بن الحارث - رضى الله عنه - قال : ما ترك النبى - ﷺ - إلا بغلته البيضاء ، وأرضاً ، تركها صدقة . الكتاب السابق ، باب بغلة النبى - ﷺ - البيضاء ، أهدها إليه ملك أيلة ج ٤ ص ٣٩ .

وعن عروة بن الزبير ، أن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أخبرته أن فاطمة - رضى الله عنها - سألت أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - بعد وفاة النبى - ﷺ - أن يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله - ﷺ - مما أفاء الله عليه ، فقال لها أبو بكر : إن رسول الله - ﷺ - قال :

**« لا نورث ، ما تركناه صدقة » .**

وكان مما قال أبو بكر : لست تاركا شيئا كان رسول الله - ﷺ - يعمل به إلا عملت به ، فإنى أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ . باب فرض الخمس ج ٤ ص ٩٦ فى المرجع السابق .

ومما قال أيضاً : إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعنى مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المآكل ... باب مناقب قرابة رسول الله - ﷺ - ج ٥ ص ٢٥ ، وص ١٧٧ ، المرجع السابق .

هذا وقد ذكر صاحب مفتاح كنوز السنة ص ٤٤٨ أن الرواية بهذا المعنى فقط وهو : ما تركه النبى - ﷺ - صدقة ولا يورث . قد رواها كل من :

مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وأحمد وغيرهم .

أما ابن كثير فقد ذكر الحديث بلفظ .

**« نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .**

ولم يذكر من أخرجه ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ورث سليمان داود** ﴾ ج ٥ ص ٢٢٥ وعزاه فى البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨ ، ١٩ إلى الترمذى وقال : صحيح .

=

## (ب) قصة الهدهد ــ جنديا ــ وملكة سبأ :

سبق أن عرفنا أن سليمان ــ عليه السلام ــ بصفته ملكا ، وقائداً عاماً ، علم منطق الطير ، وأعطى القدرة على تسخيره ضمن الجيش ، فى خدمة مؤمنى بنى إسرائيل ، وأنه كان على إحاطة بأفراد هذه الفرقة من الجيش ، يتفقد جنودها بين الحين ،والآخر ، وفى إحدى المرات نظر إلى فرقة الطير ، فلم ير الهدهد . أموجود هو أم غائب ؟ وكيف يتغيب عن حشر الجنود فى عرضهم العسكرى أمام القائد العام للجيش ؟ إنه له عقاباً أليماً على هذا التغيب ؛ ومخالفته النظام ، وأعلنت العقوبة على ملأ من القوم ؛ ليرتدع غيره ، ويتهيب من تكرار التأخير من أى جندى . ولم يكن الأمر انتقاماً ، وسارت الأحوال على هذا النحو :

ــ تأخر الهدهد عن موعد العرض العسكرى أمام القائد العام .

ــ يقظة هذا القائد ، ووقوفه على تلك المخالفة بين الصفوف .

ــ دواعى الضبط والربط ، والهيمنة توجب مخالفة المقصر ، وهو هنا الهدهد .

ــ إعلان العقوبة : تعذيب أليم ، أو قتل ؛ حسب حجم التقصير بعد مجيئه .

---

= والحديث بلفظه الأخير صراحة يلزمنا أن نفسر كلمة « ورث » فى الآية . بوراثة النبوة ، وما يكون من مال فيوجه نحو الخدمة العامة كما حدث من سليمان – عليه السلام – توفيقاً بين الآية والحديث الصريح ، والروايات السابقة التى تشير فقط ، ولا تصرح بعموم المعنى على كل الأنبياء .

انظر تكملة لهذا عند قوله تعالى : ﴿ **فهب لى من لدنك ولياً ؛ يرثنى ، ويرث آل يعقوب** ﴾ ( مريم ٥ ، ٦ ) فصل آل عمران وزكريا – عليهم السلام . موضوع : طلبه الذرية والولد الصالح .

ـــ لم تحدد العقوبة ؛ لأن المدعى عليه ، والمقصر لا زال غائبا ، فقد يحضر الآن ، وقد يطول تأخره .

ـــ وتلغى العقوبة بنوعيها إن كان له عذر يقدم على صحته دليلًا واضحاً .

فليس فى الأمر أى شبهة انتقام ، أو استبداد من القائد العام ـــ حاشاه عن ذلك .

وفى هذا يقول تعالى :

**﴿ وتفقد الطير ، فقال : ما لى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾** (١٨) .

**١ ـــ شجاعة أدبية :**

إذا نظرنا إلى أنواع الفرق فى العرض العسكرى أمام سليمان ـــ عليه السلام ـــ كما سبق ، وجدناها على هذا النمط :

( ا ) فرقة من الإنس .

(ب) فرقة من الجن .

(ج) فرقة من الريح .

(د) فرقة من الطير .

فأى مبلغ تبلغه فرقة الطير ، بالموازنة مع الفرق الأخرى ؟ إنها بالنظرة العاجلة تمثل أضعف الفرق بالنسبة لغيرها ، ويكون الجندى الفرد منها دون غيره منزلة . هذا ما يمكن أن يقال ابتداءً إن جاز لنا أن نقوله ، وإذا ما كانت المنزلة على هذا المستوى الضئيل ، فإنها تترك أثراً بيناً فى الاستماع إلى صاحبها . ونرى هذا فى المجتمعات الجاهلية التى تقيس الناس بمراكزهم المادية ، ولا تصغى إلى عامة الناس ، ولو امتلكوا من الخبرة ، والرؤية الواضحة لما يعايشونه .

---

(١٨) سورة النمل الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

فعلى أى نمط كان الهدهد الجندى الصغير فى جيش النبى الكريم سليمان ؟ إن ظرفا ضروريا دعاه إلى أن يتغيب ، ليس من رغبة فى عدم الالتزام ، بل لأداء المهمة التى من أجلها كان الجيش كله ، وهو أحد جنوده .

إنه يمثل فى عرفنا الحديث طائرة استكشاف عسكرية ، انطلق من الأرض المباركة بفلسطين ، إلى أقصى الجنوب ، حيث سبأ ، أكثر من ألفى كيلو متر ذهابا ، ومثلها إياباً .

واجه الموقف بقوة يحسد عليها وقال مخاطبا سليمان ـــ عليه السلام :

**﴿ فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾** (١٩) .

شخصية الهدهد فى الخطاب واضحة جدا « **أحطت** » « **جئتك** » والثقة فى عمله قوية « **بنبأ يقين** » وشجاعته فى خطاب سليمان ـــ عليه السلام ـــ لا يعتريها خوف . « **بما لم تحط به** » شجاعة يحسد عليها هذا الجندى فى جيش سليمان النبى ، الملك ـــ عليه السلام .

**٢ ـــ النبأ اليقين :**

قال الله تعالى على لسان الهدهد ، وهو يبين مضمون النبأ اليقين :

**﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ،ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾** (٢٠) .

إنه شاهد امرأة تملك أهل سبأ ، وقد أوتيت من كل شيء يتصل بهذين الوصفين :

لأنها امرأة أوتيت جمالا ، وزينة . ولأنها ملكة أوتيت قوة وسلطة ضابطة لقومها .

---

(١٩) سورة النمل ، الآية رقم ٢٢ .
(٢٠) سورة النمل ، الآيتان رقما ٢٣ ، ٢٤ .

ولكن للأسف ، وقد حظيت بنعم سابغة عليها لم تتوجه إلى واهبها بالشكر والعبادة ، بل توجهت إلى الشمس هى وقومها فعبدوها من دون الله سبحانه . فأى قيمة إذن للإنسان وقد جمع لديه من كل الأمور المادية ، أن يعبد مخلوقاً مثله ؟ بل أدنى منه . فإن الإنسان قد أوتى عقلا ليفكر فأنى له وقد عبد الشمس المسخرة للإنسان ؟ .

وأحس الهدهد فداحة هذا الجرم ، فجمع من الأخبار عنه ، وعرضه على النبى سليمان ــ عليه السلام .

### ٣ ــ وعى الجندى :

إن اليد التى تقبض على البندقية ؛ تشدد من قبضها ، إذا امتلأ قلب صاحبها بالإيمان ، والبصيرة النافذة ، والوعى بالأحداث ، والفقه بالأصول العقيدية التى يحارب من أجلها ، ويسعى إلى الشهادة فى سبيلها ، وقد قدم إلينا الهدهد نموذجا من هذا :

ــ إنه اعتبر السجود للشمس ضلالًا وكفراً ، وازداد الضلال بكونه من أمة بأكملها .

ــ وعرف أن مصدر إغواء الإنسان من الشيطان .

ــ وإن الشيطان يزين للإنسان القبيح من الأعمال ، فيجعله جميلًا على الرغم من قبحه .

ــ ويعلم أن الضلال فى العقيدة يصد عن الطريق المستقيم ، والسعادة فى الدنيا ، والآخرة .

ــ ثم هو يضع البديل الواضح ، وهو إذ يعرضه فمن وجهة نظره كجندى مسلم .

ــ وهذا البديل الحق هو : أن السجود لا يكون إلا لله سبحانه ، ويعرض من الدلائل على صدق هذا البديل الحق ، فيما نشاهد ــ فهو الذى يخرج الخبء فى السموات من نجم ورياح .

ـــوهو الذى يخرج الخبء فى الأرض من بذرة تنبت ، فتكون شجرة كبيرة .

وهو الذى يعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ــ وإذا كانت امرأة سبأ لها عرش عظيم فى نظر الناس ، فالله سبحانه لا إله إلا هو رب العرش العظيم واللائق به سبحانه ، ودونه كل العروش .

إن الجندى الهدهد لم يكن آلة تصوير ، ولا آلة تسجيل فقط ، بل كان فوق هذه وتلك ، ناقداً واعيا ، مدركا للمسيرة الإسلامية ، ووظيفة الدولة المسلمة ، وجيشها القوى .

فهل يصيخ العالم الإسلامى إلى هذا الصوت من أعماق التاريخ ؟ ويستفيد من موقف الهدهد الجندى المسلم ، ومن وعيه وإدراكه ؟ .

وفى هذا يقول الله تعالى :

**﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾** (٢١) .

وكأن التهديد الذى أعلنه سليمان ـــ عليه السلام ـــ من عقابه للهدهد بالعذاب الأليم ، أو القتل قد نسى ولكن شجاعة الجندى المسلم أمام حبل المقصلة هى التى بهرت النفوس .

**٤ ـــ التحقق من صحة الدعوى :**

قال الله تعالى على لسان سليمان ـــ عليه السلام ـــ مخاطبا الهدهد ، وعلى لسان ملكة سبأ أيضاً :

---

(٢١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٢٤ إلى رقم ٢٦

**﴿ قال : سننظر . أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم . فانظر ماذا يرجعون ؟ قالت : يأيها الملأ ، إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾** (٢٢) .

على الرغم من وضوح الدعوى ، وتكامل أطرافها ، وتأكيد القائل لها ، فلابد أن يتحقق القائد ويتبين أمرها على وجه اليقين . فقد ارتبطت هذه الدعوى بأمتين : أمة كافرة مشركة فى سبأ ، وأمة مسلمة ستتحرك تجاه هذا المنكر ، وتؤدب أهله ، أمة تضع المنهج الصحيح فى القضايا والأحكام . إن سليمان – عليه السلام – يعلن : سننظر فى تلك المسألة ، أصدقت ، أم كنت من الكاذبين ؟ وربما يدل التقديم للصدق ، والخطاب بالتاء إشارة إلى الحالة النفسية التى عليها سليمان – عليه السلام – من ترجيحه صدق الهدهد . وأيا كان الأمر ، فسيتحمل الهدهد من جديد جزءاً كبيراً من عملية التحقيق ، إنه كلف حمل رسالة إلى أرض اليمن ، يلقيها إلى الملكة ، ولا يدرى فحوى رسالة كلف حملها هذه المسافة البعيدة « اذهب بكتابى » ولم يقل ولو على سبيل التعظيم اذهب بكتابنا . فدلت العبارة على أن القائد العام هو الذى يعلم دون غيره مضمون الكتاب ، كما دل هذا المضمون من جديد على قوة سليمان – عليه السلام – ؛ حيث وجه أمره صراحة إلى ملكة سبأ ، بأن تأتى إليه مذعنة وملبية .

ورأت الملكة طيراً صغيراً محلقا فى الفضاء يهبط عليها ، ويلقى إليها رسالة ، فتفض الرسالة وترى عجباً :

– إنها رأت هذا الطائر ، قد سخر لملك أكبر منها وأعظم .

– ويقوم بتنفيذ الأمر بحيطة وأمانة إلى نفس الشخص المرسل إليه .

– والكتاب من ملك اسمه سليمان ، واستفتحه باسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يستفتحه باسمه شأن الملوك المعروفين ، فهو كتاب كريم إذن .

(٢٢) سورة النمل ، الآيات من رقم ٢٧ إلى رقم ٣١ .

- وها هى تقرأ المراد من الكتاب : ألا تخالفوا أمرى لكم ، وأتونى على جناح السرعة مذعنين ومستسلمين طائعين .

ورأت الملكة الملابسات المتعلقة بالكتاب ، ورأت المضمون بخطورته وقوته ، فكان عليها أن تفكر فى الامتثال .

## ٥ - الملكة تناقش أمر الكتاب :

إن هذه المرأة من نمط فريد من الناس ، نمط يستعمل عقله ، وتفكيره إلى حد ما ، ولا يعيبه إلا تغلب الشيطان عليه بالإغواء ، شأن العقلاء من قريش . الذين تأخر إسلامهم ، ثم هداهم الله سبحانه ، فكانوا من أفضل المسلمين جهاداً ، وقيادة ، فخيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

وخاطب الكتاب القوم جميعاً ؛ لأن الأمر متعلق بهم جميعهم ، وما على الملكة إلا التنفيذ .

وإن كان قد سبق لفرعون مصر الطاغية أن حرم قومه مجرد المناقشة فيما يتعلق بمصيرهم ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ (٢٣) فإن ملكة سبأ كانت على النقيض منه ؛ جمعت سادة القوم فى مجلسهم الخاص ، وطرحت عليهم المشكلة للمناقشة ، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ **قالت : يأيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون** ﴾ (٢٤) .

واعتبرت فى بداية النقاش أن هذا الأمر أمرها ، ولكنها قررت على سبيل التأكيد بأسلوب القصر . أنها لا يمكن أن تقطع فى أمرها والمتعلق بهم حتى يوافقوا عليه ، ويشهدوا له . ولكن أنى لقوم ذابت شخصيتهم أن تتحرك ألسنتهم إلا بالنفاق ، والعبودية : وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(٢٣) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٢٤) سورة النمل ، الآية ٣٢ .

﴿ قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين ﴾ (٢٥) .

عجيب أمر الجاهلية ، إنها تنطق بلغة واحدة قديماً ، وحديثاً .

منطق الجبن ، والخوف ، والعبودية للبشر الذين لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ، إنّ الملكة تعطيهم الحق فى المشورة ، ولكنهم يرفضونها ، لأنهم لم يتعودوا رفع الرءوس ، وظلت متصلبة على الانحناء للبشر ، فماذا عليكم إذن أيها القوم ، وقد رفضتم الإسهام بإبداء الرأى ؟ عليهم بذل قوتهم ، وإلى أى اتجاه ، معصوبى العيون ، لا يدرون إلى أين يسيرون ؟ وإلى أين يقاتلون ؟ أو يُقْتَلون ؟ (٢٦) .

ووقعت الملكة فى حيص بيص ؛ تطلب إليهم مناقشة ما جاء بالكتاب ، وهى أصلا بحاجة إلى هذه المناقشة الشورية ، ولكنهم يرفضون بإصرار ، لا عن معصية لها ، بل عن مزيد من الذل والخنوع للأسف الشديد .

وأصاب الملكة ذعر شديد ، حيث وقفت وحيدة فى الميدان ، أمام من هو أعظم منها ملكا ، وأوسع سلطانا . وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(٢٥) سورة النمل ، الآية ٣٣ .

(٢٦) فى صباح ١٧ من تموز يوليو عام ١٩٥٨ م سمع العالم أنباء انقلاب عسكرى ، أطاح بالملكية حينئذ ، وتلقى هذا النبأ كالملايين من البشر رئيس دولة ووزير خارجيته ، ونائبه ، وقد كانوا بإحدى الدول الأوربية الاشتراكية ، وكانوا متهيئين للعودة إلى الوطن ، واضطر الرئيس إلى أن يتعرف على شخصية هذا الانقلاب ، واتجاهه ، ولم يجد بدا من أن يسأل المرافقين له ؛ الوزير ، والنائب ، إن كان لديهما رأى فى ذلك . وما سبق ليس هو الشاهد هنا .. ولكن السؤال والإجابة كانتا على هذا النحو : أنواصل المسيرة إلى الوطن ؟ أم نغير المسيرة ونطير إلى موسكو ؛ نسألها عن هوية الانقلاب ، ومن قاموا به ؟ ولم يكن من العادة أن يسمع الرئيس ما يخالف رأيه ، وإلا فالويل لمن يخالف . فاتفق كل من الوزير والنائب على إجابة من نوع غريب . وهى : =

**﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ﴾** (٢٦) .

فالملك سليمان – عليه السلام – يغطى نفوذه مساحة كبيرة من الأرض ، وها نحن قد وقعنا فى دائرة نفوذه . ودل كتابه على ذلك .

والشأن بالملوك فى نظرها إذا ما دخلوا فاتحين أرضاً ، أن يفسدوا فيها ، لا أن يصلحوا ، وحتى يقيموا لأنفسهم سلطانا فى تلك الأرض يذلون أعزة القوم ، وفى مقدمتهم القائد العام ، وهو هنا الملكة . إن الوضع السياسى سينقلب ، وكذلك الوضع الاجتماعى ، والاقتصادى .. وعلى الرغم من كل هذا لم يتحرك الملأ لما يتعلق بمصيرهم إلا بالذل والهوان .

هؤلاء هم الملوك فى نظر ملكة سبأ ، تحركهم المادة ، من أجلها يفتحون البلدان ، وعليها يعيشون ، ولها يسيل لعابهم ، وملوك على هذا النمط تؤثر فيهم الهدايا الضخمة التى تنتفخ بها جيوبهم هم دون شعوبهم المسكينة الذليلة .

---

= أيها القائد الزعيم ، اخل بنفسك ، فإلهام العبقرية سيرشدك حتما إلى الصواب ، ونحن موافقان على أى الرأيين تختار . وفى صباح اليوم التالى طلعت الصحف بهذا الخبر . وقرأ الشعب المسكين ما قرأ ، وللأسف كان لسان حاله مع الوزير ، والنائب . وأعاد التاريخ قولة العبيد القدامى : « والأمر إليك ، فانظرى ، ماذا تأمرين » وقد صنع النائب نفس الصنيع حين تولى الزعامة بعد موت صاحبه ، وقال وزراؤه كل منا لا يتكلم إلا إذا رأى الضوء الأخضر ، ثم مات أيضاً وبدأت كالعادة تظهر فضائح أخرى .

وفى جلسة مجلس الثورة فى ١١ من فبراير سنة ١٩٥٤ م نوقش فيها ، كيف يبعد القادة الأحرار شبح الحكم النيابى ، والحرية للشعب للأسف ، وقد أعطى الأعضاء زعيمهم تفويضاً بإتخاذ أى قرار يراه صالحاً دون الاجتماع بالمجلس ( ص ٩٣ مذكرات البغدادى ج ١ عن صفحات من التاريخ لصلاح شادى ص ٢٣٦ ) .

فإن كان من فارق بين مواقف التاريخ ، فالمواقف المعاصرة أشد لؤماً ، وخبثاً ، وأشد جبناً من الأتباع الجاهليين .

(٢٦) سورة النمل ، الآية رقم ٣٤ .

وتصور أخى القارئ هدية من ملكة خائفة ؛ من كل شيء ، وعلى كل شيء، ترسلها مرضاة لمن ترسل إليه ، وهو أعظم منها ، وأكبر ، فكيف تكون هى ؟ الله أعلم ، وفى هذا يقول تعالى :

**﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾** (٢٧) .

### ٦ – موقع الهدية فى نفس سليمان – عليه السلام :

جاء رسل الملكة بهديتهم ، فعلم سليمان – عليه السلام – على الفور مغزاها ، والهدف منها ، وكثيراً ما حولت الهدايا المادية مجريات الأمم ، ورسالتها .

قد تكون الهدية فى صورة سبائك من الذهب ، والجواهر .

وقد تكون فى صورة معونة غذائية .

وقد تكون فى صورة سلاح تقليدى ، لا يجدى فى حرب أمام ما استحدث من سلاح .

وقد تكون فى صورة معلومات ، وأسرار إخبارية .

وقد تكون فى صورة وهمية لتعايش سلمى .

وقد تكون فى معاضدة ضد دولة كبرى لها خطر على الدولة .

وقد تكون فى صورة متع رخيصة . سلاحها العاهرات ، مثل الأفلام الجنسية حديثاً .

وعلى أى حال ، إن محتويات الهدية ، التى لم يصرح القرآن بها ، غالباً ما تكون فى الحيز المادى وبعيدة عن الجوهر السامى الذى تقوم عليه دولة الحق (٢٨) .

---

(٢٧) سورة النمل ، الآية رقم ٣٥ .

(٢٨) « فى سنة ١٩٠٠ دخل قره صو أفندى على السلطان ( عبد الحميد ) بفضل الفريق عارف بك ، وأبلغه ؛ أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية ، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضى الواقعة فى المثلث القائم ، ما بين يافا ، وغزة ، والبحر الميت ، مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى =

الخزينة السلطانية الخاصة ، وعشرين مليوناً ، تعرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة .. .

فغضب السلطان ، وطرده من حضرته » .

فقد كان السلطان عبد الحميد . قد أصدر فرمانا فى ١٨٨٨ بمنع الهجرة الجماعية اليهودية إلى أراضى الدولة العثمانية ، ومنها فلسطين ، كذلك قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر فى فلسطين .

وعلى أثر طرد قره صو أفندى ألف اليهود جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة .. والدونمة كما هو معروف ، لقب يطلقه الأتراك على جماعة اليهود ، الذين هاجروا من أسبانيا ، واستوطنوا « سلانيك » وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطنا بالدين اليهودى ( بمجرد نجاح المؤامرة ، واستيلاء تنظيمهم على السلطة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك ، أعلنوا يهوديتهم التى أخفوها أربعة قرون ) ومنهم جاويد بك ، وبعض كبار رجال الاتحاد والترقى ، فاتصلت بأحرار الترك ، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقى ، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازى ، وكانت لهم اليد الطولى فى الانقلاب وخلع عبد الحميد .

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد غير عمانوئيل قره صو أفندى ، زعيم يهود « سلانيك » الذى طرده عبد الحميد – قبل ربع قرن – ورفض هديته .

ألا ما أبشع اليوم أن نقف ضد عبد الحميد ومع عمانوئيل قره صو !! .

ولا ننسى أن عبد الحميد ، رفض توقيع اتفاقية تسليم البترول العراق للإنجليز . وكان توقيعها من باكورة أعمال الاتحاديين ، عند وصولهم إلى السلطة بعد الانقلاب .

كتاب القومية والغزو الفكرى ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، والفهرس ، نشر مكتبة الأمل بالكويت ، محمد جلال كشك . نقلا عن كتاب خطر الصهيونية على الإسلام والمسيحية ، وعن الأهرام ٢٤/ ٢/ ١٩٢٠ ، ٦/ ٣/ ١٩٢٠ نقلا عن يوميات الإمام محمد شاكر ، بقلم الشيخ على شاكر .

ويكون الملك أو الحاكم . أيا كان الاسم أمام امتحان عنيف : أيقبلها ويرجع عن قراره ؛ حيث الرخاء المؤقت ، والأمن المزيف ، أم يرفضها ، ويصر على دعوة الحق ؟ .

وليس هناك من أى شك أن سليمان – عليه السلام – كان من الصنف الثانى .

وعلى درب الأنبياء الكرام . الحكام الصالحون ، الذين يأخذون بدولهم إلى بر الأمان . .

رد سليمان – عليه السلام – إلى ملكة سبأ هديتها ، فالله سبحانه قد أعطاه خيراً منها ، وقرر الزحف إليهم بجنود لا قبل لهم بها ، يذل بهم أعداء الله سبحانه .

وفرق بين ذلة إفساد ظنتها الملكة حسب ما ألفته من ملوك الدنيا ، وذلة المادى الملحد الذى اتخذ الهدايا وسيلة لتطويع الشعوب ، وتحويل مسيرتها ، وتنكيس غاياتها قال الله تعالى :

**﴿ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود ، لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة ، وهم صاغرون ﴾** (٢٩) .

---

= تلك هدية مطلع القرن العشرين ، وهى على فداحتها وعظم الجرم فيها أهون بكثير من هدايا توالت رزاياها على الأمة وابتلعها ملأ القوم باستساغة ، ولا زالت حتى الآن . والله أعلم بالمستقبل . وهى امتداد – مع مزيد من الخبث – للأسلوب ذاته الذى اتخذته ملكة سبأ فى إرسال هديتها إلى سليمان – عليه السلام .

ولكن سليمان نبى الله سبحانه عصمه ربه أن يكون إلا حيث إقرار الأمن والأمان فى الأرض ، فى ظل شريعة الحكيم الخبير شريعة الحق الذى تؤازره القوة بكل أنواعها ، وألوانها .

(٢٩) سورة النمل ، الآيتان رقما ٣٦ ، ٣٧ .

وقد علم سليمان – عليه السلام – أن مثل هذه الرسالة ، ستزيدهم خوفا على خوف وجبنا على جبن ، وسيتحركون مرغمين ملبين مضمون الكتاب الأول :

**﴿ ألا تعلوا على ، وأتونى مسلمين ﴾** (٣٠) .

ولذا بدأ يهيئ أمر استقبالها ، دون أن تخبره الملكة بذلك ، ولكن هذا الاستقبال من نوع فريد فى تاريخ البشرية كلها .

**٧ – العفريت الذى عنده علم من الكتاب :**

طوت الآيات الكريمة توضيح الأثر لرفض الهدية ، والرد الحازم والحاسم ، والأثر النفسى الذى ملك على الملكة ، والملأ جميعا نفوسهم ، فالسياق ، والسباق ، واللحاق توكد أن الأثر كان بالغاً لدرجة أنها لم تقو على أدنى مخالفة لما طلب إليها سلفاً ، وعزمت على الانتقال من أقصى الجنوب ، حيث سبأ اليمن ، إلى أقصى الشمال ، حيث الأقصى المبارك .

وفى مجلس نبى الله سليمان – عليه السلام – كان حوار ، ذكرته آيات كريمة ، قال تعالى :

**﴿ قال : يأيها الملأ ، أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده ، قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى ؛ أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر ، فإن ربى غنى كريم . قال : نكّروا لها عرشها ننظر ، أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ؟ ﴾** (٣١) .

---

(٣٠) سورة النمل ، الآية رقم ٣١ .
(٣١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٣٨ إلى رقم ٤١ .

موضوع الحوار فى هذه الآيات السابقة هو إثبات أن ما أعطاه الله سبحانه ، لنبيه سليمان – عليه السلام – فوق ما تتخيله الملكة .. .

والوسيلة لإثبات ذلك ؛ هى نقل عرشها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فى لمح البصر ، أى قبل أن تحضر هى مع ملئها .

فكيف تم ذلك ؟ .

– طلب سليمان – عليه السلام – إلى جنوده من الجن . من يستطيع أن يحضر عرش الملكة قبل أن يأتونى مسلمين ؟ .

– ويتضح بدءاً أن تلك القوة المعطاة لنبى الله سبحانه ، مسخرة لهداية البشرية إلى الإسلام لا الإفساد فيها ، كما زعمت الملكة قبل ذلك .

– العفريت الأول الذى أراد أن يتحمل إحضار عرش الملكة بين :

أنه يستطيع إحضار العرش ، قبل أن يقوم سليمان – عليه السلام – من مقامه .

وأنّ لديه القوة والكفاءة اللازمة لتنفيذ هذا الأمر العسكرى .

وأنه أمين على العرش ؛ يحفظه من الخلل ، ويمنعه من الانتقاص (٣٢) .

---

(٣٢) تأمل أيها القارئ ما ذكر هنا على لسان العفريت ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ وما ذكر فيما سبق على لسان إحدى فتاتى شيخ مدين بشأن موسى – عليه السلام : ﴿ **ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ ( القصص ٢٦ ) وما ذكر على لسان يوسف – عليه السلام – بعد خروجه من السجن ، وتقريب الملك له : ﴿ **قال : اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إنى حفيظ عليم** ﴾ ( يوسف ٥٥ ) تر فى ضوء الآيات المتقاربة الآتى :

١ــ حين يكون العمل بحاجة إلى جهد عضلى ، وقدرة تتناسب والعمل فلابد من صفتين :

( ا ) القوة . (ب) الأمانة ؛ فالقوة للقيام بالعمل فعلًا ، والأمانة حتى =

ولكن هذا فى نظر سليمان - عليه السلام - وقت طويل ، فقد يعنى هذا العفريت ساعة أو اثنتين ، وفى ضوء ما ذكره « قبل أن تقوم من مقامك » وقد يأخذ مقام نبى الله سبحانه هذه المدة أو قريبا منها .

وبرز فى هذا الحين العفريت الذى عنده علم من الكتاب ، وهو اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، فعن بريدة - رضى الله عنه - قال : سمع النبى - ﷺ - رجلاً يدعو ، وهو يقول : اللهم ، إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ؛ الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

قال : فقال :

**« والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »**(٣٣) .

---

= لا يكون غش ، أو إهمال ، أو خيانة ، أو إفساد لآلة مثلًا ، أو سرقة ، فإذا فقدت الأمانة أصبحت الفائدة من القوة معدومة . والأمانة التى ذكرت على لسان العفريت ، سيظهر أثرها بعد قولها ، والذى سيحاسبه على تقصيره فيها هو سليمان - عليه السلام - ، أما الأمانة التى وردت بشأن موسى - عليه السلام - فقد جربت فى عالم الواقع عند البشر ، فقول الفتاة إذن بمثابة الشهادة لمن يستحقها .

٢ـ وحين يكون العمل بحاجة إلى جهد ذهنى ، تصير الكفاءة العلمية بديلة للقوة العضلية ، وتبقى الأمانة صفة لازمة لأى عمل ، كما تدل عليه الكلمة **« حفيظ »** فيما ورد على لسان يوسف - عليه السلام .

(٣٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه . وقال الترمذى : قال شيخنا أبو الحسن المقدسى : هو إسناد لا مطعن فيه ، ولا أعلم أنه روى فى هذا الحديث أجود منه ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ما ورد فى هذا الباب من حيث السند .

واختلف العلماء فى تعيين اسم الله الأعظم ، والراجح من أقوالهم أنه دعاء مؤلف من عدة أسماء من أسمائه سبحانه ، إذا دعا به الإنسان مع توفر شروط الدعاء

قال هذا العفريت مخاطبا نبى الله سبحانه، سليمان – عليه السلام :

﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ أى امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، ويكون العرش حاضراً عندك ، دون انتقاص لأى جزء منه .

ورأى سليمان – عليه السلام – العرش ماثلاً أمامه ، فتوجه إلى الله سبحانه بالشكر ، فالشكر لله سبحانه على نعمه ، سبيل إلى امتدادها ، وسبيل إلى مرضاة الوهاب الرزاق ، سابغ النعم ، أما كفران النعمة ، والعياذ بالله سبيل إلى غضب الله العزيز الجبار ، والغنى عن عباده ، فسوف لا تزيده طاعة الطائعين ، ولا تنقصه – سبحانه – معصية الجاحدين ، والمرء أمام هذه النعم فى ابتلاء واختبار ، يفوز أو يكون من الهالكين .

عن أبى ذر الغفارى – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

**« يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكْسُكم . يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم**

---

= المطلوبة شرعاً استجاب الله له ، وليس هو سرا من الأسرار الذى يعطيه الله لبعض الأفراد ، فتنخرق لهم العادات ، ويحققون ما يعجز غيرهم عن تحقيقه ، ولا ينبغى أن نزيد شيئاً فى كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله – ﷺ . ( العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق . موضوع : اسم الله الأعظم ص ٣٠ ، ٣١ ) .

**وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم ، أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(٣٤) .**

٨ – الملكة فى الأرض المباركة :

جاء من عنده علم من الكتاب بعرش الملكة إلى الأرض المباركة ، وصار فى حوزة سليمان – عليه السلام – فطلب إلى جنوده تمويه هذا العرش بتغيير بعض صفاته ، ويلاحظ أن التغيير هنا بأمر سليمان – عليه السلام – ولم يكن انتقاصا منه بالطريق ، كما نلاحظ الغاية منه ، وهى اختبار ذكاء الملكة حين تراه ، بعد أن تحضر .. وقد وضع هذا العرش فى صرح ممرد من قوارير .

وجاءت الملكة فرأت مشهداً لم يَخطر على بالها أبداً ، رأت عرشاً عظيما فى صرح حسبت أرضه لجة .

قيل لها : أهذا العرش الذى تشاهدينه مثل عرشك الذى تتباهين به ، وتجلسين عليه فى سبأ ؟ ولم يكن السؤال على نحو « أهذا عرشك » لأمرين :

١ – أنهُ نكِّر ، وغيرت بعض صفاته .

٢ – التمهيد لما سيأتى بعد ذلك مما هو أعجب .

---

(٣٤) أخرجه مسلم ، المختصر ، كتاب الظلم ، باب فى تحريم الظلم ، والأمر بالاستغفار والتوبة رقم ١٨٢٨ ص ٣٤٣ ج ٢ ورد عقبه . قال سعيد : كان أبو إدريس الخولانى إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ، واختاره النووى فى الأربعين النووية رقم ٢٤ . وعزاه أيضاً زين الدين المناوى إلى أبى عوانة ، وابن حبان والحاكم . فى الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية رقم ٤٨ ص ٣٨ ، ٣٩ .

وكانت الملكة ذكية فى إجابتها ؛ فلم تقل إنه هو لأسباب منها :

١ - ما تشهد من مخالفة صغيرة .

٢ - استحالة نقله فى نظرها .

٣ - أنها تركت العرش وراءها فى ملكها ، والمدة الوجيزة لا تكفى لنقله ، لو كان نقله ممكنا .

وللأسباب السابقة ، قالت : كأنه هو ، ولم تقل : إنه هو .

ثم قال سليمان - عليه السلام - إنه أوتى العلم منذ أن أرسله الله سبحانه ، وقد أنعم عليه بالإسلام . أما هى وحتى هذه اللحظة فقد حَجَبَ عنها العلمَ والخيرَ شركُها بالله سبحانه . وفيما سبق يقول الله تعالى :

**﴿ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين ﴾** (٣٥) .

وطلب إلى الملكة أن تدخل الصرح ، وقد كانت تظن ألا يملك أحد غيرها أكثر منها ، وحين همت بالدخول ، وقد رأت فى أرضه شكل أمواج ، هى والحقيقة سواء ، لصفائها ودقة إحكام صنعها فما داخل نفسها أى شك فى أنها أمواج ، وعلى الفور شمرت عن ساقيها ؛ حتى لا تبتل ثيابها بالماء ، وعزمت على الدخول تلبية لأمر سليمان - عليه السلام - فقيل لها : إنها ليست بأمواج حتى ترفعى ثيابك ؛ إنه صرح ممرد من قوارير شفافة راقية .

رأت الملكة بعينيها مدى العظمة التى يعيش فيها سليمان - عليه السلام - وعلمت منه أن هذا كله من فضل الله سبحانه عليه وعلمت أن القوم جميعاً مسلمون موحدون لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به أحداً . فأعلنت إسلامها ، واعترفت بأنها قد ظلمت نفسها فى سابق عهدها ، وما كان لها أن تفعل ذلك ، وفى

---

(٣٦) سورة النمل ، الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

هذا يقول الله تعالى :

**﴿ قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾** (٣٦) .

أما أبرز الأسباب التى دعت الملكة إلى الإسلام فيمكن أن تكون :

– أنها رأت ائتمار الطير بأمره ، حين جاء الهدهد بالكتاب .

– ورأت أنّ سليمان – عليه السلام – لا يتحول عن هدفه بالعطايا ، والهبات .

– وأن هدفه هو إخضاع الناس لرب الناس ، لا للشمس ، ولا للقمر .

– وأنه قد ملك من متاع الدنيا فوق ماتتصور .

– وأن هذا المتاع سخر لطاعة الله سبحانه ، وليس سبيلا لطغيان .

– ولذا كان إسلامها أن تقول : أسلمت مع سليمان ، وليس لسليمان ، وإسلامها لله ، وليس لشمس أو قمر .

– وهذا الإله هو الرب للعالمين ، ولا رب سواه ، ويجب أن يخضع له – دون غيره – البشر أجمعون .

**(ج) – تسخير الجن :**

سبق جانب من هذا فى قصة الهدهد ، تسخير الجن ، لإحضار عرش الملكة ، وحين بناء الصرح الممرد من القوارير ؛ تنفيذاً لأمر الملك سليمان – عليه السلام ، وقد سخرهم – عليه السلام – أيضاً فى جوانب أخرى ، وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(٣٦) سورة النمل ، الآية ٤٤ .

**﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملاً دون ذلك ، وكنا لهم حافظين ﴾** (٣٧) .

وقال أيضاً :

**﴿ والشياطين كل بناء ، وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا ، فامنن ، أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** (٣٨) .

وقال :

**﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، (٣٩) وجفان**

---

(٣٧) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨٢ .

(٣٨) سورة ص ، الآيات من رقم ٣٧ ، إلى رقم ٤٠ .

(٣٩) ربما لم تكن محرمة فى شريعة سليمان – عليه السلام – كما قال الحسن . وقد حرمت فى شريعتنا سداً للذريعة ، لئلا تعبد من دون الله ( صفوة التفاسير ، للصابونى ) . فإذا كانت ضرورة أو حاجة مع الأمن من تقديسها كانت مباحة بمقدار الضرورة والحاجة فقط ، ومما ورد بشأن هذه الحاجة .

عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبى – ﷺ – وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله – ﷺ – إذا دخل يتقمعن منه ( أى يهربن ، ويخفن ) فيسر بهن إلىّ ، فيلعبن معى » صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب ، الانبساط إلى الناس . ج ٨ ص ٣٧ ، وعزاه أيضاً صاحب مفتاح كنوز السنة إلى الإمام/أحمد ، وأبى داود ، وابن سعد ص ٣٢٥ .

وعن الربيع بنت معوذ – رضى الله عنها – قالت : أرسل النبى – ﷺ – غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار « **من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم** » قالت : فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك ، حتى يكون عند الإفطار . أخرجه الشيخان ، كتاب الصيام ، باب ، من أكل فى عاشوراء فليكف بقية يومه . رقم ٦٩٦ ص ٢٥٢ .

**كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور ﴾ (٤٠) .**

وفى ضوء الآيات الكريمة السابقة نرى :

– أنَ القائد العام للدولة الإسلامية جمع فى يده – بإذن الله سبحانه – كل أسباب القوة ، وأنها قد سخرت لصالح الأمة ، ولم تكن الأمور فوضى تسيَر على

---

والشاهد فى الحديثين : « البنات » التى كانت تلعب بها عائشة – رضى الله عنها – وهى صغيرة مع صواحبها وإقرار النبى – ﷺ – ذلك . وأيضاً : « ونجعل لهم اللعبة من العهن ، أى من الصوف لشغل الصغار عن التفكير فى الطعام حتى المغرب .

قال الشيخ ناصر الدين الألبانى فى كتابه آداب الزفاف فى السنة المطهرة . الطبعة الثالثة ص ١٠٨ بعد ذكره هذين الحديثين : فقد دل هذان الحديثان على جواز التصوير ، واقتنائه ، إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة تربوية تعين على تهذيب النفس ، وتثقيفها ، وتعليمها ، فيلحق بذلك كل ما فيه مصلحة للإسلام، والمسلمين من التصوير ، والصور ، ويبقى ما سوى ذلك على الأصل ، وهو التحريم ، مثل صور المشايخ ، والعظماء ، والأصدقاء ، ونحوها ، مما لا فائدة فيه . ا هـ

هذا ، ومما ورد من الأحاديث المحرمة للصور والتماثيل المستثنى كما سبق :

قال أبو طحلة – رضى الله عنه : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « **لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ، ولا صورة تماثيل** » أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب اللباس والزينة ، باب ، لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ، ولا صورة . رقم ١٣٦٣ ص ٥٤٧ ، وفى الباب أيضاً أحاديث عن عائشة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة – رضى الله عنهم – فى نفس المرجع .

ومَن أراد المزيد فى هذا المبحث فليرجع إلى الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوى وآداب الزفاف للشيخ ناصر الدين الألبانى . ففيهما فوائد جليلة . والله أعلم .

(٣٩) ، (٤٠) سورة سبأ ١٢ ، ١٣ .

عواهنها ، بل كانت مضبوطة محكمة بيده كما تدل عليه « يغوصون له » « هذا عطاؤنا » أى هذا عطاؤنا لك ، « يعمل بين يديه بإذن ربه » « يعملون له » .

– تسخيره للجن كان فى الميدان الذى لا يستطيع أن يقوم به غيرهم ، فقد كلف كلا حسب كفاءته ، وقدرته ؛ وهذا من وضع الأمور فى نصابها ، واختيار الشخص المناسب فى المكان المناسب .

– وأن تسخيره الجن بلغ الدرجة الكبرى فى ذلك ؛ فهو يملك أمرهم – بإذن الله سبحانه – كما أنه يملك عقاب من يتمرد على الأوامر بالحبس ، والقيد فى الأصفاد ، وإذاقته العذاب .

– ومن ميادين العمل للجن :

( ا ) ما سبق فى قصة الهدهد وملكة سبأ من بناء الصروح ، ونقل ما لا يستطيع غيرهم نقله مثل عرش الملكة .

(ب) الغوص فى الماء ؛ بحثا عن كنوزه ، وأسراره ، مثل الأسماك بألوانها ، وأنواعها ، واللآلئ والمرجان ، ومغاراته ، ونباتاته ، ودرجات عمقه من مكان إلى آخر .

(ج) العمل الصناعى ، فى بناء المحاريب للعبادة ، والتماثيل المصورة ، والأحواض للماء ، والقدور الثابتة . على نحو يفوق عمل الإنسان .

**(د) تسخير الريح :**

قال الله تعالى :

**﴿ ولسليمان الريح عاصفةً ، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شىء عالمين ﴾** (٤١) .

وقال أيضاً :

(٤١) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

**﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ﴾** (٤٢) .

وقال :

**﴿ فسخرنا له الريح ، تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾** (٤٣) .

وفى ضوء الآيات الكريمة نرى :

– أن الدائرة التى كانت خاضعة لنفوذ سليمان – عليه السلام – بمقدار تحرك الريح العاصفة لمدة شهر غادية ، وشهر آخر رائحة . مع العلم بأن الرياح العاصفة تزيد عن خمسين ك م فى الساعة ، وعلى وجه التقريب تكون النقطة البعيدة التى تقع فى دائرة النفوذ على هذا النحو : ٥٠ × ٢٤ × ٣٠ = ٣٦,٠٠٠ ك م تقريباً من كل جهة من الجهات الأربع .

– وأن هذه الريح تتحرك به لينة رخية ليبلغ ما يريد **﴿ تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾** .

– وأن المركز الذى تنطلق منه ، وتأتى إليه هو الأرض التى باركها الله سبحانه ، وهى أرض فلسطين .

– وأن كل شىء من ذلك وفق علم وتخطيط من العليم الخبير سبحانه وتعالى .

**(هـ) الجياد :**

قال الله تعالى :

**﴿ ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ؛ إنه أواب ؛ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى ، حتى توارت بالحجاب . ردوها على . فطفق مسحاً بالسوق ، والأعناق ، ولقد فتنا**

---

(٤٢) سورة سبأ ، الآية رقم ١٢ .

(٤٣) سورة ص ، الآية رقم ٣٦ .

**سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال : رب اغفر لى . وهب لى ملكا ، لا ينبغى لأحد من بعدى ؛ إنك أنت الوهاب ﴾ (٤٤) .**

وتشير الآيات الكريمة السابقة إلى سلاح آخر بجيش سليمان – عليه السلام – إنه سلاح الخيل المعد للقتال ، وإعدادها من حيث دربتها على السرعة ، والقوة ، والكثرة . كما أنها جميلة حتى وصلت بمجموع هذه الصفات إلى درجة شغلت بها سليمان عن ذكر الله سبحانه .

وقد عبر سليمان – عليه السلام – عن الخيل بالخير ، لأنها من أسبابه .

فعن عروة البارق (٤٥) – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

**« الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة . الأجر ، والمغنم » (٤٦) .**

وذلك الخير كان تحت إمرة النبى الملك سليمان – عليه السلام – كما يطلب أن يكون تحت إمرة الصالحين من أبناء الأمة .

وبقية الآيات فى أمر الجياد تتناول :

– أنها من كثرتها شكلت عرضاً عسكريا أمام سليمان – عليه السلام .

– وقد بلغت عدداً كبيراً أن أخذت وقتاً طويلاً ، حتى بعد غروب الشمس .

---

(٤٤) سورة ص ، الآيات من رقم ٣٠ إلى رقم ٣٥ .

(٤٥) هو عروة بن عياض بن أبى الجعد البارقى ، ذكره ابن عبد البر ، وكان استعمله عمر على قضاء الكوفة ، وضم إليه سليمان بن ربيعة قبل أن يستقضى شريحاً . قال ابن حجر إن كان محفوظاً فهو ابن أخى عروة بن أبى الجعد الماضى ، ومنهم من جزم بأنه هو ، وكان فى دار عروة سبعون فرساً . الإصابة ج ٣ ص ١٠٥ رقم ٦٤٢٢ . والاستيعاب هامش الإصابة ج ٣ ص ١١١ .

(٤٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإمارة ، باب الخيل فى نواصيها الخير ، رقم ١٢٢٧ ص ٤٩١ ، وفى باب أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عمر – رضى الله عنهم أجمعين .

– وحين غابت عنه ( الشمس ، أو الجياد ) وتوارت بالحجاب ، تذكر أمراً واجبا عليه ، وقد فات وقته فأحسّ الندم .

– طلب سليمان – عليه السلام – إلى جنوده أن يردوا علية جياده التى كانت السبب فى شغله عن ذكر ربه سبحانه ، فبدأ يذبحها كحركة عملية فى الرجوع إلى الله سبحانه والتوبة إليه .

– وكانت فتنة لسليمان – عليه السلام – واختبار له ، سرعان ما تاب ورجع إلى ربه سبحانه ، وقبل الله توبته ، فوهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

وبذلك نرى أن جيش سليمان – عليه السلام – قد تكون من :

١ – الإنس ، وهم الجنود العاديون .

٢ – الجن ، وهم يقومون بما لا يمكن أن يقوم به الإنس .

٣ – الطير ، ويقوم بدور الاستطلاع ، والاستكشاف ، وما يشبه ذلك .

٤ – الريح ، وتحمل ما يرى سليمان – عليه السلام – حمله عليها .

٥ – الجياد ، وهى لاستعمال الإنس قادة ، أو جنوداً .

وكل هذه الفرق فى سبيل الله سبحانه تستخدم ، فلم يكن هذا الجيش على ضخامته مدعاة لغرور ، واستعلاء على الناس ، واستبداد بهم ، بل كان سبيلاً إلى الشكر والحمد .

قال الله تعالى :

**﴿ اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور ﴾ (٤٧) .**

**﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ (٤٨) .**

---

(٤٧) سورة سبأ ، الآية رقم ١٣ .

(٤٨) سورة النمل ، الآية رقم ٤٠ .

**فتنة سليمان – عليه السلام :**

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل . ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطا إحدى شقيه ( أو أحد شقيه ) فقال النبى – ﷺ : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله »** (٤٩) .

ويتضمن هذا الحديث جملة أمور خاصة بسليمان – عليه السلام .

– رغبته الشديدة فى إيجاد جيل صالح قوى يجاهد فى سبيل الله سبحانه ، وهذا ما يجب أن يكون من كل مسلم باختيار الزوجة الصالحة ، والتربية الصالحة ، وذكر الله سبحانه وتعالى .

– تقديم النصح لكل مسلم ، فهذا صاحبه ، يلفت نظره إلى ما يلزم عليه أن يقوله ، على الرغم من العظمة التى كان عليها سليمان – عليه السلام .

– وأن ذكر الله سبحانه يجنب الإنسان الضر ، ويبارك به فى الذرية .

فعن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : قال النبى – ﷺ :

**« أما لو أن أحدهم يقول حين يأتى أهله : باسم الله ، اللهم جنبنى الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، ثم قدر بينهما فى ذلك ، أو قضى ولد لم يضره شيطان أبداً »** (٥٠) .

---

(٤٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الاستثناء رقم ١٠٧٣ ص ٤٠٩ ، وفى الباب حديث آخر ، الصاحب فيه مالك والبخارى . كتاب الأنبياء ، باب ، ووهبنا لداود سليمان ، ج ٤ ص ١٩٧ كما ذكره أيضاً فى النكاح ، والأيمان والنذور ، والاستثناء فى الأيمان ، والتوحيد ( فهارس البخارى – محمد محمود رضوان ) .

(٥٠) أخرجه البخارى ، كتاب النكاح ، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله ج ٧ ص ٢٩ ، ٣٠ ، وعزاه أيضاً الشيخ ناصر الدين الألبانى فى آداب الزفاف ص ٢٤ إلى أصحاب =

هذا وقد سبق التعبير عن الفتنة فى أمر الجياد قال تعالى :

**﴿ ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب . قال : رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب ﴾** (٥١) .

فيجوز أن يكون ما يتضمنه الحديث بيانا وتفسيراً لما أشارت إليه الآية الكريمة ، ولا يمنع أيضاً أن تكون الفتنة قد تكررت مرتين ، الأولى حين شغلت الجياد سليمان – عليه السلام – عن ذكر الله سبحانه ، والثانية ما صرح به الحديث بشأنها . والله أعلم بالصواب .

## علمه بمنطق النمل :

إن جيش سليمان – عليه السلام – أحس وجوده كل من بالأرض آنئذ ، فها هى الريح العاصفة اتسعت دائرة وظيفتها ، وها هو الطير الصغير يعلم بشأن الملكة فى سبأ ، وها هو الجن يجوب أعماق البحار والمحيطات ، وقوفاً على أسرارها . . .

وفى استعراض عسكرى لكل الفرق العاملة فى جيش سليمان – عليه السلام – اشتركت حشرات الأرض ، مشاهدة له ، وإعجابا به ، وضرب المثل بأصغر هذه الحشرات – من حيث رؤية الإنسان بالعين المجردة – للدلالة على ما هو أكبر . ضرب المثل بالنمل الصغير . قال الله تعالى :

**﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : يأيها النمل ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان ، وجنوده ، وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب ، أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ،**

---

= السنن ، إلا النسائى ففى « العشرة » والطبرانى .

(٥١) سورة ص الآيتان رقما ٣٤ ، ٣٥ .

**وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾** (٥٢) .

كأن إحدى النمال قائمة على ثغر من ثغور الوادى ؛ تحرسه ، وتنذر قومها إذا ما أحست قدوم غريب عنهم ؛ فهى التى قامت بالإنذار حين رأت سليمان – عليه السلام – وجيشه وإذا ما كانت هذه النملة على مثل هذه الصفة ، فلقومها مساكنهم ، وحصونهم الخاصة التى تحميهم من المغير عليهم ، أو من مار لا يدرى عنهم شيئاً ، وتلك المساكن جهزت لهم ، لا لغيرهم « مساكنكم » .

ولم كان الإنذار ؟ مخافة هذا الهجوم غير المقصود ، وعلى الرائد المنذر أن يحذر أبناء قومه من مغبة السكون ، وعدم الحركة ، وينصحهم بالتحصن ، والحركة ، ففى الحركة نجاة ، وفى الجمود موت ، وهلاك ، ولكنها ترفع اللوم عن سليمان – عليه السلام – وتبعد عنه تعمد الإضرار بالآخرين **﴿ وهم لا يشعرون ﴾** أى ولو شعروا بوجودنا لتغير الحال ، فالقائد نبى ، والنبى مصلح في الأرض ، ويجنب الكائنات من الهلاك ، وعلى درب الأنبياء يسير الصالحون الأتقياء .

أليست هذه أمة فى الأرض تحافظ على كيانها ، ووجودها آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ؟ أليست أمة النمل هذه مجالاً للتأمل والنظر ، وقد أمرنا أن نسير فى الأرض لهذا ؟ قال تعالى :

**﴿ قل : سيروا فى الأرض ، فانظروا ، كيف بدأ الخلق ؟ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾** (٥٣) .

وشاهدنا فى اعتبار النمل أمة ، وأن هذه الأمة تسبح بحمد ربها ، وأن لهذه الأمة مساكن وقرى :

---

(٥٢) سورة النمل ، الآيتان رقما ١٨ ، ١٩ .

(٥٣) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٠ .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

**« قرصت نملة نبيا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت . فأوحى الله إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح »** (٥٣) .

والشاهد فى قوله : **« بقرية » « أمة » « تسبح »** .

ويقول الله تعالى :

**﴿ وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شئ ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾** (٥٤) .

والشاهد فى قوله : **« أمم أمثالكم »** .

وأمة النمل هذه تعرف :

كيف تحمى نفسها ؟ .

وكيف تبنى مساكنها ، وقراها ؟ .

وكيف تميز خصمها من غيره ؟ .

وكيف تتعرف على تحركاته ؟ .

وكيف تدرك من يريد التحطيم عن قصد ؟ ومن يقع التحطيم منه عن غير قصد ؟ .

وهذه المساكن هيئت للإقامة ، والإقامة لا تكون إلا بالغذاء والأمن .

---

(٥٣) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب السلام ، باب النهى عن قتل النمل ، رقم ١٤٤٥ ص ٥٨٢ وعزاه ابن كثير إلى مسلم فقط فى تفسيره ، وهو بصحيح البخارى فعلا ، كتاب الجهاد ج ٤ ص ٧٥ ، ٧٦ من طبعة كتاب الشعب .

(٥٤) سورة الأنعام ، الآية رقم ٣٨ .

وأن الغاية من الخلق عبادة الله سبحانه « **أمة من الأمم تسبح** » .

وسمع نبى الله سبحانه سليمان – عليه السلام – صياح النملة بأبناء قومها فتبسم ضاحكا من قولها . والتبسم يدل على رضا وفرح ، واطمئنان ، و « **ضاحكا** » (٥٥) بعده يدل على بلوغ التبسم مبلغاً كبيراً ، ودعاء النبى الكريم ربه سبحانه أن يوفقه إلى الشكر على نعمه من كل جانب ، وأن يوفقه إلى عمل الصالحات ، وأن يدخله فى عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة .

---

(٥٥) وأمر الضحك المنهى عنه ، إذا استجمعه الضاحك ، وبالغ فيه ، حتى ترى اللحمة التى فى سقف الفم ، وهى اللهاة .

فعن عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – قالت : ما رأيت رسول الله – ﷺ – مستجمعاً قط ، ضاحكاً حتى ترى منه لهواته ، إنما كان يبتسم . متفق عليه . ( رياض الصالحين للنووى ، رقم ٧٠١ ، ٣١٦ ) واللهوات : جمع لهاة ، وهى اللحمة التى فى أقصى سقف الفم .

أما الضحك دون هذا الاستجماع ، وغير المصحوب بالصوت فمشروع ، وهو الذى صدر من النبى سليمان – عليه السلام .

وقد صدر هذا من النبى الخاتم – ﷺ – فعن محمد بن سعد عن أبيه قال : استأذن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – على رسول الله – ﷺ – وعنده نسوة من قريش يسألنه ، ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب ، فأذن له النبى – ﷺ – فدخل والنبى – ﷺ – يضحك . فقال : أضحك الله سنك يا رسول الله ،... البخارى كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك ج ٨ ص ٢٨ .

وقد ضحك حين رجع المجاهدون عن الطائف أخيراً بعد أن طلب إليهم القفول أولًا البخارى ج ٨ ص ٢٨ نفس الكتاب ، والباب .

وقد ضحك حين اشتد به رجل ، وقال : يا محمد ، مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء . ص ٢٩ .

وضحك حتى بدت نواجذه حين رجع من جامع أهله فى نهار رمضان بِفَرْقٍ =

## موت سليمان – عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿ **فلما قضينا عليه الموت ، ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته (٥٦) ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ (٥٧) .

إن سليمان – عليه السلام – ظل يشرف على رعيته حتى آخر لحظة من حياته ، فهو بينهم ، وليس بعيدا عنهم ، لم يلهه الملك – الذى لا ينبغى لأحد من بعده – عن القيام بمهام الأمة ، بيده عصاه التى يزجر بها دابته ، على الرغم من تسخير الرياح والجن له ، فهو على وضعه البشرى لم يتعداه ، أو يتجاوزه ؛ إنه مرتكز على عصاه ، تعينه وتسنده ، وظلت الجن تعمل بين يديه ، تخشى التمرد

---

= من تمر ، لأنه أفقر من غيره ص ٢٩ .

وعبر عنه بالتبسم فى حديث جرير – رضى الله عنه – قال : ما حجبنى النبى – ﷺ – منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسم فى وجهى ص ٢٩ .

وقد أسر النبى – ﷺ – إلى ابنته فاطمة – رضى الله عنها – فضحكت ص ٢٧ .

وأجاب عن سؤال لأم سلمة – رضى الله عنها – فضحكت ص ٢٩ .

ففرق بين ضحك وضحك كما ترى فى ضوء ما سبق ، أما التبسم فقط فهو خارج عن دائرة المقارنة ، وبذلك يكون المراد – والله أعلم – من قوله تعالى : ﴿ **فتبسم ضاحكاً** ﴾ التبسم الشديد القريب من الضحك ، أو الضحك دون مبالغة فيه ، والقريب من التبسم .

(٥٦) المنسأة : العصا ، كما قال صاحب القاموس من نسأه ، أى زجره ، وسميت العصا بذلك لأن الدابة تزجر بها .

(٥٧) سورة سبأ الآية رقم ١٤ .

فتكون من المقرنين فى الأصفاد ، وكان الله سبحانه حافظا له من أى شر يحيق به منهم ، وأراد سبحانه له الموت فمات ، وما علم بموته إلا هو ، فهو ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول** ﴾ (٥٧) ، وها هم الجن ما علموا بذلك على الرغم من قدرتهم الخارقة ، فقدرة الله سبحانه فوق القدر ، حتى ولو كانت للجن ، إنهم ظلوا يعملون مسخرين ، ويعملون لسليمان – عليه السلام – ليس لذاته فردا ، ولكن له أمة ونبيا ، وقائدا لرعية . فهم يعملون لصالح هذه الرعية . . .

وظل الجسم الميت مرتكزا على العصا مدة من الزمن لا يعلم مداها إلا خالق الزمن وصانعه سبحانه ، وجاءت حشرة الأرضة تأخذ طعامها من عصا سليمان – عليه السلام – حتى ضعفت العصا عن تحمل جسم النبى الكريم ، فهوت وخر سليمان – عليه السلام – على الأرض وكان قد مات قبل ذلك . . .

حينئذ ، وليس قبل الآن ، علمت الجن أنهم كانوا يعملون خوفا من شخص ظنوه على قيد الحياة ، ولكنه قد مات ، واعتبروا هذا العمل عذابا مهينا ، وكانوا يعلونه طاعة وامتثالا ، وذاك مؤشر إلى أنهم أفلتوا مما سخروا له بعد أن مات ، وأعطوا من الفرصة للعودة إلى صراعهم للإنسان ومحاولاتهم للإغواء والاحتيال .

بل إنهم قد بدءوا يضيقون ويبدلون فى شريعة سليمان بعد موته كما سنعرف بعد ذلك إن شاء الله مثل السحر وغيره .

## الشياطين يعلمون الناس السحر :

يتصل هذا الموضوع بقصة سليمان – عليه السلام – لأن الشياطين نسبوا

---

(٥٧) سورة الجن ٢٦ ، ٢٧ .

السحر إلى عهده – وهو براء – وقد علموا أن الله سبحانه قد سخرهم له وهو حى . ومن يزغ عن أمره أذيق عذاب السعير ؛ عملوا له المحاريب ، والتماثيل ، والجفان ، والقدور الراسيات ، وغاصوا له فى الماء ، وبنوا له الصروح ، والقدور .

وقد كان الله سبحانه حافظا له من شرهم ، ومكنه من حبس المتمرد منهم ، وتصفيده بالسلاسل ، له أن يمن على من يريد عليه المنَّ ، وله أن يبقى من شك فى أمره .

ومات سليمان – عليه السلام – فماذا كان من أمرهم ، وما الذى نسبوه إليه زوراً وبهتاناً ؟ .

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**١ – ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ .**

**٢ – ﴿ وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ؛ يعلمون الناس السحر ﴾ .**

**٣ – ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل ؛ هاروت ، وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ﴾ .**

**٤ – ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ .**

**٥ – ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾** (٥٨) .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يتضمن النص الكريم السابق أكثر من ( واو )

---

(٥٨) سورة البقرة ، الآيتان رقما ١٠٢ ، ١٠٣ .

وأكثر من ( ما ) وأن تحتمل الواو العطف ، أو الحال ، وأن تحتمل ( ما ) النفى ، أو الموصولية ، ويتغير المعنى حسب كل توجيه ، وما أظنه ، والله أعلم بالصواب . من وجود هذه الاحتمال أن يعالج موضوع السحر بحذر شديد ، وألا يتوغل المرء فيه أكثر مما تتضمنه النصوص (٥٩) .

وكتابة النص الكريم على هذا النحو ، تبين ما اخترته فى ضوء الأحاديث الشريفة ، والسياق القرآنى – والعلم عند الله – فإن وفقت إلى صواب فمن الله سبحانه ، وإن أخطأت فمن الشيطان ، والخير أردت ، وعلى الله قصد السبيل .

وأقول وبالله التوفيق :

١ – إن الله سبحانه فى هذا الجزء الأول من النص يُخبرنا عن بنى إسرائيل : أنهم اتبعوا الشياطين فى أمر السحر ، وما ألصقوه زوراً وبهتانا بسليمان – عليه السلام – وما ألصقوه بعهده ، وهذا الجزء يدين بنى إسرائيل مقدّماً ، ويدل على أنهم اتخذوا الشياطين حجة صادقة ، وأنهم اتبعوهم عن يقين ، ولكنهم بعيدون عن الحق فى واقع الأمر .

و « ما » فى هذا الجزء موصول ، مفعول به ، وضمير الصلة محذوف ، أى ، اتبعوا ما تتلوه الشياطين .

٢ – ويخبرنا الله سبحانه فى الجزء الثانى . أى الطرفين على حق ؟ وأيهما على كفر ؟ سليمان – عليه السلام – النبى الكريم ، الذى اصطفاه ربه واختاره ، أم الشياطين ؟ فيحكم صراحة بأن سليمان – عليه السلام – هو الذى على

---

(٥٩) ويشبه هذا قوله تعالى :
﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ؛ ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، ربنا ، لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ؛ إنك أنت الوهاب ﴾ ( سورة آل عمران ٧ ، ٨ ) .

الحق ، وما كان كافرا بتناوله السحر ، ويحكم أيضاً صراحة بأن الشياطين هم الكافرون ، ثم يعلل ، ويبين السبب فى هذا الكفر ، وهو : أنهم يعلمون الناس السحر .

والواو هنا عاطفة جملة على جملة ، و « ما » نافية ، وجملة « يعلمون » فى محل نصب حال من الشياطين .

٣ – بعد أن بين الله سبحانه أن مصدر علمهم بالسحر هو الشياطين ، أخبرنا أنه لم ينزل على الملكين ببابل ، هاروت وماروت ما نسبوه إليهما من تعليم السحر ، والملكان من هذا براء ، وبنو إسرائيل فى هذه التهمة مخطئون ، ويخبرنا الله سبحانه أيضاً أن الدليل على براءة الملكين ، أنهما حين كانا يعلمان أى أحد من بنى إسرائيل يوصيانه بالإيمان ، وعدم الكفر ، فيكون التعليم على أيديهما . ووضعت كلمة « فتنة » هنا ، لأن تعليم الملكين للبشر فيه غرابة ، وفتنة ، واختبار ، وقد اتضح أن بنى إسرائيل سقطوا فى هذا الاختبار ؛ بنسبة تعلم السحر على أيدى الملكين .

---

فبعض العلماء اختار الوقوف على لفظ الجلالة ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ وابتدأ بما بعده مستأنفاً . فيكون رفع كلمة « الراسخون » على أنها مبتدأ مرفوع بالواو ، والخبر هو الجملة الفعلية « يقولون » فى محل رفع ، والمعنى على هذا : أن الذى يعلم المتشابه من الكتاب ، ويعلم تأويله هو الله سبحانه فقط ، وموقف العلماء هو الرد إلى الله سبحانه ، وعدم الخوض فى ذلك على الإطلاق ، يؤمنون به مذعنين مسلّمين .

وبعض آخر اختار الوقوف على كلمة « العلم » على اعتبار رفع كلمة « الراسخون » بالعطف على لفظ الجلالة المرفوع على أنه فاعل الفعل « يعلم » والجملة الفعلية « يقولون » فى محل نصب حال ، وصاحب الحال « الراسخون » .

وفى ظنى – والله أعلم – أن هؤلاء الراسخين فى العلم إن أسهموا فى التأويل بنصيب عليهم أن يدركوا أهمية هذا المسلك ، ويعالجوه بحذر شديد دون توغل ، ودون لىّ الآيات ليا لمجرد التأويل .

والواو الأولى هنا للحال ، و « ما » نافية ، والواو الثانية فى « وما » عاطفة ، و « ما » نافية ، أى : ولا يعلمان من أحد إلا أن يقولا . بأسلوب الحصر .

والإشكال فى الواو الأولى ، و « ما » الأولى ، والذى اخترته من المعنى حدد إعراب كل منهما كما سبق .

٤ – وعادت الآية فى الجزء الرابع لتحكم على السحر ، وتبين إن كان له من أثر أم لا ؛ إن الله سبحانه يخبرنا فى هذا الجزء أن سحرهم هذا الذى تعلموه على أيدى الشياطين – وليس على أيدى الملكين ، كما اتضح فى الجزأين : الثانى ، والثالث . . هذا السحر لا يفرق فى حقيقة الأمر بين المرء ، وزوجه ، وأن السحرة لا يضرون أحداً إلا بإذن الله تعالى ، وأن الضرر فى الحقيقة لاحق بمن تعلم هذا السحر ، وهم السحرة ، وبمن علم هذا السحر ، وهم الشياطين – كما فى المقطع الثانى – ولقد علموا علماً لم يظهر أثره على جوارحهم ، أن الذى يشترى السحر ليس له من حظ فى الآخرة ، وبئس هذا العمل الذى سلكه حين باع نفسه لقاء ما أخذه من سحر الشياطين .

ولا يتجه المعنى هذا الاتجاه إلا على اعتبار أن كلا من « ما » الأولى والثانية نافية .

وختمت الآية الأولى من النص الكريم بأجزائها الأربعة ، وتلتها آية أخرى بمعنى لازم لهذا الموقف .

٥ – والآية الكريمة التالية للسابقة ، تقوم بدور النصح لبنى إسرائيل ؛ بأن يلتزموا الجانب الإيمانى ، ويتجنبوا جانب الكفر بتعلم السحر ، وتعاطيه ، وأنهم بإيمانهم ، وتقواهم ، وخوفهم من عذاب الله سبحانه يحصلون الخير الحقيقى فعلا إن كانوا يريدون خيراً لأنفسهم ، وإن كانوا يعلمون ما يضرهم ، وما ينفعهم .

هذا والله سبحانه أعلم بالصواب ، وبالمراد .

## السحر فى ضوء الكتاب والسنة :

### ( ا ) السحر لا يغير حقائق الأشياء .

قال الله تعالى فى شأن فرعون :

**﴿ فإذا حبالهم ، وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾** (٦٠) .

فعلى الرغم من أن السحرة قاموا بسحر عظيم ، وكان له من أثر بالغ فى موسى - عليه السلام - نفسه ، وفى نفوس كل المشاهدين ، أخبرنا الله تعالى ، أن هذا السحر مجرد تخييل ، وكيد ، وليس له أثر فى تغيير حقائق الأشياء ، وتبديلها .

ومما يدل على أثره فى نفس موسى - عليه السلام - قوله تعالى :

**﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾** (٦١) .

فعلى الرغم من يقينه بالله سبحانه ، ونصره إياه على كذبهم ، ولكن المفاجأة ، وإتقان السحر كان لهما أثر ظاهر ، كما دلّت الآية الكريمة .

ومما يدل على أثر السحر فى نفوس المشاهدين جميعاً ، قوله تعالى :

**﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ﴾** (٦٢) .

فلم يشك أى واحد من المشاهدين فى كون العصى ، والحبال تغيرت حقائقها ، فأصابتهم رهبة ، وخوف من ذلك السحر العظيم ، وإن كان الواقع أن الحقائق لم تتغير عكس ما ظنوا واعتقدوا .

---

(٦٠) سورة طه ، الآية رقم ٦٦ .
(٦١) سورة طه ، الآية رقم ٦٧ .
(٦٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٦ .

ومما يدل على أنه لم يتجاوز دائرة التدبير ، والكيد ، قوله تعالى :

**﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٦٢) .**

وفى هذا روت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان رسول الله – ﷺ – سُحِرَ ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ، ولا يأتيهن ، قال سفيان ( أحد رجال السند ) : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك ، فقال:

**« يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفيته فيه ؟ أتانى رجلان ؛ فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم ، رجل من زريق ، حليف ليهود ، كان منافقا . قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ، ومشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جف طلعة ذكر تحت رعوفة، فى بئر ذروان » .**

قال : فأتى النبى – ﷺ – البئر ، حتى استخرجه ، فقال :

**« هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين »** قال : « فاستخرج » . [ فأمر بها فدفنت ] .

قالت : فقلت : أفلا ؟ أى تنشرت . فقال :

**« أما والله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا » (٦٣) .**

---

(٦٢) سورة طه ، الآية رقم ٦٩ .

(٦٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب السلام ، أبواب الطب ، باب السحر ، رقم ١٤١٢ ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، والزيادة [ ... ] فى صحيح البخارى . فى كتاب الطب ، باب السحر ج ٧ ص ١١٦ وما بعدها . وقد ورد بهامش اللؤلؤ تفسير لبعض ألفاظ الحديث للدكتور عبد الستار أبو غدة . المحقق : « يأتى النساء ولا يأتيهن : أى وطئ زوجاته ، ولم يكن وطئهن . أتانى رجلان : هما جبريل ، وميكائيل . مطبوب : أى مسحور . وفيم ؟ : أى سحره . مشاقة : المشاقة هى

والحديث يدل على أن تأثير السحر فى الإنسان عند حدود الظن (٦٤) « كأن يظن أنه جامع نساءه ، وما جامعهن » وأنه - ﷺ - يكره المعاكس

---

المشاطة ، وهى الشعر الذى يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط . جُفّ : الجف وعاء الطلع ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه . طلعة : الطلع بالفتح من النخلة ، ثم يصير تمراً إن كانت أنثى ، وإن كانت النخلة ذكراً لم يصر تمراً ، بل يؤكل طرياً ، ويترك على النخلة أياماً معلومة حتى يصير فيه شئ أبيض مثل الدقيق ، وله رائحة ذكية فيلقح به الأنثى . رعوفة : وهو حجر يترك فى البئر عند الحفر ، ثابت لا يستطاع قلعه ، يقوم عليه المستقى . وقيل : حجر على رأس البئر يستقى عليه المستقى ، وقيل : حجر بارز من طيها ، يقف عليه المستقى ، والناظر فيها ، نُقَاعة الحناء : فى حمرة لونه . رءوس الشياطين : فى قبح منظرها . تنشرت : النشرة ، الرقية التى يحل بها عُقَدُ الرجل من مباشرة زوجته .

(٦٤) وقد ذكر الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٧ ص ١٨٦ ، ١٨٧ باب ما جاء فى حد الساحر ، وذم السحر والكهانة رأيين للفقهاء فى تأثير السحر فقال : نقلا عن صاحب البحر :

وحكى عن العترة ، وأكثر الفقهاء أنه لا حقيقة له ، ولا تأثير ؛ لقوله تعالى :

﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ ( البقرة ١٠٢ ) .

وحكى عن غيرهم ، ومنهم الشافعى أن له حقيقة وتأثيراً ... فيفرق بين المرء وزوجه ؛ لقوله تعالى :

﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾ ( الفلق ٤ ) . أراد الساحرات . فلولا تأثيره لما استعاذ منه ، وقد يحصل به إبدال الحقائق ... قلنا( أى فى البحر ) : سماه الله خيالا ، والخيال لا حقيقة له فقال :

﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ ( طه ٦٦ ) اهـ كلام البحر .

واختار الشوكانى الرأى الثانى . قائلا إنه مذهب جمهور العلماء ، واعتبره الحق فى هذه المسألة . معتمداً فى ذلك على حديث عائشة - رضى الله عنها .

والمبطل للسحر ، برغم أن السحر أشد أنواعه ، كما قال سفيان (٦٥) .

---

(٦٥) قال البخارى : وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طَبٌّ ( أى سحر ) أويُؤَخَّذُ عن امرأته ؟ ( بتشديد الخاء ، وبناء الفعل للمجهول ) أيحل عنه أو يُنَشَّر ( يحل عقد السحر ) ؟ قال : ( أى سعيد ) لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه ( صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب ، هل يستخرج السحر ؟ ج ٧ ص ١٧٧ ) .

أما الرقية المشروعة ، فتكون بذكر الله سبحانه ، وبقراءة القرآن الكريم . وورد بشأنها نصوص .

فعن عائشة – رضى الله عنها – أن النبى – ﷺ – كان ينفث فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات . فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت الزهرى ( أحد رجال السند ) : كيف ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه ( أخرجه البخارى ، كتاب الطب ، باب الرقى بالقرآن والمعوذات ج ٧ ص ١٧٠ ) وعزاه ابن كثير إلى مالك أيضاً . فى التفسير ، وزاد مسلم فى أول الحديث : قالت : أى السيدة عائشة – رضى الله عنها – كان رسول الله – ﷺ – إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات ... ( المختصر ، كتاب الرقى ، باب القراءة على المريض بالمعوذات . والنفث ج ٢ ص ١٤١ رقم ١٤٤٦ ) .

وعن أبى سعيد – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – كان يتعوذ من أعين الجانّ ، وأعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . ( رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ابن كثير ) .

وعنه أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله – ﷺ – كانوا فى سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا لهم : هل فيكم من راق ؟ فإن سيد الحى لديغ أو مصاب . فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه ، فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل ، فأعطى قطيعاً من غنم ، فأبى أن يقبلها . وقال : حتى أذكر ذلك لرسول الله – ﷺ – فأتى النبى – ﷺ – فذكر ذلك له . فقال : يا رسول الله ، ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب ، فتبسم ، وقال : « **وما أدراك أنها رقية ؟** » ثم

**(ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه .**

مما سبق قول الله تعالى :

**﴿ ولكن الشياطين كفروا ؛ يعلمون الناس السحر ﴾ (٦٥) .**

---

قال : « **خذوا منهم ، واضربوا لى بسهم معكم** » ( أخرجه الشيخان ، واللفظ لمسلم . صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب الرقى بفاتحة الكتاب ، ج ٧ ص ١٧٠ ، ومختصر مسلم ، كتاب الرقى ، باب رقية اللديغ بأم القرآن ج ٢ ص ١٤١ رقم ١٤٤٩ ) وفى رواية للبخارى ص ١٧٣ فانطلق فجعل يتفل ، ويقرأ الحمد لله رب العالمين ، حتى لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قَلَبَةٌ .

ومن الرقية بذكر الله سبحانه .

عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : كان إذا اشتكى رسول الله – ﷺ – رقاه جبريل – عليه السلام – قال : « **بسم الله يبريك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، وشر كل ذى عين** » ( أخرجه مسلم . المختصر رقم ١٤٤٣ وفى الباب عن أبى سعيد – رضى الله عنه – قريب من هذا رقم ١٤٤٤ ) .

ودخل ثابت على أبى حمزة ، أنس بن مالك – رضى الله عنه – فقال : يا أبا حمزة ، اشتكيتُ . فقال أنس : ألا أرقيك برقية رسول الله – ﷺ ؟ قال : بلى . قال : « اللهم ، رب الناس ، مذهب الباس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقماً . ( أخرجه البخارى ج ٧ ص ١٧١ وفى الباب عن عائشة – رضى الله عنها – قريب منه ) .

وعن عثمان بن أبى العاص الثقفى – رضى الله عنه – أنه شكا إلى رسول الله – ﷺ – وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله – ﷺ : « **ضع يدك على الذى تألم من جسدك . وقل : بسم الله ، ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته ، من شر ما أجد ، وأحاذر** » ( أخرجه مسلم ، المختصر رقم ١٤٤٧ ) .

(٦٥) سورة البقرة ، الآية رقم ١٠٢ .

فقد حكم الله سبحانه على الشياطين بالكفر معللا إياه هنا ، بأنهم يعلمون الناس السحر ، وإذا كان التعليم للسحر كفراً ، فتعلمه كذلك كفر ، والعياذ بالله تعالى ؛ ولأنه لا يكون معلم ، دون متعلم .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

« **اجتنبوا الموبقات : الشرك بالله ، والسحر** » (٦٦) .

وقال أيضاً :

« **من سحر فقد أشرك** » (٦٧) .

وإذا كان تعليمه ، وتعلمه سببا من أسباب الكفر ، والشرك بالله سبحانه ، فقد حرم أيضاً ما يأتى عن طريقه من نقود ، أو أى نفع مادى ، أو معنوى .

فعن أبى مسعود – رضى الله عنه – قال : نهى النبى – ﷺ – عن ثمن الكلب ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن » (٦٨) .

وقال – ﷺ – أيضاً :

« **من أتى كاهنا أو عرافا ، فقد كفر بما أنزل على محمد** » (٦٩) .

---

(٦٦) أخرجه البخارى ، كتاب الطب ، باب الشرك والسحر من الموبقات ج ٧ ص ١٧٧ .

(٦٧) أخرجه أبو داود ، والنسائى ، وأحمد . مفتاح كنوز السنة ، مادة السحر .

(٦٨) أخرجه البخارى ومسلم ، رياض الصالحين رقم ١٦٧١ ص ٦٣٨ باب النهى عن إتيان الكهان ، والمنجمين . صحيح البخارى ج ٧ ص ١٧٦ كتاب الطب . وحلوان الكاهن : هو ما يعطاه ثمنا على كهانته .

(٦٩) أخرجه أحمد ومسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – نيل الأوطار ، للشوكانى ، باب ما جاء فى حد الساحر ج ٧ ص ١٩٠ ، وصححه ابن كثير فى التفسير ، مع تقديمه « عرافا » على « كاهنا » ( والعراف من يزعم معرفة مكان المسروق ) .

وعن معاوية بن الحكم – رضى الله عنه – قال : يا رسول الله ، إنى حديث عهد بجاهلية ، وقد جاء الله بالإسلام ، وإن منا رجالاً يأتون الكهان . قال :

« **فلا تأتهم** » (٧٠) .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **من اقتبس علما من النجوم ، اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد** » (٧١) .

وعن أبى موسى – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

« **ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر** » (٧٣) .

ومعنى ذلك أن تعليم السحر ، وتعلمه ، والنقود الناتجة عن تعاطيه ؛ أخذاً ، أو إعطاءً ، وأن كل أنواع السحر : من كهانة ، وعرافة ، وخط بالرمل ، والطرق بالحصى لزجر الطير ، والتطير ، والنظر فى النجوم ، ليس بقصد التأمل فى الكون ، ولكنْ زعما لاستكشاف الغيب . معنى ذلك كله . أن هذه الأمور من الجبت والكفر ، وأن درجة الكفر بمقدار ما يتعاطاه المرء من هذا ، والله سبحانه أعلم .

### (ج) عقوبة الساحر :

لم يرد فى هذه المسألة نص من آية كريمة ، أو حديث مرفوع صحيح .

---

(٧٠) أخرجه مسلم . رياض الصالحين رقم ١٦٧٠ نفس الباب السابق .

(٧١) قال النووى فى الرياض : رواه أبو داود بإسناد صحيح رقم ١٦٦٩ ، وورد بهامشه . وأخرجه أحمد ، وسنده قوى . وعزاه صاحب منتقى الأخبار ( متن نيل الأوطار ) أيضاً إلى ابن ماجه .

(٧٣) أخرجه أحمد ومسلم . منتقى الأخبار ( متن نيل الأوطار ) ج ٧ ص ١٩٠ .

وما ورد إنما فهم لنص قرآنى ، أو أثر عن بعض الصحابة ، والسلف الصالح - رضى الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك :

عن بُجَالَةَ بن عبدة ، قال : كنت كاتباً لجَزْءِ بن معاوية ، عم الأحنف بن قيس ، فأتى كتاب عمر قبل موته بشهر : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . . . فقتلنا ثلاث سواحر . . » (٧٤) .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة : أنه بلغه أن حفصة ، زوج النبى - ﷺ - قتلت جارية لها سحرتها ، وكانت قد دبرتها ، فأمرت بها فقتلت (٧٥) .

قال النووى : عمل السحر حرام ، وهو من الكبائر بالإجماع (٧٦) .

وقال مالك : الساحر كافر ، ويقتل بالسحر (٧٧) . ويقول : قال أحمد بن حنبل : وهو مروى عن جماعة من الصحابة والتابعين (٧٨) .

وقد روى من طرق متعددة أن أحد الصحابة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ، ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ، يحيى الموتى . ورآه رجل من صالحى المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه ، وذهب ليرى ما رآه بالأمس ، فاخترط الرجل ( أى الصالح

---

(٧٤) رواه أحمد ، وأبو داود ، والبخارى . منتقى الأخبار . وعزاه ابن كثير إلى الشافعى أيضاً ، ولم يعزه إلى أبى داود .

(٧٥) رواه مالك فى الموطأ . منتقى الأخبار ج ٧ ص ١٨٦ .

(٧٦) فى شرح النووى لمسلم نقلا عن نيل الأوطار ج ٧ ص ١٨٧ ، باب ما جاء فى حد الساحر .

(٧٧) نقلا عن نيل الأوطار نفس الجزء ، والباب ، والصفحة ، وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى الترمذى وابن ماجه .

(٧٨) نقله الشوكانى عن القاضى عياض عن مالك . كما ذكره ابن كثير فى تفسيره .

من المهاجرين ) سيفه ، فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقاً فليحى نفسه ، وتلا قوله تعالى :

**﴿ أفتأتون السحر ، وأنتم تبصرون ؟ ﴾ (٧٩) .**

ولكن أيقتل ردة لما يفهم من قوله تعالى بعد آية السحر :

**﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ (٨٠) .**

أو يقتل حداً ؟ رأيان فى ذلك(٨١) .

**(د) اتهام الكفار الرسل – عليهم الصلاة والسلام – بالسحر :**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ كذلك ، ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر ، أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ﴾ (٨٢) .**

فحين رأى الكفار الواحد منهم ، وقد ابتعد عن عبادة آلهتهم ، وأصنامهم المصنوعة من الحجر ، أو الشجر ، أو غيرها ، ثم صار يعبد الله وحده اتهموا الرسول – ﷺ – بالسحر زوراً وبهتاناً .

ويخبرنا الله تعالى بأن الرسل السابقين لاقوا نفس الاتهام من أقوامهم ، وما صدهم هذا الظلم من قومهم عن دعوتهم ، وقد سبق ما كان من اتهام باطل لسليمان – عليه السلام – من بنى إسرائيل .

وحين رأى قوم فرعون موسى – عليه السلام – وقد ألقى عصاه فإذا هى

---

(٧٩) سورة الأنبياء رقم ٣ .
والأثر ذكره ابن كثير فى تفسيره .

(٨٠) سورة البقرة الآية رقم ١٠٣ .

(٨١) يمكنك أن ترجع فى هذه المسألة لتتعرف على الرأيين بالتفصيل فى كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ج ٧ ص ١٨٦ وما بعدها .

(٨٢) سورة الذاريات ، الآيتان رقما ٥٢ ، ٥٣ .

ثعبان عظيم ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين .

**﴿ قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ﴾** (٨٣) .

**﴿ وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾** (٨٤) .

**﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين ﴾** (٨٥) .

وكان من رد موسى – عليه السلام – وإنكاره عليهم هذا الاتهام الباطل .

**﴿ قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم : أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون ﴾** (٨٦) .

**﴿ قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾** (٨٧) .

وحين رأى قوم عيسى بن مريم – عليه السلام – أنه يحيى الموتى بإذن الله ، ويبرئ الأكمه والأبرص معجزة له اتهموه أيضاً بالسحر ، قال الله تعالى :

**﴿ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين ﴾** (٨٨) .

وفى كفار العرب قال الله تعالى :

---

(٨٣) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٠٩ .
(٨٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٢ .
(٨٥) سورة يونس ، الآية رقم ٧٦ .
(٨٦) سورة يونس ، الآية رقم ٧٧ .
(٨٧) سورة يونس ، الآية رقم ٨١ .
(٨٨) سورة المائدة ، الآية رقم ١١٠ .

**﴿ وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ﴾** (٨٩) .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن الوليد بن المغيرة ، جاء إلى النبى – ﷺ – فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال : يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ؛ ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله . قال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له ، وأنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ، وما يُعْلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال ( أى أبو جهل ) : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر ، قال : هذا سحر يؤثر أثره عن غيره فنزلت :

**﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾** (٩٠) .

ومما نزل :

**﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ﴾** (٩١)

وقال الله تعالى فى شأن هؤلاء :

**﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾** (٩٢) .

---

(٨٩) سورة الإسراء ، الآية رقم ٤٧ .

(٩٠) سورة المدثر ، الآية رقم ١١ .

(٩١) سورة المدثر ، الآيتان رقما ٢٤ ، ٢٥ والحديث أخرجه الحاكم وصححه ، وإسناده صحيح على شرط البخارى . أسباب النزول للسيوطى طبعة دار التراث ، القاهرة ، ج ٢ ص ١٦٨ .

(٩٢) سورة الطور ، الآية رقم ١٥ .

وذلك يوم القيامة حين يرون النار بمثابة التبكيت والتوبيخ على ما قالوه فى الدنيا عن القرآن الكريم ، والرسول - ﷺ .

## قصة سبأ :

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ؛ جنتان عن يمين وشمال ؛ كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ، ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ؟ ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾** (٩٣) .

وفى ضوء الآيات السابقة نرى :

### حضارة شعب :

إن الله سبحانه وتعالى جعل من قبيلة سبأ آية وعبرة لأولى الألباب ، ومرت أحداثها على هذا النحو .

فقد أنعم الله سبحانه عليها بنعم كثيرة ، اقتصادية ، وتنظيمية ، وعمرانية ، وأمنية ، وبعض الرجال الذين يدعونهم إلى التفكير السليم . . . .

أحاطت بهم البساتين من شرقهم وغربهم ، تنبت لهم أطيب الطعام ، يتفيئون ظلالها الوارفة بين أشجارها ، ويتنسمون شذا عطرها الفواح من أزهارها الجميلة ، ولم يحرموا رؤية المياه وهى تنساب بين البساتين .

وقد تفرعت من نهرها الكبير ، عند سدّ يتحكم فى الماء بمقدار وحساب ،

---

(٩٣) سورة سبأ الآيات من رقم ١٥ إلى رقم ١٩ .

ومع تلك المياه العذبة السائغة للشاربين ، كانت مياه المحيط جنوبا حيث يمكنهم الاتصال بما وراءه من شعوب . . . ، وفى الشمال صحراء الجزيرة باب الهدهد إليهم ، وطريق الخروج لملكتهم حين اتجهت إلى أقصى الشمال إلى الأقصى ؛ لتعلن إسلامها على يد سليمان - عليه السلام . . .

كانت لهم قرى ظاهرة كالعواصم للأقاليم ، وظهورها يدل على علوها المعمارى ، ودقة بنائها ، ثم هم فى تنقلهم بين تلك القرى البارزة ، يسيرون فى طرق حددت مسافاتها وقدر فيها سيرها فالسائر يعلم متى قطع ؟ وكم الباق من المسافة ليصل إلى القرية الأخرى ؟ .

ثم هم أيضا نعموا بأهم نعمة يتمناها الإنسان أيا كان ، ومتى عاش ، نعمة الأمن فلا احتمال لقاطع طريق ، أو لص محتال ، مهما ابتعدت المسافة ، وإذا كانوا قد نعموا بذلك فى الطريق الطويل ، فهم على أتم ما يكون الأمن والاستقرار داخل قراهم .

وكان منهم رجال صالحون بلغوا رسالة ربهم إليهم ، ودعوهم إلى أن يرفلوا فى رزق الله تعالى ، ويشكروه على تلك النعم الطيبة ، والله سبحانه الواهب المنعم غفور رحيم يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

فأى نعمة أجل من هذه ؟ .

وأى حضارة مادية أتم وأشمل منها ؟ .

### إعراض عن شكر النعمة واغترار بها :

تلك النعم السابقة من كل جانب كان من الواجب عليهم يشكروا واهبها ورازقها ، والشكر يكون :

- بأن يعترف الإنسان بها ، وأنه ليس خالقا لها ومنشئا .
- وأن يسندها إلى خالق الإنسان ورازقه وهو الله سبحانه .
- وأن يسخر هذه النعم فى مرضاة الله تعالى ، ومساعدة المحتاجين من الأمة .

– وأن يقتصد فى تناولها دون إسراف أو تقتير .

– وأن يلتزم بطاعة الله سبحانه فى تطبيق شرعه وأوامره .

– وأن ينتهى عما نهى عنه الله سبحانه من المعاصى والآثام .

– وأن يكرم الناصحين من الأمة الذين يقومون بدور الوقاية والعلاج .

– وأن يبتعدوا عن التجبر والتسلط على ضعاف الأمة مسخرين النعمة فى غير ما خلقت له .

ولكن القوم لم يشكروا الله سبحانه على تلك النعم ، وأعرضوا عمن ينصحهم ويحذرهم دون أى تأمل فى العواقب .

### الحرمان من النعم لإعراضهم عن الحق :

إن القوم أوغلوا فى الإعراض ، ولذا جللهم الحرمان بالقحط ، والجدب ، وسوء الطعام ، أرسل الله تعالى عليهم السيل الجارف العرم ، فأزال تلك الحضارة بين عشية وضحاها ، فلا القرى ظلت ظاهرة ، ولا الجنتان امتد عمرهما ، وأصبحت الأشجار بثمارها الرديئة القليلة ، وكأن شيئا لم يكن .

لم كان هذا الحرمان ؟ لأنهم جحدوا النعمة وكفروا بالله تعالى ، فحرموا مما كانوا فيه . .

### وكانت آية :

أى عبرة للبشرية على امتداد عمرها أبلغ من هذا ؟ .

تتكرر المأساة نفسها ، فى أجيال كثيرة للبشرية ، وتكون العاقبة نفسها ، وتأمل أى دولة كانت على وجه الأرض كيف بدأت ؟ وكيف انتهت ؟ .

وسيظل دائما هؤلاء الدعاة الناصحون بصيص الأمل لكل أمة لا يحس وجودهم إلا العقلاء من البشر ، أما من تجبر فى الأرض ، واغتر بما ليس له واتخذ إلهه هواه ، وزين له الشيطان عمله فإنه ينظر إلى الدعاة المصلحين على أنهم

أعداء ، ويبذل كل جهده فى اتهامهم ، وعرقلة سيرتهم ، وتصفيتهم جسديا ، فتصعد أرواحهم شهداء ، ويبقى العار والدمار للأمة لأنها تمردت على دعوة الله سبحانه ، قال تعالى :

**﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾** (٩٤) .

وصدق الله العظيم حيث قال :

**﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ﴾** (٩٥) .

**﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾** (٩٦) .

---

(٩٤) سورة ق ، الآية رقم ٣٧ .

(٩٥) سورة سبأ ، الآية رقم ١٥ .

(٩٦) سورة سبأ ، الآية رقم ١٩ .

## دروس وعبر :

– يوجهنا الله سبحانه إلى أن أجمل الهبات والعطايا ما كانت تمهد الطريق إليه سبحانه وأن الذرية التى تقر بها عين المؤمن تلك الذرية الصالحة . .

كما وهب الله لداود سليمان – عليه السلام .

– إن الأنبياء والصالحين المؤمنين هم وحدهم الذين يوجهون السلطة إلى مرضاة الله سبحانه .

فالسلطة تكون فى يد المؤمن نعمة على البشرية ، لا ظلم ولا تجبر ، ولكن مساعدة وتكافلاً وتطبيق حكم الله فى الأرض .

– النصح فى القضاء فى دائرة الاجتهاد واجب تطبيقا للعدالة ، وإعطاء الحقوق لأصحابها ، فانظر ماذا فعل سليمان مع أبيه بشأن الطفل والحرث ، وكيف قبل الأب تعديل ابنه وترشيده .

– إعداد الجيش القوى لازم للأمة المسلمة كل حسب طاقتها الممكنة ؛ من حيث الفرق ، والجنود ، من حيث التوعية للجنود ، من حيث فهمهم لهدف الدولة المراد تحقيقه .

وإن أفراد الجيش جميعا ملتزمون بواجب النظام والضبط . فلا تفريط ولا إفراط ولا تسيب ولا إهمال ، ولا تواكل ولا تكاسل .

– إن قيمة الجندى ليست فى أن تعصب عيناه ليطيع فقط ، ولكن القيمة والتى تعتمد أول ما تعتمد على الإيمان بالله تعالى ، تكون فى حريته وقوة شخصيته ، وجرأته فى الحق لا يخشى لومة لائم ؛ يخاطب القائد العام كما خاطب الهدهد الصغير أعظم ملك من البشر على الإطلاق وهو سليمان – عليه السلام – كما قال تعالى فيه :.

﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ .

– ترشيد الجنود إلى هذه القيمة الصحيحة ليكون كل منهم معطيا ،

ومنتجا ، وإيجابيا .

– الرقابة الأولى والأهم التي يحسها الجندى هى رقابة الله سبحانه ، وإلا فمن الذى كلف الهدهد أن يتعرف بالتفصيل على قوم سبأ ؟ عن وعى وبصيرة .

– إن الملك إذا لم يدعمه الحق فلا قيمة له ، يدين الناس لغير خالقهم ، ورازقهم ، ويعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عن الحق شيئا .

كما سجد قوم سبأ للشمس وفى مقدمة الساجدين ملكتهم .

– إن الحاكم المسلم لا يأخذ الأمور جزافا ، حتى ولو ظهرت عليها علامات الصدق ، ولكنه يعتمد على الدليل والبرهان تأكيدا وتثبيتا ، وتحذيرا للآخرين من أن يلبسوا الحق بالباطل كما فعل سليمان – عليه السلام – مع الهدهد .

– ستظل الرشوة ، والإغراء المالى ، والوظيفى قضية التحويل عن الحق فانظر إلى سرعة إبداء الملكة رأيها فى إرسال هدية إلى صاحب الرسالة .

وسيظل دعاة الحق يواجهون هذا الإغراء فى كل وقت . منهم من يسقط ، وتنجح فيه الحيلة ، ومنهم من يثبت على الدعوة موقنا بأن عرض الدنيا سينفد وما عند الله باق .

– إن المجتمع الجاهلى يتميز فى الدرجة الأولى بفقدان الذات وذوبانها فى شخص الرئيس العام .

فانظر إلى قوم الملكة ، وقارن بينهم وبين هدهد صغير جندى فى جيش سليمان – عليه السلام – لترى الفرق واضحا بين المجتمعين .

– إن تخوف المجتمع الجاهلى يكون فى الدرجة الأولى فى الخوف على ما لديه من مال واقتصاد ، وأبناؤه حريصون على ما لديهم من أموال وليتها تسخر فى صالح الأمة .

– إن شكر الله سبحانه على النعم بالإضافة إلى تحقيق الهدف الأصلى وهو الإيمان يحقق أيضا امتدادها على الإنسان المنعم عليه .

– الشكر والإيمان يحققان أمنا ، ورخاء ، ولنا فى التاريخ العبر والعظات .

– إيمان الأقوياء مكسب طيب للأمة المؤمنة ، وهم بحاجة إلى تخطيط ورعاية ، والأسلوب الذى ينجح مع أمثالهم ، وانظر كيف فرح المسلمون بإسلام الفاروق – رضى الله عنه .

– على المسلم أن يعتقد أن كل ما فى الكون يسبح بحمد الله ، ولكننا لا نفقه تسبيحهم وأن الدواب فى الأرض أمم مثلنا ، ومن هذه الدواب حشرات النمل . .

– السحر حرام ، وتعليمه حرام ، وتعلمه حرام ، وله آثار ظاهرة ، وإن كان لا يبدل حقائق الأشياء .

الرقية منه بالاستعاذة ، وقراءة المعوذتين ، والدعاء المأثور مشروعة .

وإذا كانت الرقية ضربا جديدا من السحر ففيها نظر ، وعلى المسلم الحذر .

من يتعامل به يقتل .

والمجتمع الإسلامى يجب أن ينظف منه ، ومن أشباهه .

– إن الدعاة إلى الله سبحانه على الرغم من أنهم يحرمون السحر فى مجتمعهم يتهمون بالسحر ، وبأن كلامهم سحر ، وذلك من التناقض ما فيه ، وبطلان الدعوى فيه واضحة .

– إن قصة سبأ آية .

فى أن الأمن والرخاء الاقتصادى ، والتقدم المعمارى ، والوعى الفكرى ، سوف لا تدوم على أصحابها إلا إذا وجهوا هذه الطاقات والخامات وجهتها الصحيحة وتطبيق شرع الله فى الأرض .

وأن أى حضارة مادية مهما بلغت فمآلها إلى الزوال إذا لم يدعمها الحق والسير فى الطريق المستقيم .

# زكريا ويحيى - عليهما السلام .

- آل عمران ، وزكريا - عليهم السلام .
- كفالته مريم بنت عمران .
- طلبه الذرية ، والولد الصالح .
- البشرى بيحيى - عليه السلام - متى ؟ وكيف ؟
- آية زكريا - عليه السلام - .
- الوصية ليحيى - عليه السلام - .
- تبليغ يحيى - عليه السلام - الرسالة .
- دروس ، وعبر .

**آل عمران وزكريا – عليهم السلام .**

قال الله تعالى :

**﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ﴾(١) .**

يخبر الله تعالى أنه اختار ، واصطفى هذه البيوت ، وجعل منهم الأنبياء والمرسلين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فقد اصطفى آدم – عليه السلام – خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه إلى الأرض إعمارا لها ، واصطفى نوحا – عليه السلام – ، أول أولى العزم من الرسل إلى أهل الأرض ، بعد أن عبدوا آلهة شتى ، وأشركوا بالله سبحانه ما لم ينزل به سلطانا ، وطال به المقام بينهم ، ومع ذلك لم يستجب إلى دعوته إلا قليل ، قال الله تعالى فى هذا :

**﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ ﴾ (٢) .**

وكان اصطفاء كل من آدم ونوح – عليهما السلام – لشخصيهما ، ولكن الاصطفاء لإبراهيم – عليه السلام – ، له ولآله الكرام ، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد – ﷺ – .

واصطفى الله سبحانه أيضا آل عمران ، وعمران هذا هو والد مريم بنت عمران ، أم عيسى بن مريم – عليه السلام – آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وليس بينه وبين النبى محمد – ﷺ – نبى كما ثبت فى الصحيح .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان رقم ٣٣ ، ٣٤

(٢) سورة القمر الآيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٦

وقد تزوج زكريا – عليه السلام – أحد أنبياء بنى إسرائيل إحدى بنات عمران ، أخت مريم ابنة عمران ، كان يأكل من عمل يده ، وخير الطعام ما كان من عمل اليد ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

« **وكان زكريا نجاراً** »(٣) .

ويفهم من قوله تعالى :

﴿ **يرثنى ويرث من آل يعقوب** ﴾(٤) .

ما يؤكد صراحة بأنه هو وابنه من أنبياء بنى إسرائيل يعقوب – عليه السلام .

**كفالته مريم بنت عمران .**

تمنت امرأة عمران أن ترزق بولد ، وقد نذرته لخدمة المسجد الأقصى ، ولكن الله سبحانه أراد أن تكون أنثى لما سيكون على يديها ، فكانت أنثى سميت مريم ، واحتاجت مريم إلى من يخدمها من الرجال ، ربما يكون والدها عمران قد مات ، أو كبر فى السن فلا يستطيع أن يقوم بواجب الكفالة والرعاية . وهيأ الله سبحانه وتعالى لكفالتها زوج أختها زكريا – عليه السلام – . وفى ذلك حفظ لها من الإهانة والتضييع من كفالة الغريب ، وفى كفالة الجد عبدالمطلب ، ثم العم أبى طالب لخاتم الأنبياء محمد – ﷺ – نفس الغاية والهدف ، والله سبحانه أعلم .

وتكون الكفالة فى مثل هذه الأحوال شكلية ، وإلا فالله سبحانه وهو الذى ساق زكريا – عليه السلام – إلى تلك الكفالة هو أيضا الذى أوجد الرزق فى محراب مريم ، كما قال الله سبحانه :

---

(٣) رواه مسلم ، المختصر رقم ١٦١٦ جـ ٢ ص ١٨٩ كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ، باب فى ذكر زكريا عليه السلام .

(٤) سورة مريم الآية رقم ٦

﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٥) .

وقد قال النبى محمد – ﷺ – فى مقام كهذا :

« **إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين** »(٦) .

قال الله تعالى فى كفالة زكريا – عليه السلام – لمريم ابنة عمران :

﴿ **وكفّلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٧) .

يخبرنا الله سبحانه فى الآية السابقة أنه هو الذى هيأ زكريا لهذه الكفالة ، ويفهم ذلك من تشديد الفاء فى الفعل الماضى كفّل ، فالفاعل إذن ضمير مستتر يعود إلى الله سبحانه ، وزكريا مفعول به ثان منصوب ، والضمير البارز مفعول به أول ، ويختلف الأمر حين نقول كَفَلَ زكريا بفتح الفاء دون تشديد فزكريا يكون فاعلا لا مفعولا ، ولا يخفى ما فى التعبير القرآنى المختار من الرعاية الإلهية لمريم ابنة عمران بشكل صريح .

وأحس زكريا – عليه السلام – نفسه آثار تلك الرعاية ؛ فحين كان يدخل عليها المحراب يجد رزقا فيسألَ متعجبا . أنى لك هذا ؟ وردها بأنه من عند الله سبحانه يدل على طيب هذا الرزق وتمامه ، فالله سبحانه قد أمر عباده بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم ، وها هو يأتى مباشرة دون وساطة ، ودون اختيار من الإنسان فيكون إذن طيبا خالصا .

---

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ٣٧ .

(٦) أخرجه الشيخان عن ابن عمر ، وأبى هريرة ، وعائشة – رضى الله عنهم – وأخرج إحدى رواياته البخارى وأبو داود عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه . منتقى الأخبار ، متن نيل الأوطار ج ٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ باب كراهية الوصال .

(٧) سورة آل عمران الآية رقم ٣٧ .

ويسهم السؤال التعجبى ، والرد بالصورة السابقة فى إثبات أن كفالة زكريا لمريم تكريم منه سبحانه لكل من زكريا ومريم على السواء . وهذا التكريم أثار فى نفس زكريا – عليه السلام – رغبة فى الذرية والولد الصالح من هذا الطراز المكرم والمصطفى .

**طلبه الذرية والولد الصالح :**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ﴾**(8) .

وقال أيضا :

**﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال : رب إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ﴾**(9) .

وقال أيضا :

**﴿ وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ﴾**(10) .

**متى كان طلب زكريا – عليه السلام – الولد ؟ :**

حين كفله الله مريم ، ورأى من آيات ربه ، ورزقه لها . كما قال الله تعالى فى هذا الشأن :

---

(8) سورة آل عمران الآية رقم 38 .
(9) سورة مريم الآيات من رقم 1 إلى رقم 6 .
(10) سورة الأنبياء الآية رقم 89 .

﴿ **هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة** ﴾

- حين وجد نفسه فردا ليس له من ولد .. ﴿ **لاتذرنى فردا** ﴾ .
- حين وهن عظمه وضعف واشتعل الرأس شيبا
- حين وجد زوجه عقيما لاتلد ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ .
- حين خاف ممن يأتى بعده على غير سيرة الأنبياء .
- وحين أراد أن تمتد النبوة فى آل يعقوب - عليه السلام .

**وكيف كان طلبه ؟**

- نداء من أعماقه خفى لا يعلمه إلا الله سبحانه .
- ولسان يتحرك بما فى قلبه من تمن ورجاء .
- وتعظيم للخالق الوهاب ﴿ **إنك سميع الدعاء** ﴾
- واطمئنان إلى جانب الله سبحانه ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقياً** ﴾

**وماذا طلب ؟**

- طلب إلى ربه ذرية طيبة ، ولداً صالحاً مرضياً ، ورضياً ، يرث منه ومن آل يعقوب النبوة والحكم (١١) وكان أن تنزلت رحمة الله سبحانه على عبده وحبيبه زكريا - عليه السلام .

---

(١١) كما ذكرنا سابقا عند قوله تعالى :﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ وقد سقنا الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله - ﷺ - قال :« **لانورث ماتركنا فهو صدقة** » فهذا نص على أن رسول الله - ﷺ - لا يورث ، ولهذا منع الصديق - رضى الله عنه - أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من ورائه الذين لولا هذا الحديث لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة ، وزوجاته وعمه العباس - رضى الله عنهم أجمعين - واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله - ﷺ - عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن =

**البشرى بيحى :**

**قال الله تعالى :**

**﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله ، وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ، قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ (١٢) .**

**وقـال :**

**﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾(١٣) .**

**وقـال :**

---

= ابن عوف ، وطلحة والزبير ، وأبو هريرة وآخرون – رضى الله عنهم – وقد ورد النص عند الترمذى بلفظ يعم سائر الأنبياء « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه .

وقد كانت الدنيا أحقر من أن يكنزوا لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ، كما سأل زكريا – عليه السلام – ليحوزها بعدهم ، وقد عرفنا فيما سبق أنه كان يعمل نجاراً ، ( أخرجه مسلم ، وابن ماجة ، وأحمد من غير وجه ) أى يعمل بيده ، ويأكل من كسبها ، كما كان داود – عليه السلام – يأكل من كسب يده ، ومن كانت هذه حاله ، فأى شيء مادى يخلفه وراءه ، يكون محل سؤال الولد ، لأن يرثه ، ويئول إليه ؟

فإذا انتفى سؤال الميراث لهذه الأمور المادية ؛ لصريح النصوص ، ومفهومها ، ثبت أن سؤال زكريا – عليه السلام – الولد ، ليرث النبوة ، والحكم ، والله أعلم بالصواب .

فى ضوء البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨ ، ١٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٧ مكتبة المعارف بيروت .

(١٢) سورة آل عمران ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

(١٣) سورة مريم ، الآيات من رقم ٧ إلى رقم ٩ .

**﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾**[14] .

يخبرنا الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة فى السور الثلاث :

– أن البشرى بيحيى لزكريا – عليهما السلام – كانت فى أقرب لحظات المسلم إلى ربه سبحانه **﴿ فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى فى المحراب ﴾** ( سورة آل عمران ٣٩ ) . فالاستجابة للدعاء مرهونة بمدى قرب المرء من ربه سبحانه ، وليست مرهونة بألفاظ يلوكها بلسانه دون حركة الأعضاء خضوعا وسجوداً ، ودون حركة القلب شعوراً وحبا .

– أن بشرى الله سبحانه ، بيحيى لزكريا – عليهما السلام – بلغت الذروة فى البشريات ، وفوق ما كان يتمناه زكريا – عليه السلام – وهذا ما يدخره الله سبحانه لعباده الصالحين ، فى دنياهم ، وأخراهم ؛ فهو أعلم بحالهم ، وأعلم بالصالح لهم ، وكل ما عليهم أن تلهج ألسنتهم بالثناء عليه ، وتطويع حياتهم بتطبيق أحكامه ، وتفيض قلوبهم حبًّا له ، ورهبة منه ، أما النتائج فهو العليم بها سبحانه .

– سمى الله سبحانه الولد الذى يولد بيحيى ، ولم يكن هذا الاسم معروفاً قبل ذلك **﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً ﴾** ( مريم ٧ ) .

فلم كان هذا الاسم الذى يدل على الحياة ، دون غيره من الأسماء ؟

إن زكريا – عليه السلام – حين بشر به تعجب ، على الرغم من أنه الذى سأل الولد ، تعجب من كونه كبير السن ، وعقم زوجه ، ومن كانت هذه حالهما : شيخوخة ، وعقماً ، فليسا مهيئين ليكونا سببا فى الإنجاب ، أو فى امتداد حياتيهما فى ولد .

---

(١٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٩٠ .

ولكن قدرة الله سبحانه فوق كل القدر ؛ يهب الحياة من الموت ؛ فكانت التسمية بيحيى داعية من جديد لأن يظل زكريا – عليه السلام – على الشكر للإله المعبود ، وذكره . المحيى والمميت ، وداعية أيضاً لكل ذى لب . كيف يستجيب الله سبحانه لعباده ، من جهة لا يظن فيها الاستجابة ؛ كما استجاب لعبده زكريا – عليه السلام .(١٥) .

– وتتابعت نعم الله سبحانه ، على زكريا ، فى شخص الولد القادم يحيى – عليهما السلام – فهو مصدق بكلمة من الله – سبحانه – عيسى عليه السلام – ابن خالته(١٩) ، وهذا إخبار بغيب لايعلمه إلا الله سبحانه ، فقد قال تعالى فى بشراه لمريم :

---

(١٥) وقد سبق أن علمنا أن الخليل إبراهيم – عليه السلام – تعجب أيضاً حين بشر بإسحاق – عليه السلام – قال تعالى : ﴿ **قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون** ﴾ ( الحجر ٥٤ ) وقال أيضاً على لسان سارة ﴿ **قالت : يا ويلتى ، أألد ، وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ؟ إن هـذا لشىء عجيب** ﴾ ( هود ٧٢ ) ولكن الفرق بين التعجبين ظاهر ، فإبراهيم وسارة تعجبا من البشرى بالولد ؛ لأنهما قد كبرا فى السنّ فقط دون تصريح بالعقم ، وإن كان مفهوماً ، أما زكريا ، فقد تعجب من البشرى بالولد ، وهو يحيى – عليهما السلام – لأمرين : كبر الزوج ، وعقم الزوجة ، فكان التعجب أشد ، وكانت البشرى بولد اسمه يحيى ألصق بحالهما . والله أعلم بالصواب .

(١٩) أخرج مسلم عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

« **أتيت بالبراق .... ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل – عليه السلام – فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة ، عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير ....** » مختصر مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ، الإسراء بالنبى – ﷺ – وفرض الصلوات ، رقم ٧٦ ص ٢٦ – ١ .

**﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ، عيسى بن مريم ﴾**(٢٠) .

ويحيى هو السيد فى قومه ؛ جمع من الصفات ما يؤهله لمركز القيادة ، والسيادة ، تصديقاً بالنبوات ، وحلما ، وعلما ، وكل ما من شأنه أن يوصف به إمام المتقين .

وهو المعصوم من الذنوب ، حُصِرَ عنها ، والمعصوم من عصمه الله تعالى(٢١) . .

وقمة البشريات أنه سيكون نبيا فى سلسلة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام .

وتعجب زكريا – عليه السلام – من أن يكون الخلق على هذه الصورة ، قال الله تعالى على لسانه :

**﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقراً ، وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾** (٢٢) .

وكانت إجابة السماء سهلة يسيرة على الأفهام والعقول :

---

(٢٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٥ .

(٢١) عن أبى سعيد ، وأبى هريرة – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال :

**« ما بعث الله من نبى ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ، وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله »** رواه البخارى ، رياض الصالحين ، باب حث السلطان والقاضى ، وغيرهما ... على اتخاذ وزير صالح ، وتحذيرهم من قرناء السوء رقم الحديث ٦٧٦ ص ٣٠٥ ، وعزاه المحققون أيضاً إلى النسائى ، وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أحمد مادة « الأئمة » .

(٢٢) سورة مريم ، الآية رقم ٨ .

**﴿ قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾(23) .**

ولمَ كانت الاستجابة على هذا النحو من التكريم ؟

قال الله تعالى :

**﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾(24) .**

هذا وقد ورد حديث شريف يبين جانبا من جوانب المسارعة فى الخيرات .

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »(25) .**

فهنيئاً لزكريا – عليه السلام – وقد سارع فى الخيرات ، ودعا ربه سبحانه رغبة فى جنته ، ورهبة من عقابه ، وهنيئاً له وقد أخلص قلبه وخشعت جوارحه لله تعالى .

---

(23) سورة مريم ، الآية رقم 9 .

(24) سورة الأنبياء ، الآية رقم 90 .

(25) رواه بهذا اللفظ مسلم ، ورواه البخارى أيضاً عن ابن عمر – رضى الله عنهما – بلفظ مختصر ، رياض الصالحين ، باب قضاء حوائج المسلمين ، رقم المتفق عليه 242 ، ورقم الآخر 243 ص 126 ، 127 .

إن التكريم الذى استحقته تلك الأسرة المباركة لم يبذل هكذا جزافاً ، وإنما بذل لما قدموا من الأسباب التى تؤهلهم لهذا التكريم .

**آية زكريا – عليه السلام .**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ قال : رب ، اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار ﴾[٢٦] .**

وقال أيضـاً :

**﴿ قال : رب اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم ، أن سبحوا بكرة ، وعشيا ﴾[٢٧] .**

بعد الحديث عن البشرى ، وتعجب زكريا ، طلب إلى ربه سبحانه أن يجعل له علامة وآية على وجود القدرة على الإنجاب ، منه ومن زوجه ، فلبى الله سبحانه طلبه ، وجعل له آية على ذلك .

فكيف كانت هذه الآية ؟

– إن الإنسان بالنسبة للسانه فى إحدى حالين : إما ناطق ، متحدث ، وهذا النطق يكون تلبية لما يبغيه هذا الإنسان . قراءة ، ذكراً ، حديثا مع الناس ، وإما عيىّ لا يتحرك لسانه الحركة السوية السابقة .

وآية زكريا – عليه السلام – كانت فى مدار النطق ، ولم تكن بإحدى الحالين السابقين . وإلا مااعتبرت آية ، فالآية هنا هى العلامة المميزة لوضع ما ، ولاتكون علامة إلا إذا كانت على غير المألوف للإنسان بالنسبة للسان . فاللسان سيتحرك بالذكر الكثير ، والتسبيح بالعشى ، والإبكار ، وهذا نطق ، أما أن

---

(٢٦) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤١ .
(٢٧) سورة مريم ، الآيتان رقما ١٠ ، ١١ .

يخاطب الناس بالحديث سؤالاً ، أو إجابة ، أو نداء وخطاباً ، فلا ؛ إنه لا يقدر على أن يكلم الناس ، ويكلمهم ، ويبقى الرمز ، والإشارة بديلين عن التكلم مع الناس . إن اللسان لم يصبه عيّ ، أو فهاهة ، فها هو يتحرك بالذكر والتسبيح ، وها هو سوى ليس به مرض ، وتلك آية .

ولم كانت هـذه الآية ؟

إن هذه الآية مؤشر أخضر لزكريا – عليه السلام – للبشرى بالولد الصالح ، وليطمئن قلبه من تحقيق هذه البشرى – بإذن الله تعالى(٢٨) . ولذا كان الحديث مباشرة بعد هذه الآية عن يحيى – عليه السلام – دليلاً على أن هذه الآية علامة له على الإنجاب ، والإنبات ، وإصلاح الزوج من العقم ، وإصلاحه من ضعف الكبر ، وكأنهما دون هذه العيوب والعوائق .

**الوصية ليحيى – عليه السلام :**

قال تعالى :

**﴿ يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا ، وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ، ولم يكن جباراً عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا ﴾**(٢٩) .

---

(٢٨) وقريب من هذا موقف الخليل إبراهيم – عليه السلام – حين سأل ربه سبحانه عن إحياء الموتى ، وإجابة الله تعالى له ، وتوضيح الغاية من السؤال ، وهى اطمئنان القلب ، وليس الشك فى قدرة الله سبحانه ، قال تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ وإذ قال إبراهيم : رب ، أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾** ( البقرة ٢٦٠ ) .

ويمكنك أن ترجع إلى تفصيل ذلك ، فى فصل الخليل إبراهيم – عليه السلام .

(٢٩) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٢ ، إلى رقم ١٥ .

تناولت الآيات الكريمة السابقة جوانب ثلاثة بالنسبة ليحيى – عليه السلام :

– جانب الأمر ، والتكليف .

– وجانب مجال هذا التكليف .

– وجانب الأمان المشمول به دنيا ، وآخرة .

فأما الجانب الأول ؛ جانب الأمر ، والتكليف ، فقد خاطبه الله سبحانه – بعد أن خصه ، وعينه بالنداء – وكلفه أن يأخذ الكتاب بقوة ، والكتاب الذى نزل على بنى إسرائيل هو التوراة ، أى تعلم الكتاب بجد ، وحرص ، واجتهاد ، وإذا ما كان الفهم للتوراة على هذا النحو ، استتبع الدعوة إليه تدارساً ، وفهماً ، وتطبيقاً من بنى إسرائيل ، ومعنى ذلك أن كسلاً أصابهم فى تناول الكتاب حتى صار تناوله من يحيى – عليه السلام – مميزاً له عنهم ، وإلا ماكان تخصيصه بأخذ الكتاب بقوة ، والله أعلم .

وإذا ما بدأت الدعوة إلى الله تعالى ، بدعاة جادين : يشقون طريقها بعون الله تعالى ، وإذا كان مرجعهم واضحاً هو كتاب الله سبحانه ، منهج حياة متكاملة ، عبادة ، وتشريعاً ، وإذا ما كانت القوة سمة لهم ، فى عقيدتهم ، وفى دعوتهم ، وفى جماعتهم ، يستمدونها من الله القوى المتين ، إذا ما كانوا كذلك بدأت الدعوة إلى الله تعالى خطوتها الأولى ، والموفقة . وتأمل هذا كله فى هذا التعبير القرآنى الكريم :

**﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾**

وأما الجانب الثانى ، مجال التكليف .

وحتى يتم للجانب الأول – أخذ الكتاب بقوة – كان توفيق الله سبحانه ، وسداده ، لمن يتحمل عبء هذا التكليف ، فإذا ما وكلنا إلى أنفسنا فأى نجاح نحققه دون معية العزيز الحكيم ؟

وبين الله سبحانه أنماط السلوك الحميد التي يجب أن يتصف بها الدعاة إلى الله سبحانه ، فى ضوء قصة نبى الله يحيى – عليه السلام .

وهذه الأنماط السلوكية هـى :

– تعهد النشء منذ الصغر ، وتربيتهم على دعوة الله سبحانه ، فتنمو معارفهم بالتحصيل ، والحفظ ، وتنمو عقولهم بالفهم ، والاستنباط ، وتنمو مشاعرهم بالحب والتضحية ، وتنمو مهاراتهم وقدراتهم الحركية ، والقيادية ، والصناعية – إن التعهد المبكر بهذا النشء على هذا النحو نعمة يسوقها الله سبحانه لأبناء الإسلام ، على يد الدعاة المخلصين ، وكانت مجال المن ، والتفضل منه سبحانه على نبيه يحيى – عليه السلام – قال تعالى :

﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾

– إن الرفق ، والحنان ، والشفقة ، من أهم ما يتصف به عباد الرحمن ، وما كان الرفق فى شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه ، وإن الله سبحانه يحب الرفق في الأمر كله . إن الحنان الذى آتاه الله تعالى يحيى – عليه السلام – من لوازم الداعية إلى الله تعالى ، لأنه يتقدم إلى الناس ببضاعة لم يألفوها برغم سلامتها ، وجودتها ، وتخالف ما تعاهد عليه الآباء والأجداد ، وتخالف الدعوات الأرضية التى تحرك الناس ببريق المال .

إن الدعوة فى ذاتها صحيحة ، ولا يكفى هذا فى ميادين النجاح والفوز ، لأنه يجب أن يقوم بأعبائها دعاة يتصفون بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن يكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس ، ويقفون مع المظلوم حتى يؤخذ له حقه ، وينتصف له ، وضد الظالم حتى يقتص منه ، وهو فى الوقت نفسه يحب لكل منهما الخير والهداية .

إن هذا الرفق قد أعطاه الله سبحانه ، وآتاه للنبى يحيى ، وكل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام والسعيد من الدعاة من كان الرفق صفة له .

– إن الزكاة تطهير . فهى بالنسبة للمال تطهره من الدنس ، والحرام بمنع الفقراء حقوقهم فيه ، وهى بالنسبة للنفس تطهرها من الشح ، والبخل ، وكل

ما يعيبها من نقص ، وعيب . وهى بالنسبة للمجتمع تطهير من ظواهر الفساد ، وعناصر الإفساد . هذه التزكية ، وهذا التطهير المبكر ليحيى – عليه السلام – أهَّله لأن يكون نبيا ، قال الله تعالى :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾(٣٠) .

– إن التعامل مع الناس يتم على أساس من تصنيفهم ، وتحديدهم ، وتمييزهم ، ليس على سبيل التفرقة العنصرية المنتنة ، ولكن لغرض اختيار الأسلوب الأنسب فى التعامل مع كل إنسان : فهذا والد ، وتلك أم ، وهؤلاء أولاد وذرية ، وهؤلاء رحم وأقارب ، وذلكم جيران ، وهنالك بقية الناس الذين يحتك بهم المسلم ، قرباً ، أو بعداً ، ولكل من هؤلاء حق يجب على المسلم أن يؤديه ، حسب الأولوية ، والأهمية ، دون خلط ، أو قلب ، وأول الناس الذين لهم حقوق على الإنسان الوالدان ، ولذا كان البر بهما من أول البر ، والإحسان إليهما يلى فى الدرجة توحيد الله سبحانه ، وعبادته ، وتقواه ، وقد قضى الله سبحانه ، وحكم بذلك ، ولذا جعل البر بالوالدين سمة مميزة ليحيى – عليه السلام – وتأمل هذا فى قوله تعالى : ﴿ وبرا بوالديه ﴾ .

– وإذا ما كانت الأنماط السلوكية السابقة تمثل الجانب الإيجابى فى المرء ، فنفى الجانب السلبى يأتى لتأكيد الجانب الإيجابى من ناحية – حسب قاعدة مفهوم المخالفة – وتحذيراً للمرء من ولوج طريق الشيطان بالمعصية من ناحية أخرى ، واختير من الجوانب السلبية التى تم نفيها عن يحيى – عليه السلام – جانب التجبر ، والتمرد على الحق .

فلم اختير هذا الجانب السلبى دون غيره لينفى ؟

إن بنى إسرائيل قد عرفوا بهذا التجبر ، والظلم ، حتى وصل بهم الأمر أن تجبروا على أنبيائهم . من بنى جنسهم ، وجلدتهم ، فناسب أن ينفى عنه ما شاع بين القوم تكريما له ، وتفضيلا عليهم .

---

(٣٠) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٤ .

كما أن الحديث عن الوالدين ، والبر بهما يناسبه بشكل أعمق أن يتجنب الابن عن كل ما من شأنه إساءة ، أو قريب من الإساءة ، أو ما يظن فيه إساءة وتضجر وتأفف ، ثم فى الوقت نفسه يناسب الحنان ، والتقوى ، وما يقاربهما ابتعاد المرء عن التجبر والتمرد . وإشارة أيضاً إلى أن رسالة يحيى – عليه السلام – والدعاة إلى الله سبحانه ، رسالة تقاوم المتجبرين فى الأرض ، والمتمردين على دعوة الحق . ومن كانت هذه رسالتهم فلابد أن ينفوا عن أنفسهم الصفة التى تصدوا لحربها ، وإزالتها من نفوس غيرهم .

ويبقى الجانب الثالث والأخير ؛ جانب الأمـان .

يزعم المتجبرون فى الأرض أنهم بالكبت ، والقهر ، والتصفيات الجسدية ، أنهم يوفرون لأنفسهم الأمن والأمان ، وكلما أوغلوا فى ظلمهم نراهم قد زادوا من الحراس عليهم ، وزادوا من الشك فيمن حولهم ، ولو كان أقرب الناس إليهم ، ويصل بهم الأمر إلى أنهم لا يتناولون طعاماً إلا بعد أن يتناول صانعه ومقدمه جزءًا منه ، ويلبسون ملابس واقية من الرصاص ، وهو وسط حراسه ، ووسط من ظن بهم أمنه وسلامته ، ومن مأمنه يؤتى الحذر ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ؛ إنهم أرادوا الأمن من غير طريقه ، لأن طريقه ، المنصوب على قارعته إشارة خضراء ، أن يكونوا عادلين مع هؤلاء الناس ، لا محاباة لقريب ، ولا تمييز على أساس عنصرى جاهلى .

وتأمل كيف ينزل الأمان والسلام ، والسكينة على قلوب عباده المؤمنين ؟ ومتى ؟

يشملهم الأمن أول مواجهتهم للحياة ، يوم الولادة ، وتستمر طول حياتهم ، لأنهم مع الله رب الأرباب أقوى من الآلهة المزيفين . وفى أشد حالات المرء حين يغادر الدنيا ، تعلو وجهه بسمة الرضا والسرور ، حتى ولو كان يواجه الجلادين ، يصرح بآيات الذكر الحكيم أما غيرهم للأسف فمع قوتهم وسلاحهم – فى عبوس وتجهم ، وهم فى جمع غفير أمسكوا بفرد أعزل مقيد هزيل الجسم ، ولكنه يبتسم !!

ألم يكن كذلك يحيى – عليه السلام ؟

ثم هناك الأمان يوم زلزلة الساعة :

**﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾**(٣١) .

إن الله تعالى قد ساق إلينا هذا كله فى شخص يحيى – عليه السلام – وفى ضوء قوله تعالى بشأنه :

**﴿ وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً ﴾** (٣٢) .

فعليه ، وعلى النبى – محمد – أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم .

**تبليغ يحيى – عليه السلام – الرسالة :**

ورد بهذا الشأن حديث طويل يبين بعض المواقف التى كانت ليحيى – عليه السلام – مع قومه بنى إسرائيل .

عن الحارث الأشعرى (٣٣) – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

**« إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى – عليه السلام :**

**إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن**

---

(٣١) سورة الحج ، الآية رقم ٢ .

(٣٢) سورة مريم ، الآية رقم ١٥ .

(٣٣) هو الحارث بن الحارث الأشعرى ، صحابى ، تفرد بالرواية عنه أبو سلام ، كنيته ، أبو مالك ، وفى الصحابة اثنان غيره ، كنيتهما ، أبو مالك ، قال فى التهذيب : « أخرج له الترمذى ، والنسائى حديث : إن الله أمر يحيى . » وهو حديثنا هذا . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٢٧٥ رقم ١٣٨٤ ، ومسند الشاميين ج ١ ص ٣٥٨ .

يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن . فقال :

يا أخي ، إني أخشى إن سَبَقْتَني أنْ أعذب ، أو يخسف بي .

قال ( أي النبي محمد - ﷺ ) :

« فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات ؛ أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن :

- وأولهن : أن تعبدوا الله ، لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بِوَرِقٍ ، أو ذهب ، فجعل يعمل ، ويؤدي غلته إلى غير سيده . فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً .

- وآمركم بالصلاة ؛ فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

- وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

- وآمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل ، والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان ، إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال :( أي الحارث الأشعري ) ، وقال رسول الله - ﷺ :

« وأنا آمركم بخمس ؛ الله أمرني بهن :

- باالجماعة .
- والسمع .
- والطاعة .
- والهجرة .
- والجهاد فى سبيل الله

**فإن من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم »**

قال : يا رسول الله ، وإن صام ، وصلى ؟

قال :

**« وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم . ادعوا المسلمين بما سماهم الله عز وجل »** (٣٤) .

ونرى فى هذا الحديث بإيجاز :

- حرص الأنبياء على تبليغ دعوة ربهم ، وعدم التباطؤ فى ذلك .
- تقديم النصح فى صالح الدعوة ، وتنفيذ أمر الله سبحانه .
- أن عمل الداعية بما يدعو إليه لابد أن يكون سابقا للدعوة .
- رقة مشاعر الأنبياء وخوفهم من التقصير فى جنب الله سبحانه والدعوة إليه .

---

(٣٤) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، والترمذى ، وابن ماجة ، والحاكم ، والطبرانى ، وابن عساكر . ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ . ومسند الشاميين ، من مسند الإمام أحمد ، للدكتور على محمد جماز ج ١ رقم ٣٥٢ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ . طبعة دولة قطر ، وقيل فى درجة الحديث : إسناده حسن ( أى يصل إلى درجة الثبوت ، ولا ينهض إلى درجة الصحة ) ، وقال الترمذى فيه : حديث حسن صحيح ، غريب .

– أن عذاب الله سبحانه مرتبط بما يرتكبه المرء من ذنوب وآثام وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

– اختيار المسجد بيئة صالحة للدعوة إلى الله تعالى ، كما اختار يحيى – عليه السلام – بيت المقدس .

– أن تبليغ الدعوة ، يجب أن يكون للناس جميعاً حسب إمكانية الداعى .

– اختيار المكان البارز لجلوس الداعية ، أو وقوفه ، كشرف عال ، أو منبر ؛ حتى يسمع الحاضرون .

– الاستفتاح فى الخطبة بالحمد لله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله .

– التقديم بما يوحى أن الأمر للجميع ، بما فيهم المتحدث .

– أهم الأوامر التى يجب أن يشغل بها الداعية نفسه أولاً ، هو توحيد الله سبحانه بالربوبية .

– ضرب الأمثلة التى توضح المعانى وتقربها من وسائل الدعاة إلى الله سبحانه .

– الأمر الذى يترجم صحة الإيمان ، بالدرجة الأولى الصلاة ، ولذا يجب أن تكون فى درجتها بعد توحيده سبحانه .

– والصيام تال للصلاة ، فالعقيدة عمل قلبى بحت ، والصلاة ، والصيام امتثال بالجوارح ، وتطويع الجسم للقلب المؤمن .

– والصدقة برهان على ما سبق ، وهى فى محيط المجتمع كله ..

– ثم ذكر الله سبحانه فى كل عمل يعمله المرء . إذا عمل عملا أن يتقنه ؛ فهو فى ذكر الله بلسانه ، وجوارحه ، فى صباحه ومسائه .

**دروس وعبر :**

– إن الله سبحانه يصطفى من عباده لحمل عبء الدعوة من يكونون أهلاً لذلك ، وأول المصطفين هم الأنبياء ، وفى مقدمتهم أولو العزم – عليهم الصلاة والصلام .

– إن تشريف الله سبحانه لأنبيائه . لم يكن مدعاة لأن يكونوا عالة على غيرهم ، بل يزيد من تبعاتهم ، فكان كل يأكل من كسب يده ، وما من نبى إلا ورعى الغنم .

– حب بيوت الله سبحانه ، خدمة لها ، وإقامة فيها ، واختيارها أنسب مكان للدعوة إلى الله سبحانه .

– المسلم يكفل اليتيم ، ويرعاه ، ويحفظه من الإهانة ، والتضييع من كفالة الظالم .

– الله سبحانه يرعى عباده المؤمنين ، ويحفظهم ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، وقد أحس زكريا – عليه السلام – هذا بوضوح فى توالى النعم على مريم .

– نعمة الأبناء تكون إذا ما كانوا صالحين ، سائرين على منهج الله سبحانه ، ولذا حين يتمنى المسلم الذرية . يجب أن تتضح فى ذهنه هذه الصورة للذرية ، ولذا كان الطلب هبة الذرية الطيبة .

– الله سبحانه هو الوهاب الرزاق إليه يتوجه المرء بالدعاء ، ومنه يرتجى العون ، فهو لا يعجزه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء **﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا ، وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾** ( الشورى ٤٩–٥٠ ) فهو الذى يجعل ، وبقدرته أن يحول العقم إلى قدرة على الإنجاب .

– الاستجابة للدعاء مرهونة بتحقيق شروطه ، ومنها الإذعان التام لمنهج الله سبحانه فى كل حياة المسلم ، والله سبحانه يستجيب لعباده على أى شكل من

الأشكال إذا ما بذلوا الأسباب المشروعة فى ذلك .

– طلب الآية ، والعلامة ، أو البرهان إلى الله سبحانه ليس مناقضاً للإيمان ، بل يزيد القلب يقيناً ، واطمئنانا .. وعلى الداعية أن يوفر للمدعوين المزيد من هذه البراهين ، لتحقيق المزيد من يقينهم ، واقتناعهم بصحة الدعوة .

– ضرب المثل المناسب منهج قرآنى ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ ( مريم ٩ ) وعلى المسلم أن يتأسى به ، ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون** ﴾ ( آل عمران ٥٩ ) .

– من صفات عباد الرحمن ؛ المسارعة فى الخيرات ، والخشوع والخضوع لله سبحانه ، رغبا ، ورهباً .

– من لوازم الداعية المسلم : أن يتناول الدعوة بجد ، وفهم ، واستيعاب ، وأخذها بقوة ، وأن يُعْطَى من الحكمة فى القول ، والسداد والتوفيق من الله سبحانه ، كما أنه وهو يقدم دعوته للناس ، عليه أن يقدمها برفق وحنان على أساس من الحكمة والحماسة والقوة ، وأن يكون مثلاً صالحاً مع أقرب الناس إليه يبرهم ، ويتودد إليهم ، وألا يكون التجبر منهجه حين يكون فى السلطة .

– السلام نعمة ، وغاية ، وقد يأتى عن طريق القوة . بالضرب على أيدى العابثين .

– تربية الجيل المسلم على طاعة الله سبحانه فى كل جوانب الحياة ، ليكونوا فى مستقبلهم جنوداً عاملين فى الدعوة إلى الله تعالى : ولذا كان إيتاؤه سبحانه الحكم والحكمة ليحيى – عليه السلام – وهو صبى .

– تكامل الدعوة : قوة فى الاعتقاد ، تربية وتعليم للنشء ، تعامل برفق ، تكامل اجتماعى بالزكاة بر بالأقربين ، محاربة المتجبرين والعاصين ، وضوح الغاية والهدف بتقوى الله عز وجل .

– تكوين الجماعة المسلمة التى تحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى ، وتقيم حكم الله فى الأرض ومن صفاتها التنظيمية : أن يسمع أفرادها ، ويطيعون فى

المعروف ؛ ليكون بناء الجماعة متماسكا والانتقال إلى مواطن أخرى للدعوة إلى الله ، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية . والجهاد فى سبيل الله – ذروة سنام الإسلام – هو الذى يحمى الدين وينشره ، وبالقعود عنه تفقد الدولة قيمتها .

التحذير من مغبة المخالفة للجماعة ، وأن من يدعو إلى الفرقة جاهل ويدعو إلى جاهلية ، وأن على المسلم أن يحارب الجاهلية ، وأن يتبرأ من صفاتها .

## عيسى – عليه السلام .

- نذر امرأة عمران .
- إنبات مريم إنباتاً حسناً .
- اصطفاء مريم .
- انتباذ مريم المكان الشرقى .
- الحمل بعيسى – عليه السلام .
- مريم فى حوار مع قومها .
- نطق الطفل تبرئة ، ورسالة .
- من صفات عيسى – عليه السلام .
- من معجزات عيسى – عليه السلام .
- التأييد بروح القدس – عليه السلام .
- عيسى – عليه السلام – مصدقاً ، ومبشراً .
- دعوته لقومـه .
- دعوته للحواريين .
- خبر المائـدة .
- التوفية ، والرفع إلى السماء .
- تنزيه الله سبحانه عن الولد .
- نزول عيسى – عليه السلام – قبل يوم القيامة .
- عيسى – عليه السلام – فى السماء الثانية .
- دروس وعبر .

**نذر امرأة عمران .**

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ إن الله اصطفى آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، إذ قالت امرأة عمران : رب ، إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى ؛ إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت : رب ، إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك ، وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾**(١) .

يبدأ الحديث عن عيسى – عليه السلام – بوصف الشجرة الطيبة التى يتصل بها ، ويتفرع منها .

– فقد اصطفى الله سبحانه آل عمران ، واختارهم على عالمى زمانهم .

– وأن آل عمران امتداد إيمانى لآل إبراهيم ، ونوح ، وآدم – عليهم السلام .

– وأن سلسلة الأنبياء متصلة الحلقات ومترابطة .

– وأن الإيمان يجب أن يكون بهم جميعاً **﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾** .

– وأن الله سبحانه يتصف بالسمع ، والعلم ؛ يسمع عباده حين يجأرون إليه بالشكوى ، وحين ينذرون الخير له سبحانه ، ويعلم ما يصلحهم وما يضرهم ، ويعلم حين يرزق بالأنثى ، ماذا يريد بها ؟ وحين يرزق بالذكر أى خدمة يؤديها ؟

وفى ضوء هذا البيان والوصف للجوانب الإيمانية ، يبدأ الحديث على لسان امرأة عمران أم مريم ، حيث يخبرنا الله سبحانه :

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات من رقم ٣٣ إلى رقم ٣٦ .

– أن امرأة عمران رأت عوارض الحمل فى بطنها ، فنذرت أن تهبه لخدمة المسجد الأقصى ، حبيساً ، ومحرراً له ، وخاصا به دون أى عمل آخر . وقد اعتادوا أن القائم بهذه الخدمة أن يكون من الرجال ، لا النساء . لما بالرجال من جلد ، وقدرة جسمية على تحمل أعباء الخدمة ، فهى قد نذرت ما فى بطنها بشكل عام ، ولكن الهدف من النذر حدد رغبتها فى نوع الجنس المتمنى ، وهو الذكر ، كما توحى عبارات النذر أن امرأة عمران لم يسبق لها أن ولدت .

– وشفعت امرأة عمران دعاءها ، وطلبها بما يجب أن يشفع به المؤمن الصالح دعاءه ، ومناجاته لربه سبحانه ، فألحت على ربها سبحانه أن يقبل منها نذرها ، وطلبها قبول النذر ، كما شفعت امرأة عمران دعاءها بما قرره الله سبحانه قبل ذلك من الاعتقاد بأنه سميع عليم . مما يدل على أن آل عمران تربوا على الاعتقاد الصحيح ، وأن امرأة عمران نموذج إيمانى طيب .

وجاءت لحظة الوضع ، اللحظة المنتظرة التى يترتب عليها ما بعدها ، وكانت المفاجأة غير المنتظرة ، فقد نظرت إلى المولود فإذا به أنثى ؛ فظهرت الدهشة على وجهها ، والتعجب فى قولها : رب ، إنى وضعتها أنثى ، وقدمت لفظ « رب » لما بها من شدة الدهشة والتعجب ، ولم تقدم الموضوع ذاته ، وهو ولادة الأنثى ، ليدل على العلاقة الوطيدة بالرب سبحانه ، وأن القضية فى ذاتها – مهما كانت ضخمة – فهى موكولة إلى الله السميع العليم .

والله أعلم بما وضعت ، فإن كانت هى على علم بأمرها فالله سبحانه أعلم ، وجاءت العبارة لتؤكد ما قررته الآيات قبل ذلك من الاعتقاد بأنه سميع عليم ، وترد برفق على امرأة عمران ، وأم مريم ، وتشير إلى أن هناك خطا مرسوماً وهدفا معلوماً من ولادة الأنثى ؛ لتكون أما من نوع خاص تلد دون زوج ، والعبارة جاءت معترضة لتقوم بهذه المهمة . « والله أعلم بما وضعت » وتحتمل العبارة التالية : « وليس الذكر كالأنثى » أن تكون امتداداً لقول أم مريم ، وبيانها بأن الرجل فى خدمة المسجد الأقصى ليس كالأنثى ، كما يحتمل أن تكون امتداداً لما سبقها مباشرة .

وبدأت تفيق امرأة عمران على الأمر الواقع المشاهد ، وتنفذ ما يطلب إليها

حين ولادة مولود .

وأول البشريات للمولودة الأنثى التى بعثت الرضا ، والأمل فى قلب الأم ، فقد نزلت من بطن الأم دون صراخ ، وبكاء ، مع وجود الحياة ومظاهرها .

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول :

**« ما من بنى آدم مولود إلايمسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم ، وابنها » .**

ثم يقول أبو هريرة :

**« وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »**(٢) .

وأسهمت امرأة عمران فى مجريات الأحداث ، بتوفيق من الله سبحانه ، فاختارت للمولودة الجديدة اسما هو مريم فى لحظة ولادتها ، وفى ذلك دليل على جواز التسمية حين الولادة ، وقد جاءت الشريعة الخاتمة بما يفيد ذلك .

فعن أبى موسى – رضى الله عنه – قال : ولد لى غلام ، فأتيت به النبى – ﷺ – فسماه إبراهيم ، فحنكه بتمرة ، ودعا له بالبركة ، ودفعه إلى ، وكان أكبر ولد أبى موسى(٣) .

وعن سهل بن سعد – رضى الله عنه – قال : أتى بالمنذر بن أبى أسيد (٤) إلى

---

(٢) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى – عليه السلام ، رقم ١٥٢٧ ص ٦٢٢ ، وصحيح البخارى فى كتاب الأنبياء . باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ١٩٩ . وقد رواه الإمام أحمد من عدة طرق عن أبى هريرة ، ورواه غيرهم أيضاً .

(٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الآداب ، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، وحمله إلى صالح يحكنه ، وجواز تسميته يوم ولادته ، رقم ١٣٨٧ ص ٢٥٦ .

(٤) المنذر بن أبى أسيد الساعدى ، واسم أبى أسيد مالك بن ربيعة الأنصارى الخزرجى ،ولد عام الفتح ، والرسول – ﷺ – هو الذى سماه باسمه هذا ، كما ترى فى =

النبى – ﷺ – حين ولد ، فوضعه على فخذه ، وأبو سعيد جالس ، فَلَهَا النبى – ﷺ – بشىء بين يديه ، فأمر أبو أسيد بابنه ، فاحتمل من فخذ النبى – ﷺ – فاستفاق النبى – ﷺ – فقال : « **أين الصبى ؟** » فقال أبو أسيد : قلبناه يا رسول الله . قال : « **ما اسمه ؟** » قال : فلان . قال : « **ولكن أسمه المنذر** » فسماه المنذر (٥) .

وفى الباب أيضاً تسمية مولود أبى طلحة ، وأم سليم (٦) – رضى الله عنهما – من الرسول – ﷺ – بعبد الله (٧) .

فجاءت تسمية امرأة عمران مولودتها بمريم حين ولادتها موافقة للسنة النبوية التى عليها الأنبياء ، وعليها خاتمهم محمد – ﷺ – .

وتلك التسمية وفى هذا الوقت ، وإعاذة من الشيطان الرجيم أكدت

---

= الحديث . الإصابة لابن حجر ج ٣ ص ٤٨٠ رقم ٨٣٣٣ ، ولعل سهل بن سعد هو الخزرجى الأنصارى الساعدى من مشاهير الصحابة ، عاش نحو مائة سنة ، وله فى كتب الحديث ( ١٨٨ ) حديثاً عن فهارس حدائق الأنوار للشيبانى ج ٢ ص ١١٦٣ .

(٥) المصدر السابق رقم ١٣٨٩ .

(٦) أبو طلحة الأنصارى اسمه زيد بن سهل بن الأسود بن حرام .. الأنصارى النجارى الخزرجى ، شهد بدراً وما بعدها ، وورد فى شأنه : لصوت أبى طلحة فى الجيش خير من مائة رجل ، وقتل فى حنين عشرين رجلاً ، وكان يتطاول بصدره يقى به رسول الله – ﷺ – ويقول : نحرى دون نحرك . توفى سنة إحدى وثلاثين ، وهو ابن سبعين سنة ، وصلى عليه عثمان – رضى الله عنهما . الاستيعاب لابن عبد البر ، هامش الإصابة ج ٤ ص ١١٣ .

وزوجته أم سُلَيم ( بضم السين ، وفتح اللام ) واسمها : سهلة ، وقيل : رُميلة ، أو رُميثة ، أو مُليكة ، أو الرميصاء ، أو الغميصاء . كانت تحت مالك بن النضر أبى أنس ابن مالك ، فلما جاء الله بالإسلام ، أسلمت مع قومها ، وعرضت الإسلام على زوجها فغضب عليها ، وخرج إلى الشام فهلك هناك ، ثم تزوجها بعده أبو طلحة الأنصارى . فهرس الأعلام ، لحدائق الأنوار ، للشيبانى ص ١١١٤ ، و ص ١١٦٣ .

(٧) المصدر السابق رقم ١٣٨٦ .

اصطفاء الله سبحانه لآل عمران ، بذكر أسبابه ، ومنذ ذلك الحين بدأ الحديث عن مريم ، بعد أن أدت أمها أهم الأدوار فى حياتها .

**إنبات مريم الإنبات الحسن :**

قال الله تعالى :

**﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾** (٨) .

وقال تعالى :

**﴿ وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم . أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾** (٩) .

ولدت امرأة عمران ، وسمت ابنتها مريم ، وأعاذتها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم ، وتمت هذه الأمور الثلاثة لحظة الولادة ، وبدأت فترة الحضانة فى رعاية الأم ، وإن لم تحدثنا الآيات عن هذه الفترة على وجه التصريح ، فقد أشارت إليها قبل كفالتها ، وأن الأصل فى ذلك أن تكون الأم هى دون غيرها الموكولة إليها رعاية الطفل الرضيع ؛ لما تقوم به من الرضاعة حولين كاملين .

والعبارة التى أشارت إلى فترة الحضانة هى :

**﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسناً ﴾** (٨) .

والتقبل هنا استجابة لدعاء الأم ، وهى حامل : « فتقبل منى » وامتداد لما صنعته عقب الولادة ، وسياق العبارة على هذا النحو يدل على :

– أن الله سبحانه هو الذى سيربيها ، ويرعاها الرعاية الخاصة ، التى تختلف عن تربية الأخريات من البنات .

---

(٨) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٧ .

(٩) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٤ .

- وأن الله سبحانه استفتح حياتها بالقبول ، والرضا .

- وأن هذا القبول خاص بمريم ، وما كانت الأم إلا سببا من الأسباب ، فلم يكن التعبير مثلاً « فتقبل الله دعاء امرأة عمران فى مريم » ولكن كان : « فتقبلها ربها » .

- وأن حياة مريم بمعرفة الله سبحانه ، وتعهده لها التعهد الحسن الطيب .

- وأنها أيضاً بالصورة القويمة المكتملة ، ليس بها من عيب خِلقى ( بكسر الخاء ) أو خلقى ( بضم الخاء ) .

وانتهت فترة حضانة الأم لابنتها مريم ، وعليها أن توفى بالنذر ، وتقدمها إلى المسجد الأقصى خادمة له ، وحيث يقيم الصالحون فيه .

فأى هؤلاء الصالحين الأتقياء يكفل مريم ؟

ورأى الجميع بشائر الرضا الإلهى بمريم الصغيرة ، والقبول الطيب الحسن ، تسارعوا ، وتنافسوا . كل يريد أن يكون هو من يشرُف برعايتها ، وكفالتها .

وتلك الرغبة تعنى أمـرين :

١ - الأمر الأول : أنه لابد فى نظرهم منِ تحديد مسئول عن الصغيرة ، ولا تترك ليعتمد هذا على ذاك ، وفى ذلك ضمان للصغيرة مريم ، وأن ذلك كان من شأنهم فى تعيين الوصى ، والولى .

٢ - الأمر الثانى : أن العمل الصالح ، يتنافس على القيام به الناس الصالحون . دون مقابل مادى ، وأن ذلك واجب شرعى يحسونه جميعاً ، ويدركونه ، وقد بدءوا تنفيذه منذ اللحظة الأولى دون توانٍ ، أو تراخٍ .

واتخذت هذه الرغبة طريقها إلى التنفيذ ، فواجهت عدداً يريد أن يقوم كل منهم بالكفالة ، فكانت القرعة هى الحل لما بين القوم من خصومة وتنازع فى الخير ، فاختار كل منهم قلَماً مميزاً باسمه مثلاً ، ووضعت جميع الأقلام فى مكان بعد أن خلطت ببعضها ، ليسحب واحد منهم أيَّها ، وخرجت القرعة بقلم زكريا - عليه السلام .

وفصلت هذه القرعة بين فترتين :

١ - فترة حضانة الأم بالإرضاع ، ومايلزم للصغيرة من رعاية أُمِّهاَ لَها .

٢ - وفترة كفالة زكريا - عليه السلام - لها ، بعد أن ضمت إلى المسجد الأقصى .

وتأتى العبارة « وكفَّلها زكريا » مفتتح الفترة الثانية على هذا النحو من الضبط للفعل الماضى بتشديد الفاء ، فَعُدِّى الفعل إلى مفعولين ، ضمير الغائبة ، وهى مريم ، وزكريا ، والفعل دون التشديد مثلا تكون كلمة زكريا معه فاعلا لا مفعولاً . فما الأثر إذن فى المعنى ؟

أعطانا التضعيف هذا حكما لطيفاً ، هو أن الله سبحانه وتعالى هو المتكفل لمريم فى الحقيقة ، وأنه أعَدَّ ، وهَيَّأ ، وكفَّل شخصاً هو زكريا ليقوم بمباشرة هذه الكفالة ، وبما يوفقه الله سبحانه فى ذلك . ولا يتأتى هذا المعنى إذا ما ألغى التضعيف .

فالقبول الحسن من الله تعالى ، والإنبات الحسن من الله تعالى ، والتكفيل من الله سبحانه ، وهو حسن أيضاً ؛ لأن الله سبحانه هو الذى اختار زكريا - عليه السلام - ليقوم بدور الكفالة .

ويأتى الدليل الحاسم على ما سبق من تلك النعم الثلاث :

فقد تكرر أن زكريا - عليه السلام - حين كان يدخل على مريم فى محرابها ، ليقوم بما كلف إياه ، يجد الرزق الطيب عندها ، فيتساءل :

من أين لك هذا ؟ أأحضره أحد المنافسين فى الخير ، وقد فزت عليهم بالقرعة ؟ أم من ؟ ﴿ **أنى لك هذا** ﴾ .

فتكون الإجابة ، والدليل على القبول ، والإنبات ، والتكفيل .

﴿ قالت :هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (١٠) .

فأى تكريم أجمل ، وأفضل من تكريم الله سبحانه لخير نساءِ العالمين ؟!

إن الله سبحانه وتعالى ، يرزق عباده على النحو الذى يراه ، ويفضل بعضهم على بعض ، على النحو الذى يراه ، ويشاؤه بغير حساب . فخزائنه لا تنفد ولا تنقص ، وليست كخزائن البشر التى تنقص بالأخذ ، وتزيد بالإضافة .

وتأتى أمنية زكريا – عليه السلام – أن يرزق بولد يُعْطَى من التكريم كما تعطى مريم ؛ دليلاً ثانياً على تأكيد القبول الحسن ، والإنبات الحسن ، والتكفيل الحسن ، وقد لبى الله تعالى دعاءه كما سبق أن تحدثنا فى ذلك . والله أعلم بالصواب .

**اصطفاء مريم :**

قال الله تعالى :

**﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم ، إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم ، اقنتى لربك ، واسجدى ، واركعى ، مع الراكعين ﴾ (١١) .**

وعن على – رضى الله عنه – قال : سمعت النبى – ﷺ – يقول :

**« خير نسائها مريم ابنة عمران ، وخير نسائها خديجة » (١٢) .**

---

(١٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٧ .

(١١) سورة آل عمران ، الآيتان رقما ٤٢ ، ٤٣ .

(١٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة – باب فضائل خديجة أم المؤمنين – رضى الله عنها – رقم ١٥٧٣ ص ٦٤٦ وصحيح البخارى ، كتاب الأنبياء . باب « إذ قالت الملائكة : يا مريم » ورواه أيضاً أحمد ، والترمذى ، والنسائى . من طرق عدة عن على – رضى الله عنه .

وعن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : قال : رسول الله – ﷺ – :

« **كمل من الرجال كثير . ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** » (١٣) .

وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ :

« **حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد** » (١٤) .

يخبرنا الله سبحانه فى النص القرآنى أنه بلغ مريم بوساطة الملائكة أنه اصطفاها ، واختارها . والاصطفاء لا يكون إلا إذا توافرت مؤهلاته ، وأسبابه ؛ فقد وهبت لخدمة المسجد الأقصى قبل أن تولد ، وحين الولادة لم يمسها شيطان فلم تصرخ ، فقد أعاذتها أمها من الشيطان الرجيم ، وتقبلها ربها ، وأنبتها نباتا حسناً ، واختار لكفالتها نبيا من الأنبياء ، وأنزل لها الرزق من السماء . وتمت مؤهلات الاصطفاء وأسبابه .

كما يخبرنا أنه طهرها من الذنوب ، والآثام منذ صغرها ؛ – وحسبها أنها أقامت بالمسجد الأقصى – وهذا التطهير مقدمة لما سيحدث بعد ذلك من ولادة عيسى – عليه السلام – فإبرازه فى سيرتها بين قومها ليكون أساساً فى نفى التهمة عنها من الناس أنفسهم ، فقد ورد على لسانهم :

﴿ **يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً** ﴾ (١٥) .

---

(١٣) أخرجه الشيخان . المصدر السابق رقم ١٥٧٤ ، وصحيح البخارى كتاب الأنبياء ، باب قوله : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا** ﴾ ( التحريم ١١ ) .

(١٤) رواه الترمذى ، وصححه ، كما رواه أحمد . البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(١٥) سورة مريم ، الآية رقم ٢٨ .

وعلى لسانها :
﴿ ولم أك بغيا ﴾(١٣) .

أما تكاليف الاصطفاء والاختيار والتطهير ، فقد بينها الله سبحانه فى قوله :

﴿ يا مريم ، اقنتى لربك ، واسجدى ، واركعى مع الراكعين ﴾ (١١)

فإذا ما كانت مريم قد بدأت مسيرتها على هذا النحو ، فهى هنا مكلفة بالمثابرة على ذلك ، وملازمته ؛ استعداداً لأمر جلل سيحدث .

ومناط التكليف هنا : القنوت ، والدعاء ، وذكر الله سبحانه ؛ وهذا إطار عام للتكليف . ثم السجود ، والركوع ، وإن كان بهما ذكر ودعاء ولكن هيئة السجود ، والركوع تمثل درجة أعلى فى الخضوع والذلة لله سبحانه وتعالى . ثم هى فى هذا الركوع ، والسجود تلازم جماعة المسلمين ، وفى أولهم زكريا – عليه السلام .

والنص القرآنى بهذا يتضمن جانبين :

١ – جانب الحكم على الواقع الحاضر الممتد خلفيا إلى ما سبق من سيرة مريم ، وهو جانب الاصطفاء ، والتطهير ، وناسب هذا الجانب أن يكون بصيغة الإخبار .

٢ – جانب التكليف ، والأمر . والذى يبدأ بمجرد سماع الأمر ، ويمتد أماميا إلى ما يقدم من أيام حتى الموت ، أو حتى ينسخه ناسخ . وناسب هذا الجانب أن يكون بصيغة الأمر كما ترى فى النص القرآنى .

كما تضمن النص القرآنى مسألة متعلقة بالجانب الأول ، بينتها الأحاديث الشريفة السابقة . هذه المسألة هى اصطفاء مريم على نساء العالمين .

فالحديث الذى رواه أبوموسى الأشعرى – رضى الله عنه – يبين أن هذا الاصطفاء كمال فى الجسم ، وكمال فى الأخلاق ، وقد شاركتها فى ذلك آسية امرأة

---

(١٦) سورة مريم ، الآية رقم ٢٠ .

فرعون ، دون تفضيل لإحداهما على الأخرى . والحديث الذى رواه أنس – رضى الله عنه – أضاف اثنتين هما خديجة ، وفاطمة – رضى الله عنهما – على اعتبار أنهما تاليتان لمريم ، وآسية ، وليس فى هذا أى تناقض . أما الحديث الذى رواه على – رضى الله عنه – فقد جاءت صيغة التفضيل بكلمة خير مضافة إلى كل من مريم ، وخديجة ، ووجود صيغة التفضيل فى نص واحد تدفعنا إلى أن نقول :

إما أن يكون اسم التفضيل على غير بابه يعنى من خير نساء الدنيا كل من مريم وخديجة . وإما أن يكون على بابه بمعنى أن خير نساء الدنيا فى زمان مريم هى مريم ، وأن خير نساء هذه الأمة ، أى منذ البعثة هى خديجة ، ولكل منهما امتداد طيب ؛ فقد كانت مريم أم عيسى – عليه السلام – أحد أولى العزم من الرسل ، وكانت خديجة إحدى الأربع الكاملات كما فى رواية أنس ، وكانت أم فاطمة – رضى الله عنهم أجمعين .

ولا يمنع أن تكون مريم أفضل النساء على الإطلاق ، وقد لقبها ربها بالصديقة حيث قال :

**﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ﴾** (١٧) .

فهى صديقة ، وهى أم نبى ، وكان حملها معجزة من المعجزات ، والله أعلم بالصواب .

### انتباذ مريم المكان الشرقى :

قال الله تعالى :

**﴿ واذكر فى الكتاب مريم ؛ إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إنى**

---

(١٧) سورة المائدة الآية رقم ٧٥ .

**أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾** [١٨] .

إن مريم وقد أقامت بالمسجد الأقصى ، لابد أنها كانت تخرج من المسجد فى زمن حيضتها ، أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء ، أو تحصيل غذاء ، أو دخول غائط ، وهى فى أى حال من هذه الأحوال تبتعد عن مكان إقامتها بالمسجد من ناحية ، وعن أهلها من ناحية أخرى ، وأن اتجاهها كان إلى جهة الشرق ، وفى بعض هذه الأحوال تأخذ لنفسها ستراً يحجبها عن الناس جميعاً ، بحيث تكون فى مأمن من رؤية أحد لها .

وفى إحدى هذه المرات فوجئت بهيئة رجل سوى الخلق . فمن أين جاءها هذا الرجل ؟ وماذا يريد منها وهى عزلاء ؟

ما كان منها إلا أن تعوذت منه بمن يرحمها ويصون عفتها ، ويشفق عليها ، ومن اصطفاها على نساء العالمين ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهى فى هذه الاستعاذة تستعطف هذا الرجل ، وتلوح إليه بتقوى الله سبحانه ، والخوف منه ، لعلَّه يرجع عما ظنته فيه .

**الحمل بعيسى – عليه السلام :**

قال الله تعالى :

**﴿ فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها : ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى ، واشربى ، وقرى عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً فقولى :**

---

(١٨) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٦ ، إلى رقم ١٨ .

إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (١٩)

وقال :

﴿ والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ﴾ (٢٠) .

وقال :

﴿ إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ (٢١) .

وقال :

﴿ قالت : رب أنى يكون لى ولد ، ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ (٢٢) .

وقال :

﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه ﴾ (٢٣) .

وقال :

﴿ وجعلنا ابن مريم ، وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ (٢٤) .

وقال :

﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين ﴾ (٢٥) .

---

(١٩) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٦ .
(٢٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٩١ .
(٢١) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٥ .
(٢٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٧ .
(٢٣) سورة النساء ، الآية رقم ١٧١ .
(٢٤) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٥٠ .
(٢٥) سورة التحريم ، الآية رقم ١٢ .

فى مجموع هذه الآيات الكريمة ، التى تتحدث عن اللحظات الحرجة فى حياة مريم يخبرنا الله سبحانه وتعالى :

أن مريم ابنة عمران أحصنت فرجها ، وعفت عن الحرام ، فالمرأة الحصان ( بفتح الحاءِ ) هى العفيفة بكراً ، أو متزوجة ، ولذا كان من ردها على الرسول الملك :

﴿ ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغياً ﴾ (١٩) .

فسيرتها على طهر ، ونقاء ، وحين جاء إليها الملك فى صورة بشر ، استعاذت بالله منه ؛ اعتقاداً منها بأنه بشر على الحقيقة ، وحين أخبرها بأنه رسول ربها إليها ، وظهر الصدق فى هذا الإخبار ، فاطمأنت إليه ، فسوف لا يكون فى ربها إلا كل خير ، وفى هذه الحالة النفسية الراضية بأمر الله سبحانه ، أخبرها الملك بأنه سيهب لها غلاماً زكيا طاهراً من الدنس ، وسمى هذه الهبة بشرى بكلمة من الله ، وروح من الله سبحانه .

واجهت مريم معجزة جديدة هى الحمل دون زوج ، والنتيجة معلومة سلفاً ، غلام طاهر ؛ لأنه كلمة من الله وروح منه ، وكانت مفاجأة لمريم تعجبت منها ، كيف يتم ذلك دون زوج ؟ وقُطع التعجب بردِّ الملك :

﴿ كذلك قال ربك : هو على هين ﴾ (١٩) .

﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ؛ إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ (٢٢) .

فأذعنت للأمر ، وصدقت بكلمات ربها ، وكتبه . وما كان منها إلا ذكر الله وتقديسه .

وتخبرنا الآيات أيضاً بأن الذى تم لبدء الحمل هو النفخ فقط ، والله على كل شىء قدير . وبقى عليها أن تعد شهور الحمل يوما يوماً ، وتفكر مبدئيا . كيف تظهر أمام الناس حاملاً ؟ ثم كيف تظهر أمامهم حاملة وليدها ؟

ورأت أن تتخذ لنفسها مكانا قصيا بعيداً عن أعين الناس ، وحان وقت

المخاض ، فاضطرها إلى اللجوء إلى جذع نخلة حيث بيت لحم الآن(٢٦) ، ووصل بها الضيق فى هذه الحالة أن تمنت الموت بسبب الفتنة الشديدة التى ستتعرض إليها ، وذلك أنها علمت أن الناس سيتهمونها ، ولا يصدقونها ، بل سيكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات ، المجاورات للمسجد ، المنقطعات إليه ، المعتكفات فيه . فحملت بذلك من الهم ماتمنت أن لو كانت ماتت(٢٧) قبل هذا ، أو كانت نسيا منسيا . أى لم تخلق بالكلية .

---

(٢٦) كما ينص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لابأس به عن أنس مرفوعاً ، والبيهقى بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ، ابن كثير فى البداية ، والنهاية ج ٢ ص ٦٦

(٢٧) عن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا الموت ، فليقل : اللهم ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى** » ( أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الذكر ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار . باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به رقم ١٧١٧ ص ٧٢٩ وصحيح البخارى . كتاب الدعوات ، باب الدعاء بالموت والحياة ) .

وقد قال الدكتور عبدالستار أبو غدة فى هامش اللؤلؤ :

ضر أصابه : حمله جماعة من السلف على الضر الدنيوى ، فإن وجد الضر الأخروى ؛ بأن خشى فتنة فى دينه لم يدخل فى النهى . وقال الإمام النووى : فيه التصريح بكراهة تمنى الموت ، لضر نزل ؛ من مرض ، أو محنة من عدو ، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا . فأما إذا خاف ضرراً فى دينه ، أو فتنة فيه ، فلا كراهة فيه ؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره . وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف ألفتنة فى أديانهم . انتهى كلام النووى .

وعن قيس ، قال : أتيت خبابا – رضى الله عنهما – وقد اكتوى سبعاً فى بطنه . فسمعته يقول : لولا أن النبى – ﷺ – نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ( أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، الكتاب ، والباب السابقان رقم ١٧١٨ ) .

هذا ، وليس هناك حالة أشد من حال مريم هذه . والله أعلم بالصواب .

وجاءت الطمأنينة بوساطة جبريل – عليه السلام – ﴿ فناداها من تحتها ﴾ وأصاخت إلى النداء الصادر من منطقة الخوف ، والفزع ، ولم يكن من فوقها ، أو من أى جهة أخرى ، ولكن كان من تحتها ، واستمعت للصوت فإذا به ﴿ ألا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ (١٩) .

دعاها جبريل – عليه السلام – إلى عدم الحزن ، وأن الله سبحانه قد تكفل أمورها منذ اللحظة الأولى ، ماديا ، ومعنويا . وها أنت فى هذا المكان القصى بجوارك الماء الجارى ، والنخلة المثمرة بالرطب الجنى ، ويتساقط تمرها بمجرد هز الجذع من مريم (٢٨)

وما تصورته مريم منذ لحظات سببا فى تمنيها الموت أصبح هو نفسه سببا لتنزل جلابيب الرحمة من الله سبحانه ، وأهلت عليها بشائرها .

وقدم لها جبريل – عليه السلام – تلك الوصية تبليغاً عن ربه سبحانه ، حين تواجه قومها للمرة الأولى ، تقول :

﴿ إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (١٩) .

---

(٢٨) ليس فى ذكر النخلة أى إشارة إلى طولها ، فتبقى على المألوف من النخل إذا ما بلغ القدرة على الإثمار ، والله سبحانه الذى جعلها تحمل دون بشر ، ورزقها من الطيبات وهى فى محراب المسجد الأقصى ، قادر على مضاعفة هزها الضعيف ليصل إلى درجة إسقاط الرطب اللازم لأكلها ، والله أعلم .

وقد أضاف النبى – ﷺ – إلى الرطب القثاء فأكلهما سويا .

فعن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب – رضى الله عنهما – قال : رأيت النبى – ﷺ – يأكل الرطب بالقثاء . ( أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الأشربة . باب أكل الرطب بالقثاء . رقم ١٣٢٥ ، وصحيح البخارى كتاب الأطعمة ، باب الرطب بالقثاء ج ٧ ص ١٠٢ . ومختصر مسلم . كتاب الأطعمة ، باب أكل القثاء بالرطب ج ٢ ص ١١٤ وزاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ١٦٦ باب ذكر الأغذية والأدوية ( حرف الراء ) ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، وفى رواية أخرى لمسلم : « كان يأكل البطيخ بالرطب » ويقول : « نكسر حر هذا ببرد هذا ، وبرد هذا بحر هذا » وقال محقق المختصر الألبانى :

وهذا النذر مرحلة تمهيدية لما سيحدث بينها ، وبين قومها من حوار (٢٩) .

---

( وهو مخرج فى الأحاديث الصحيحة رقم ٥٦ ) والرطب : ثمر النخل إذا أدرك ، ونضج قبل أن يتتمر ، الواحدة ، رطبة ، والقثاء : اسم لما يسمى بالخيار والعجور ، والفقوس ، واحدته قثاءة .

وأغنى عن القثاء بالنسبة لمريم ، إضافة الماء بعد الرطب ، ﴿ **فكلى ، واشربى ، وقرى عيناً** ﴾ وقد روى البخارى من حديث جابر بن عبدالله – رضى الله عنهما – حين أخبر النبى – ﷺ – عن تمره : فقال لأصحابه :

« **امشوا نستنظر لجابر من اليهودى** » قال جابر : فجاءونى فى نخلى ... فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى – ﷺ – فأكل ... ( وتكرر إحضاره للرطب ، وكان يأكله وحده – مع وجود فترة صغيرة بين كل مرة ) .

الحديث بتمامه وطوله أخرجه البخارى فى صحيحه بالكتاب ، والباب السابقين ص ١٠٣ ج ٧ .

وهو يوافق إلى حد ما مارواه أبو داود فى سننه عن أنس – رضى الله عنه – قال : كان رسول الله – ﷺ – يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فتمرات ، فإن لم تكن تمرات حسا حُسوَات من ماء . زاد المعاد لابن القيم نفس الجزء والباب والصفحة ، وإن كان فى فضل الإفطار بالتمر ورد حديث أقوى عند الشيخين . فعن سعد ابن أبى وقاص – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول :

« **من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سُمٌّ، ولا سحر** » ( اللؤلؤ والمرجان . كتاب الأشربة ، باب فضل تمر المدينة رقم ١٣٢٧ ص ٥٣٢ ، وقال النووى : فى هذا الحديث فضيلة تمر المدينة ، وعجوتها ، وفضيلة التصبح بسبع تمرات ، وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها .. هذا والله أعلم بالصواب ، وبالمراد ، وهو الحكيم العليم بما يصلح عباده . فاللهم اجعل صلاحنا فى إيماننا .

(٢٩) والصوم هنا بمعنى عدم مخاطبة الناس والتحدث معهم ، وناسب التعبير هذا المعنى حيث كانت الفاء فى قوله « فلن » دون الواو . فالنذر فى الآية لشىء واحد هو الصوم بمفهومه ، والذى من لوازمه عدم مخاطبة الناس ، وغير ذلك مع الواو . والله أعلم .

**مريم فى حوار مع قومها :**

قال الله تعالى :

**﴿ فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم ، لقد جئت شيئاً فَرِيّاً يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : إنى عبدالله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة ، والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً ﴾** (٣٠) .

قضت السيدة مريم زمن نفاسها أيا كان مقداره ، فقد يصل إلى أربعين يوماً ، وقد ينقطع وينتهى فى لحظة ، وبعد انقضاء هذه الفترة حملت وليدها ، وأتت به قومها ، وفوجئ القوم بمريم تحمل طفلا صغيراً ، ولم يسبق لهم علم بأنها تزوجت . فمن أين جاءت بالوليد ؟ وخاطبوها منكرين لما رأوا ، متعجبين منه بقولهم :

**﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ﴾** .

ونداؤها باسمها فى مطلع خطابهم يشير إلى ما عهدوه بشأنها من صلاح ، وتقوى ، ورعاية الله سبحانه لها ، وهى تخدم أشرف مكان علموه ، وهو المسجد الأقصى .-أى ، يا مريم ، يا من تحققت فيك كل المكرمات ، لقد جئت شيئاً فريا ، جئت أعظم المنكرات ، وتوجهت التهمة إلى مريم ، على الرغم مما سبق لها من تاريخ ناصع ، فقد أتت فى نظرهم شيئاً منكراً عظيماً . فالفرية تدل على عظم المنكر قولاً ، أو فعلاً ، ولا يرون أفدح منكراً مما رأوه من فعلها .

والعبارة الأولى التى تضمنت النداء لمريم ، والإنكار عليها . تتوجه إلى شخصية مريم فى ذاتها ، والأعمال التى قامت بها هى . وتأتى العبارة التالية .

---

(٣٠) سورة مريم ، الآيات من رقم ٢٧ إلى رقم ٣٣ .

فتتوجه إلى السلسلة التى تتصل بها ، والشجرة التى تفرعت منها ، فأخلاقها شبيهة بأخلاق هارون ، التى تتصل نسباً به ، وقد عرفوا عنه أخلاقه الكريمة ، وسجاياه النظيفة ، وأبوها عمران من الناس الصالحين ، ولم يسمع عن أمها إلا كل خير ، ولم تخدش سمعتها بأى نقيصة خلقية . فلم يا مريم تشذين عن أسرتك ، وتخالفين مسيرتك ؟ .

يعنى أن السيدة مريم لم تقع تحت ضغوط اجتماعية ظالمة لتلجئها إلى مثل هذا التصرف — كما نعبر فى أسلوبنا الحديث ، ويتحمل المجتمع الظالم مقداراً كبيراً من الخطأ ، وما الأشخاص إلا أدوات ، وظواهر لهذا المرض الاجتماعى .

وحين تتجمع الدلائل المادية ضد البرىء ، يقع فى حيرة شديدة من أمره ، ولكن السيدة مريم هنا أمام معجزة . وستمتد إلى معجزات أخرى ، وقد علمت أن تبرئتها ستكون بوساطة هذا الطفل المعجزة ، عيسى بن مريم ، عليه السلام — وتدل الآيات الكريمة على نوع من الوحى لمريم بأن تشير إلى عيسى — عليه السلام — لينطق بالحق ، ويبرىء أمه ، ، ويضع قومه أمام الحقيقة ، وأمام المعجزة ، وأمام حقيقته هو التى ضلَّ بنو إسرائيل فى فهمها ، على الرغم من أنهم رأوها رأى العين ، وسمعوها بآذانهم .

فهم القوم من إشارة مريم إلى الطفل قصدها بأنه هو الذى سيجيب ؛ بدليل استنكارهم تلك الإشارة . فقد قالوا :

**﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ ﴾ .**

أى كيف تحيليننا فى الجواب ، على صبى صغير لا يعقل الخطاب ؟ وهو مع ذلك رضيع فى مهده ، ونحن نرفض هذا التهكم بنا ، والازدراء ؛ إذ لا تردين علينا بحديث منك ، وقد ملكت القدرة على النطق ، وتحيلين الجواب على من لا يملك القدرة على النطق .

**نطق الطفل تبرئة ، ورسالة :**

وإذ بالطفل ينطق ، ويخاطب القوم جميعاً ، وبمجرد النطق كانت تبرئة السيدة مريم من التهمة التى وجهها قومها إليها .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وبينا صبى يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ... »** (٣١) .

وقال الله تعالى ، على لسان عيسى – عليه السلام ، وهو بالمهد صبيا :

**﴿ قال : إنى عبدالله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة ، والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى . ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً ﴾** (٣٢) .

ويتضمن كلام عيسى – عليه السلام – وهو فى المهد :

– أنه اعترف لربه سبحانه بأنه عبد له ، وأنه برىء من المغالين فيه ، وزعموا أنه ابن الله سبحانه ، وأنه ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقولون علوا كثيراً . ﴿ **إنى عبدالله** ﴾ أول صفة رَدَّ بها . ويذكر الله سبحانه عبودية الرسل ، والصالحين له فى مقام التكريم ، والتبجيل ؛ قال الله تعالى فى النبى محمد – ﷺ – فى حادثة الإسراء :

---

(٣١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب البر والصلة والآداب . باب تقديم بر الوالدين رقم ١٦٥٤ ص ٦٩٤ صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب . واذكر فى الكتاب مريم ، ج ٤ ص ٢٠١ .

ومختصر مسلم . كتاب البر والصلة . باب تقديم بر الوالدين على العبادة رقم ١٧٥٥ ص ٢٢٨ وذكر المحقق الشيخ ناصر الألبانى تعليقاً مهما بالهامش :

لا يخالف هذا الحصر كلام صبى الأخدود – رواه مسلم أيضاً – لأنه ليس فيه أنه كان فى المهد ، بل كان أكبر من صاحب المهد ، وإن كان صغيراً يرضع .

(٣٢) سورة مريم ، الآيات من رقم ٣٠ إلى رقم ٣٣ .

**﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ﴾**(٣٣) .

وقال فى وصف الصالحين المؤمنين :

**﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾** (٣٤) .

فالعبودية لله سبحانه عزة للمسلم ؛ لأنه يرفض أى عبودية لغير الله تعالى ، من بشر أو غيرهم .

– وبعد أن قرر عبوديته لربه سبحانه ، ورتب على ذلك إيتاء الكتاب له ، فالله سبحانه هو الذى يؤتى ، ويعطى ، والكتاب الذى سيعطاه عيسى – عليه السلام – هو الإنجيل . وجاء الإيتاء بصيغة الماضى ، مع العلم بأنه سيكون بعد أن يكبر ، فى المستقبل ، لتحقيق وقوعه من ناحية ، والإخبار بالغيب إعجازاً من ناحية أخرى ، ثم تأكيداً لتبرئة أمه مريم .

– وإيتاء الكتاب يعنى نبوة ، وتأكد هذا بما ألحقه من جملة فعلية **﴿ وجعلنى نبيا ﴾** ، ورسولاً من أولى العزم من الرسل – عليهم جميعاً أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم .

– وقد وهبه الله تعالى البركة والخير ، وسوف يرى القوم حقيقة هذه البركة ، وآثارها ؛ بإحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وإبراء الأكمه والأبرص .

وبذا بين أصل الرسالة الإيمانى : عبودية ، ومعبود ، وكتاب ، ونبوة ، وبركة .

– وتوجه إلى أصل الرسالة التشريعى مبتدئا بالصلاة ؛ فأداء الصلاة مظهر تشريعى للأصل الإيمانى السابق ، فأداؤها إذعان الجوارح تبعاً لإذعان القلب وعلى

---

(٣٣) سورة الإسراء ، الآية رقم ١ .
(٣٤) سورة الفرقان ، الآية رقم ٦٣ .

المرء أن يداوم على أدائها مادام حيا على أى صورة مستطاعة ، ومشروعة للمسلم .

عن ابن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – عن النبى – ﷺ – أنه ذكر الصلاة يوما ، فقال :

**« من حافظ عليها ، كانت له نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ، ولا برهاناً ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف »** (٣٥) .

– وتلى الزكاة الصلاة ، فالصلاة ترجمة بالجوارح ، والزكاة ترجمة بالمال لما يكون بالقلب من إيمان ، كما أنها الأساس لبناء الدولة الإسلامية ، التى تقوم بإعمار الأرض ، وتنظيم المجتمع على أساس من التكافل والتراحم ، وإسعاد البشرية جمعاء بتطبيق حكم الله سبحانه فى الأرض ، ودولة على هذا النحو لابد أن تكون لها موارد مالية تغطى حاجياتها ومطالبها . ومن أهم هذه الموارد الزكاة .

– وأول بنود التراحم بين الناس ، أن يشمل الأسرة البر ، وبخاصة الوالدين ، فالأسرة هى الخلية الأولى لبناء المجتمع ، فإذا ما انحلت عراها فلا مجتمع ، ولذا قال : ﴿ **وبرا بوالدتى** ﴾ . والبر بالوالدين ، والإحسان إليهما ، والسعى فى إرضائهما ذكرت كثيراً بعد توحيد الله سبحانه ، قال تعالى :

**﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ﴾** (٣٦) .

– وإذا كان ما تقدم أموراً إيجابية يقوم بها المسلم السوىُّ ، فقد نفى عن نفسه ذلك الجانب السلبى السيىء ، وهو التجبر ، والتكبر ، والظلم ؛ وهو إذ ينفى عن نفسه هذا يحذر قومه من الإفساد فى الأرض بالظلم عن طريق غير

---

(٣٥) رواه أحمد ، وأخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال أحمد ثقات . ( نيل الأوطار للشوكانى ج ١ ص ٤٤٣ باب حجة من كفر تارك الصلاة . وفى الباب أحاديث كثيرة .

(٣٦) سورة الإسراء ، الآية رقم ٢٣ .

مباشر ، ثم هو يحكم على هذا الجبار المتكبر بالشقاء فى الدنيا ، والآخرة . وأى شقاء أفدح فى الدنيا من كراهية الناس للظالم ، وبغضهم له ، ولعنهم إياه ، وأى بلاء أشد من السعير فى جهنم ، والعياذ بالله تعالى .

– وبعد أن بين الأصل الإيمانى ، ثم الأصل التشريعى ، وحذر من السلبيات ، ختم حديثه بذكر أيام ثلاثة فى حياته .

١ – أولها : يوم الولادة ، وهو أخص الأيام بعيسى – عليه السلام – لأنه يوم اكتمال معجزة الإنجاب دون زوج ، معجزة طفل من أم دون أب ، ومعجزة نطق الطفل وهو بالمهد ، وقد أظل هذا النطق المكان ، والقوم جميعاً ، وبخاصة الأم ، أظلهم بالسلام ، والأمن والهدوء .

٢ – وثانى الأيام ، هو يوم الموت ، ويلى اليوم الأول فى الخصوصية بعيسى – عليه السلام – فقد توجه القوم إليه ؛ سعيا فى إيذائه ، وقتله ، فسلمه منهم ، ورفعه الله سبحانه إليه حيث قال :

**﴿ وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ﴾** (٣٧) .

وقال : **﴿ بل رفعه الله إليه ﴾** (٣٨) .

وبين اليومين مسيرة السلام والصفح ، والحلم والتسامح ؛ حيث بدأت بالسلام ، وانتهت بالسلام .

٣ – وثالث الأيام ، هو يوم البعث والنشور والجزاء ، حين يجازى المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

**من صفات عيسى – عليه السلام :**

وردت أحاديث فى هذا المجال نسوق منها :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – ليلة أسرى به : « .... **ولقيت عيسى** »

---

(٣٧) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٧ .

(٣٨) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٨ .

فنعته النبى – ﷺ – فقال :

« **ربعة أحمر ، كأنما خرج من ديماس** » يعنى من حمام .(٣٥)

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال النبى – ﷺ :

« **رأيت عيسى ، وموسى ، وإبراهيم ؛ فأما عيسى ، فأحمر ، جعد ، عريض الصدر ...** » (٤٠) .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – ( أيضاً ) قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« **أرانى الليلة عند الكعبة فى المنام ، فإذا رجل آدم ، كأحسن ما يرى من أدم الرجال ، تضرب لمته بين منكبيه ، رَجِلُ الشَّعْر ، يقطر رأسه ماء ، واضعاً يديه على منكبى رجلين ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح بن مريم ...** » (٤١) .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى – ﷺ – قال :

« **رأيت ليلة أسرى بى موسى ، رجلاً آدم طوالا ، جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً ؛ مربوع الخلق ، إلى الحمرة ، والبياض ، الرأس ...** » (٤٢) .

---

(٣٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب الإسراء رقم ١٠٦ ص ٣٩ وصحيح البخارى كتاب الأنبياء . باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٤٠) أخرجه البخارى . الكتاب والباب السابقان ، ص ٢٠٢ ج ٤

(٤١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب فى ذكر المسيح ابن مريم ، والمسيح الدجال رقم ١٠٨ ص ٤٠ .

وصحيح البخارى كتاب الأنبياء ، باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٢ ، ٣٠٣ ( رجل الشعر : بكسر الجيم أى ممشط مسرح )

(٤٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب الإسراء رقم ١٠٤ ص ٣٨ ، ٣٩ .

وتدل هذه الأحاديث مجتمعة على جملة صفات لعيسى بن مريم – عليه السلام – وصفه بها النبى – ﷺ – فهو :

– مربوع وربعة ، أى ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، بل معتدل الجسم بينهما .

– مربوع الخلق ( بفتح الخاء ) إلى الحمرة ، والبياض ؛ أى مائلا لونه إليهما ، فلم يكن شديدهما ، وقد ورد فى لونه أيضاً ، كلمة آدم ، وهى فى الأصل أسمر ، وورود العبارة « كأحسن ما يرى من أدم الرجال » بعدها تقربها من الوصف السابق ، ويكون وصفه من مجموعها : إن لونه ليس بالشديد السمرة ، ولا بالشديد البياض ، ولا بالشديد الحمرة ، بكل كان لونه معتدلا بين هذه الصفات والألوان – عليه السلام .

– تضرب لمته بين منكبيه ، واللِّمة هى الشعر إذا جاوز شحمتى الأذنين ، أى فى شعره طول بين جعود الشعر ، وسبطه أى استرساله ، وقد عنى – عليه السلام – بشعره ، فرجله ، وسرّحه ، ودهنه .

– « كأنما خرج من ديماس » أى بلغت به النظافه مبلغاً حسناً ، شأن المرء إذا ما خرج من حمام وديماس ، ومعالم النظافة والحسن بادية عليه دائما .

والأحاديث فى جملتها تدل من جانب آخر على ما يشترط فى اختيار القادة ؛ حيث يفضل السوى الخلق على من تساوى معه فى الصفات المعنوية ، ليس لأن العيب الجسمى منقصة يحاسب عليها ، بل حتى لا يكون مجال استهزاء وسخرية من ضعاف النفوس ، والإيمان .

**من معجزات عيسى – عليه السلام – وصفاته :**

قال الله تعالى :

**﴿ ويعلمه الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل ، أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه ، فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ؛ إن فى**

**ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾** (٤٣)

وقال أيضاً :

**﴿ إذ قال الله : يا عيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد ، وكهلاً . وإذ علمتك الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرئ الأكمه ، والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين ﴾** (٤٤) .

يخبرنا الله سبحانه فى هذه الآيات ، وغيرها عن صفات عيسى ابن مريم – عليه السلام – بأنه :

– قد علمه ربه سبحانه الكتابة ، والقراءة ، وفهم ما يقرأ ؛ فالأسباب الطبيعية للاستزادة من العلم متوفرة لديه . أما كون النبى محمد – ﷺ – أميا ، فلأن معجزته ، وهى القرآن الكريم ، تحدى بها العرب الفصحاء ، فأميته أبلغ فى المقصود ، والهدف من المعجزة . والأمر يختلف مع عيسى – عليه السلام .

– وقد علمه ربه أيضاً أهم كتابين حتى عصره هو ، وهما التوراة التى أنزلت على موسى – عليه السلام – والإنجيل الذى أنزل عليه هو .

– وتأتى المعجزات التى ظهرت على يديه – عليه السلام .

وفى أول هذه المعجزات من حيث الزمن ، أنه ولد من أم هى مريم دون أب ، مثل بقية البشر ، ماعدا آدم – عليه السلام – فقد سواه الله سبحانه من

---

(٤٣) سورة آل عمران ، الآيات من رقم ٤٨ إلى رقم ٥١ .
(٤٤) سورة المائدة ، الآية رقم ١١٠ .

طين ، ونفخ فيه من روحه ، فصار بشرا سويا .

والثانية : كلامه فى المهد كما سبق .

والثالثة : تصويره من الطين شكل طير ، ثم نفخه ، فيطير عياناً بإذن الله سبحانه .

والرابعة : إبراء الأكمه ، والأبرص ، والأكمه يطلق على من ولد أعمى ، أو من فى بصره ضعف ، والأبرص هو مريض الجلد ، ويبدو فى شكل بقع بيضاء على الجلد ، وكانت معجزة عيسى - عليه السلام - بالنسبة لهذين النوعين من المرض ، هى إبراء صاحبيهما بإذن الله سبحانه .

والخامسة : وكانت أبلغ من سابقتها فى مجال الطب ، وهى إحياء الموتى بإذن الله سبحانه ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو .

لماذا كانت معجزة عيسى - عليه السلام - على هذا النحو ؟

ويمكن أن يقال فى هذا المجال :

إن العصر الذى بعث فيه عيسى - عليه السلام - اشتهر بالمهارة فى الطب ، فجاءهم نبيهم من الآيات بما لاسبيل لأحد إليها . إلا أن يكون مؤيَّداً من الذى خلق الموت ، والحياة ، وخلق الإنسان ، وكل ما فى الكون ، وإلا فمن أين للطبيب القدرة على إحياء الجماد ، أو مداواة الأكمه ، والأبرص ، وبَعْث من هو فى قبره ؟ .

ومما يؤكد هذا نوع المعجزة التى كانت لموسى - عليه السلام - فقد بعث فى زمن اشتهر أهله بالسحر ، وتعظيم السحرة ، فبعثه الله سبحانه بمعجزة من جنس ما اشتهروا به ، بهرت الأبصار ، وحيرت الماهرين فى السحر ، وحين استيقن السحرة بأن ما تم على يد نبيهم فوق السحر كانوا أول المؤمنين ، وتحملوا فى سبيل إيمانهم كل صنوف العذاب ، وبنفس الصورة معجزة القرآن الكريم .

والمعجزة السادسة لعيسى - عليه السلام - إخبارهم بغيب أخفوه عنه ، ولكنه معلوم لديهم . ماذا أكلوا ؟ وماذا ادخروا وحفظوا فى بيوتهم ؟ .

ثم ردهم عيسى - عليه السلام - إلى عقولهم ، وطلب إليهم أن يفكروا :

﴿ إن فى ذلك لآية لكم ، إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤٣) .

قال الله تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٤٥) .

**التأييد بروح القدس :**

قال الله تعالى :

﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ﴾ (٤٦) .

يخبرنا الله سبحانه أنه أيد نبيه عيسى – عليه السلام – بجبريل – عليه السلام – وقد سبق أن أرسل إلى أمه مريم فتمثل لها بشراً سويا ؛ ليهبها بأمر الله تعالى ولداً دون أب ، والتأييد بروح القدس نوع من التكريم للنبى حين يكلف مساندة النبى ، والدفاع عنه ، والله سبحانه من فوق ذلك أحاط بكل شىء علما .

عن سعيد بن المسيب (٤٧) ، قال : مر عمر فى المسجد ، وحسان (٤٨) ينشد ،

---

(٤٥) سورة الزخرف ، الآية رقم ٦٣ . (٤٦) سورة البقرة ، الآية ٨٧ .

(٤٧) ولد سنة ١٣ هـ – ٦٣٤ م ، وتوفى سنة ٩٤ هـ – ٧١٣ م ، وهو سعيد ابن المسيِّب بن حزن بن أبى وهب المخزومى ، القرشى ، كنيته أبو محمد ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، يجمع بين الحديث والفقه ، والزهد والورع ، توفى بالمدينة . فهرس حدائق الأنوار ، لابن الديبع الشيبانى ، ج ٢ ص ١١٥٦ ، طبعة دولة قطر .

(٤٨) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، الأنصارى ، الخزرجى ، ثم النجارى ، شاعر النبى – ﷺ – وكنيته المشهورة أبو الوليد ، ولم يكن له فى الحرب ، قال ابن حجر : وابن عبد البر : والجمهور على أنه عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستين فى الجاهلية ، ومثلها فى الإسلام . الإصابة لابن حجر ، ج ١ ص ٣٢٦ رقم ١٧٠٤ ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمرى القرطبى . هامش الإصابة ج ١ ص ٣٣٥ .

فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، ثم التَفت إلى أبى هريرة – رضى الله عنه – فقال : أنشدك بالله !! أسمعت رسول الله – ﷺ – يقول :

**« أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس » ؟**

**قال : نعم** (٤٩) .

وعن البراء بن عازب (٥٠) – رضى الله عنه – قال : قال النبى – ﷺ – لحسان : « **اهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك** » (٥١) .

والحديثان يؤكدان أن روح القدس هو جبريل – عليه السلام – وليس غير ذلك ، كما زعم بعض المفسرين . ومما يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى :

**﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ؟ ﴾** (٥٢) .

فالذى تمثل بشراً هو جبريل – عليه السلام – وهو مرسل من ربه ، وقد كانت هذه الخصوصية – أيضاً – للنبى الخاتم محمد – ﷺ – فقد قال الله تعالى عن القرآن الكريم :

**﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك ، لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾** (٥٣)

---

(٤٩) ، (٥١) الروايتان متفق عليهما . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل حسان بن ثابت – رضى الله عنه رقم ١٦١٦ ورقم ١٦١٧ صـ ٦٧٣ .

(٥٠) هو أبو عمارة « فى الأشهر » بن عازب بن الحارث الأوسى ، الأنصارى ، الحارثى . أول مشاهده الخندق ، نزل الكوفة ، وافتتح الرى سنة ٢٤ فى قول وشهد مع أمير المؤمنين على – رضى الله عنه – الجمل ، وصفين ، والهروان مات بالكوفة أيام مصعب بن الزبير . سبل السلام جـ ١ ص ١٨٢ .

(٥٢) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠ .

(٥٣) سورة الشعراء ، الآيات من رقم ١٩٢ ، ١٩٥ .

والإمداد ، والتثبيت فى غزوة بدر كانا بواسطة الملائكة . قال تعالى :

﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٥٤) .

وقـال :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٥٥) .

**عيسى – عليه السلام – مصدقاً ، ومبشراً :**

قال تعالى :

﴿ ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ﴾ (٥٦)

وقـال :

﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل ﴾ (٥٧) .

وقال :

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٥٨) .

إن عيسى – عليه السلام – يخاطب بنى إسرائيل ، ويذكرهم بالكتاب الذى أنزل على موسى – عليه السلام – ويؤكد تصديقه للكتاب ، ومافيه من تشريع . والتصديق للتوراة تصديق بالتالى لموسى – عليه السلام – وتوجه التصريح بالتوراة تنبيهاً لبنى إسرائيل ، وتحذيراً لهم من تحريف الكتاب ، وتبديله ، فقد بدءوا التحريف ، والتبديل فى نصوص الكتاب قبل الطعن فى شخصية موسى – عليه السلام .

---

(٥٤) سورة الأنفال ، الآية رقم ٩ .
(٥٥) سورة الأنفال ، الآية رقم ١٢ .
(٥٦) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٠ .
(٥٧) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٦ .
(٥٨) سورة الصف ، الآية رقم ٦ .

وفى نفس الوقت بشر بالنبى الخاتم محمد - ﷺ - وبالتالى يصدق بكتابه ، وهو القرآن الكريم - عكس ما سبق - لأن اعتراض بنى إسرائيل حين البعثة توجه مباشرة إلى شخصية النبى - ﷺ - عناداً منهم واستكباراً . فالبشرى تتضمن التصديق ، وتشير إلى ما سيحدث - فى المستقبل - من بنى إسرائيل ، وهذا إخبار بغيب ، وقد حدث .

وبالتصديق ، والبشرى تأكيد لوحدة الرسالات ، فهى فى الأصل الإيمانى واحدة ، وإن اختلفت الأحكام التشريعية التى تناسب كل عصر وظرف .

**دعوته لقومـه :**

بعد أن أخبر عيسى - عليه السلام - بأنه رسول من الله إليهم ، وأنه أيده بالمعجزات ، دعاهم ، إلى الأصل الإيمانى . قال الله سبحانه على لسانه :

**﴿ فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربى ، وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾** (٥٩) .

تلك هى الدعوة على بساطتها ، ووضوحها ؛ تقوى الله سبحانه بالخوف منه وحده ، دون أى قوة أخرى من البشر ، أو غيرهم . وإذا ما تحرر المسلم من الذلة لمخلوق أيا كان هو كانت تقواه لربه سبحانه ، وبمقدار التقوى أيضاً تكون درجة التحرر من الخرافة ، والأباطيل ، والخضوع لطواغيت البشر . إن التقوى تستقر بالنفس ، وتعلن الجوارح عن درجتها . وأول مظاهر التقوى طاعة الله سبحانه ، ولهذه الطاعة أصول فى العقيدة ، والتشريع . وأمر بنى إسرائيل بطاعة نبيهم عيسى - عليه السلام - هو طاعة لله سبحانه ، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله تعالى .

وجاء الأمر الثالث بعبادة الله تعالى ، والعبادة تكون بالشكل الذى ارتضاه الله سبحانه لعباده ، وما سبق هذا الأمر بيان أن الله سبحانه هو الرب للجميع ، رباهم ، وأنشأهم ، وإذا ما كان الناس تجاه ربهم فى هذه المنزلة ، لابد أن تكون العبودية منهم ، فالعبودية تستقر فى شعورهم ، وتظهر فى شكل عبادة مشروعة .

---

(٥٩) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

وماذا يحدث لو أصاب كلا من الطاعة والعبادة خللٌ وانحرافٌ ؟

معنى ذلك أن العقيدة الإيمانية أصابها ، شرخ ، وتصدع ، وفتور . والعلاج بتقوية الأصل الإيماني بالخوف من الله سبحانه دون سواه .

هذا صراط مستقيم ، سار عليه عيسى وكل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ودعوا أقوامه أن يسيروا عليه ، ولا يتبعوا السبل المعوجة التي تفرقهم عن هذا السبيل المستقيم .

**دعوته للحواريين :**

وعلى الرغم من عظم المعجزات ، وبساطة الدعوة ، ووضوحها ، فقد كان من بنى إسرائيل عناد مبكر ، واضطر إلى أن يخص بعضهم ، ويدعوهم إلى تكوين جماعة صغيرة أشد تماسكا ، تقوم بالدعوة إلى الله تعالى ، قال سبحانه :

**﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾** (٦٠) .

وقال أيضاً :

**﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون ﴾** (٦١) .

وقال :

**﴿ قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين ﴾** (٦٢).

يخبرنا الله تعالى : أن عيسى – عليه السلام – حين دعا قومه بنى إسرائيل

---

(٦٠) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٢ ، ٥٣ . (٦١) سورة المائدة ، الآية رقم ١١١ .

(٦٢) سورة الصف ، الآية رقم ١٤ .

شعر بعنادهم ، وإصرارهم على الكفر ، فتوجه إلى من آمن منهم بأن يتحمل عبئاً أكبر فى سبيل دعوة هؤلاء القوم إلى دين الله سبحانه ، فقال : من أنصارى إلى الله ؟ فتطوع من القوم من لقبوا بالأنصار ، وهم الحواريون ، فالأنصارى هو الحوارى .

فعن جابر بن عبدالله - رضى الله عنهما - قال : قال النبى - ﷺ - ( يوم الأحزاب ) :

**« من يأتينى بخبر القوم ؟ » .**

قال الزبير (٦٣) : أنا . ثم قال :

**« من يأتينى بخبر القوم ؟ »**

قال الزبير : أنا . فقال النبى - ﷺ - :

**« إن لكل نبى حواريا ، وحوارىَّ الزبير » (٦٤) .**

---

(٦٣) الزبير بن العوام بن خويلد ، القرشى ، الأسدى ، حوارى رسول الله - ﷺ - وابن عمته ، أمه صفية بنت عبد المطلب ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر ، واكتنى هو بأبى عبد الله ، وأسلم وله اثنتا عشرة سنة ، هاجر الهجرتين . وقتل بعد أن انصرف يوم الجمل غدراً ، وقد بدأ المعركة ضد علىّ - رضى الله عنهما - فى سنة ست وثلاثين ، عن ست وستين سنة . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٥٤٦ رقم ٢٧٨٩ .

(٦٤) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل طلحة ، والزبير - رضى الله عنهما - رقم ٥٦٤ ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

أما إرسال حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - يوم الأحزاب فقد كان إلى مهمة أخرى ؛ حيث كانت الأحزاب بقيادة أبى سفيان ؛ وذلك لما ورد عن إبراهيم التيمى عن أبيه . قال : كنا عند حذيفة ، فقال رجل : لو أدركت رسول الله - ﷺ - قاتلت معه وأبليت ، فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة ، وقرّ ، فقال رسول الله - ﷺ - :

**« ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله عز وجل معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا =**

وأعلن الحواريون عن أساس هذه النصرة فى الله سبحانه :

- الإيمان بالله سبحانه ، ونبذ الكفر .
- الإشهاد على إسلامهم ، وتنفيذهم مستلزمات النصرة .
- الإيمان بالإنجيل ، وما سبقه من التوراة .
- اتباع عيسى - عليه السلام - لأنه رسول الله سبحانه .
- إشهاد الله سبحانه على ما استعدوا للقيام به ، مع نبيهم عيسى - عليه السلام .

ومن هذه اللحظة تميز فريق عن فريق ؛ فريق مؤمن هم الحواريون ، وفريق كافر متربص بالفئة المؤمنة .

**خبر المائـــدة :**

قال الله تعالى :

**﴿ إذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن**

---

= فلم يجبه منا أحد ، فقال :

« **قم يا حذيفة ، فأتنا بخبر القوم** » .

فلم أجد بدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم ، قال :

« **اذهب فأتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَىَّ** » ( أى لا تثرهم علىّ بالذعر ) .

فلما وليت من عنده ، جعلت كأنما أمشى فى حمام ، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يَصْلَى ظهره بالنار ، ( أى يدفأ ظهره بالنار ) فوضعت سهماً فى كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله - ﷺ - « **ولا تذعرهم علىّ** » ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام ( يعنى أنه كان يشعر بالدفء حين كان يؤدى المهمة ) فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم ، وفرغت ، قررت ( أى بردت بعد أن أديت المهمة ) ، فألبسنى رسول الله - ﷺ - من فضل عباءة كانت عليه ، يصلى فيها ( أى يدفأ ) ، فلم أزل نائماً ، =

**نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ، ربنا ، أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيداً لأولنا ، وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير الرازقين . قال الله : إنى منزّلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا ، لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾** (٦٥) .

حين عبر بنو إسرائيل خليج السويس ، وجدوا أنفسهم دون طعام ، ودون شراب ، فأنزل الله سبحانه عليهم المن والسلوى ، وفجر لهم الماء العذب من الحجر ، وعلى الرغم من شهية هذا الطعام ، طلبوا أن يستبدل به العدس ، والبصل ، والخيار .

وحين كانت الصديقة مريم بنت عمران فى المحراب كان الرزق يأتيها من السماء ، **﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾** (٦٦) .

وأعتقد أن بنى إسرائيل يعلمون تاريخهم هذا ، وبخاصة لقربه الزمنى منهم ، وأهميته فى حياتهم . فأمر الرزق من الله سبحانه يجب أن يعلم بداهة ، وأن إنزاله على هذا النحو فى سيناء ، وفى المحراب دليل أكبر لعامة الناس ، فضلاً عن خاصتهم .

والموقف الذى نحن بصدده هنا شديد الغرابة :

– فالرزق يطلب من الحواريين صراحة **﴿ أن ينزل علينا مائدة ﴾** .

– والذى يقدم هذا الاقتراح خلاصةُ القوم إيماناً ، وفقهاً ، وهم الحواريون ، **﴿ إذ قال الحواريون ﴾** .

---

= حتى أصبحت ، فلما أصبحت ، قال :

**« قم يا نومان »**

( أخرجه مسلم . مختصر مسلم . كتاب الهجرة ، والمغازى ، باب فى غزوة الأحزاب . رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٧٦ ) .

(٦٥) سورة المائدة الآيات من رقم ١١٢ إلى رقم ١١٥

(٦٦) سورة آل عمران الآية ٣٧ .

— ويعلقون الإيمان بعيسى — عليه السلام — على تلبية هذا الطلب ﴿ **ونعلم أن قد صدقتنا** ﴾ .

ويبقى من طبع بنى إسرائيل ، على مدى تاريخهم الطويل قدر المادة فى نظرهم على كل شىء ، بها يقاس الحق ، والباطل ، إلا من عصم الله .

وتفصيل هذا الموقف كما يلى :

يخبرنا الله سبحانه ، عن خبر المائدة التى أنزلها من السماء ، وهى مما امتن به على عبده ، ورسوله عيسى بن مريم — عليه السلام — لما أجابه حين دعاه بشأنها .

قال الحواريون أتباع عيسى — عليه السلام — وأنصاره ، ومعاونوه ، وحاملو رسالته ، والذين أيدهم الله سبحانه ؛ لإيمانهم ، وأعانهم على من كفر من بنى إسرائيل . هؤلاء الحواريون توجهوا إلى عيسى بن مريم بالنداء باسمه المجرد ، دون وصف بالنبوة ، أو الرسالة كأن نبوته علقت من جديد على تلبية هذا الطلب ، فقالوا : « يا عيسى بن مريم » وساقوا سؤالهم بما يحمل من شك ، وريب فى الأصل الإيمانى ، وهو الاعتقاد بقدرة الله سبحانه ﴿ **هل يستطيع ربك** ﴾ وأضافوا كلمة « رب » إلى كاف المخاطب ، ولم يضيفوها إلى ضمير المتكلمين ، وكأن تلك الربوبية وضعت هى الأخرى موضع الاختبار والتجربة ، وليس ذلك من شأن صادق الإيمان .

وإذا كان النداء والاستفهام يعكسان نفسية القائلين ، والطالبين ، فموضوع الطلب أكثر دلالة على تلك النفسية ، وهو إنزال مائدة من السماء .

وجاء رد عيسى — عليه السلام — بالرد عليهم نيتهم وشكهم ، والنصح لهم من جديد مثل النصيحة التى توجه بها إلى بنى إسرائيل سلفاً ﴿ **فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ (٦٧) وهنا يقول لهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين أى اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا السؤال ، وابذلوا الأسباب الطبيعية فى طلب الرزق ، إن كنتم مؤمنين حقاً .

---

(٦٧) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

ولم يرضوا بنصحية عيسى – عليه السلام ، وأصروا على طلبهم ، وقالوا : **﴿ نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ﴾**

إلى أى شيء تطمئن قلوبهم ، وقد رأوا من المعجزات الباهرات على يد عيسى – عليه السلام – إن هذا الاطمئنان يتوجه إلى ما أشير إليه من شك فى أصل الإيمان ، ولذلك جاء عقبها **﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ﴾**

وما كان من نبي الله عيسى – عليه السلام – إلا أن يطلب إلى ربه سبحانه إنزال المائدة ، متأدباً بأدب الداعى المتضرع إلى الله سبحانه ، وقد تضمن دعاؤه ؛ النداء :

اللهم ربنا ، يا من تفردت بالعظمة والألوهية ، ويا من هو رب الجميع ، رب عيسى ، وموسى ، والحواريين ، ومثل هذا التعبير فى النداء والدعاء هو الصورة المثلى فى دعاء المؤمن ، أما القوم فقد جاء على لسانهم : هل يستطيع ربك ؟ .

– طلبه إنزال مائدة عليها أصناف الطعام ، والشراب تظل حديث الناس ؛ لإنزالها من السماء ، ولما احتوت من طعام وشراب ، ويستمر الحديث عنها أجيالاً ، وتظل أيضاً دليلاً واضحاً على قدرتك وعظمتك .

– وقد طلب عيسى – عليه السلام – أيضاً ، أن يستمر الرزق الطيب لهم ، اليسير المأخذ ، والأسباب ، دون معاناة ، وكد ، وتعب ، فأنت يارب ، خير الرازقين .

وقد تضمنت الاستجابة لهذا الدعاء :

– ضرورة الإذعان ، وتحصيل الغاية التى من أجلها تنزل المائدة من السماء ، وقد رأوا قدرة الله سبحانه ، وعظمته فى خلقه .

– مضاعفة العذاب لمن ينكص بعد ذلك ، وبعد أن علم وشاهد مايدل على قدرة الله سبحانه . **﴿ فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾** .

— الجزاء على قدر المسئولية ، وعلى قدر العلم بالأمور ، فشخص لم يفعل تكليفاً ؛ لأنه يجهله ، أو اجتهد فى طريق الأداء وأخطأ ، غير العالم الذى يعظ الناس دون الاهتمام بعمله هو .

**التوفية ، والرفع إلى السماء :**

يقول الله تعالى فى هذا الشأن :

**﴿ وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾** (٦٨) .

وقال أيضاً :

**﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، إذ قال الله : يا عيسى ، إنى متوفيك ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا ، والآخرة ، وما لهم من ناصرين ، وأما الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين ﴾** (٦٩) .

تدل الآيات الكريمة السابقة على جملة أمور فى مسألة الرفع إلى السماء وما يسبقها ويلحقها من أحداث ، ومن هذه الأمور :

— أن بنى إسرائيل واجهوا دعوة عيسى — عليه السلام — ، بالجحود ، ولم يذعنوا إليه ، بل تمالئوا ، وحاكوا المؤامرات ضده فى جو من المكر والدهاء ..

---

(٦٨) سورة النساء الآيات من رقم ١٥٧ إلى رقم ١٥٩ .

(٦٩) سورة آل عمران الآيات من رقم ٥٤ إلى رقم ٥٧ .

– وأنهم فى هذا المكر قد أحكموا الخطة للتخلص من عيسى – عليه السلام – بقتله ، كما تعودوا وألفوا هذا الأسلوب فى تصفية الخصوم وقتلهم الأنبياء بغير حق .

– وأنهم ظنوا النجاح والوصول إلى الغرض الذى توهموه سيقع ، وهو قتل عيسى – عليه السلام .

– ولأنهم قد كفروا بالله سبحانه لم يعلموا أن تلك الخطة على إحكامها ستفشل ، فالله سبحانه هو الحافظ لنبيه ، ومن كان الله حافظه ، لم تنله أيدى العوادى .

– توجه القوم الكافرون إلى المكان الذى يمكن أن يكون به عيسى – عليه السلام – ورأوا فى هذا المكان من ظنوه عيسى فباشروا عملية القتل بأنفسهم .

– أنهم خرجوا بعد أن أتموا جريمة القتل هذه متباهين مفتخرين بأنهم قتلوا عيسى بن مريم رسول الله .

– وأنهم حين وصفوا عيسى بأنه ابن مريم أرادوا الواقع الذى لا ينكرونه آنئذ ، ولكنهم سخروا بعد ذلك واستهزءوا بإسناد الرسالة إليه .

– أنهم حين التنفيذ لم يجمعوا على أن القتيل هو عيسى فقد اختلفوا فيما بينهم ، ولكن تغلب رأى من زعم أنه هو لعدم وجود شخص آخر يجمعون على أنه عيسى .

هذا ما حدث من القوم ، من مكر ، وتآمر ، وتحرك ، وتنفيذ ، وتباه بالجرم وبدأت الآيات الكريمة تعرض الوجه الآخر :

– أن الله سبحانه قد خيب مكرهم ، ولم يمكنهم من شخص عيسى نفسه ليصلبوه ويقتلوه ، بل رفعه الله حيا إلى السماء ، حيث لم يكن القتل له فعلا .

– وأن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالعزيز الحكيم فى آيات النساء ؛ لنفهم أن العزيز لا يُغْلب ، من يلجأ إليه ، ومن لجأ إليه هنا هو عيسى – عليه السلام .

– وتدل آيات آل عمران على أن الله سبحانه قد طهر نبيه بالرفع إليه دون أن تصل إليه أيدى هؤلاء السفاكين الكافرين .

– وأن الله سبحانه بهذا الرفع إلى السماء قد توفى نبيه أى توفى أعماله فى تبليغ الرسالة إلى الناس فى الأرض ؛ حيث صار بين أهل السماء ، وأن التوفية هنا تفسر بما يتناسب والسياق .

وتأتى الجولة الثالثة للآيات :

– أن الناس بعد رفع عيسى – عليه السلام – وقبل يوم القيامة أصناف بالنسبة لعيسى – عليه السلام – ، من هؤلاء الأصناف :

١ – الذين اتبعوا عيسى – عليه السلام – اتباعاً حقاً ، وآمنوا به على أنه عبدالله ورسوله ، وأنه لم يصلب ولم يقتل ، بل رفعه الله إليه ، وهؤلاء هم المسلمون . وقد جعلهم الله سبحانه أعلى منزلة ، وأرقى مكانا فى الدنيا ، وأنهم يؤمنون أيضاً بأن عيسى – عليه السلام – ينزل آخر الزمان ، ثم يموت موتا حقيقيا .

٢ – الذين زعموا أنه قد صلب وقتل ، وهم الأدنون منزلة ، وخسروا وخابوا .

عن سعيد بن جبير (٧٠) ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال :

لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه ، وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم ، من الحواريين – يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماءً – فقال :

**( إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى )**

---

(٧٠) هو سعيد بن جبير ، الأسدى بالولاء ، الكوفى ، أبو عبد الله ، تابعى ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشى الأصل ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس ، وابن عمر – رضى الله عنهم – ولد سنة ٤٥ هـ – ٦٦٥ م ، ومات شهيداً حين أمر بقتله الحجاج الظالم ، أيام بنى أمية سنة ٩٥ هـ – ٧١٤ م ، فهرس حدائق الأنوار لابن الديبع الشيبانى ص ١١٥٦ عن الأعلام .

ثم قال :

**( أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى فى الجنة ؟ )**

فقام شاب من أحدثهم سناً .

فقال له :

**( اجلس )**

ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال :

**( اجلس )**

ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال :

**( أنت هو ذاك )**

فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق .

فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية .

وقالت فرقة : كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون .

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمداً - ﷺ -

قال ابن عباس ، وذلك قوله تعالى :

**﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾** (٧١) .

– ثم فى يوم القيامة يكون العذاب لمن كفر بعيسى – عليه السلام – أو زعم أنه ابن الله ، وأنه ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

– ويكون الثواب لمن رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، ولم يفرق بين أحد من رسله .

عن عبادة بن الصامت (٧٢) – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »** (٧٣)

---

(٧١) سورة الصف ، الآية رقم ١٤

قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال ابن كثير هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبى معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، وممن ذكر ذلك مطولا محمد بن إسحاق ابن يسار . انتهى كلام ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ٢ ص ٩٢ فى رفع عيسى – عليه السلام – إلى السماء .

(٦١م ) هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجى الأنصارى السالمى ، كان من نقباء الأنصار ، وشهد العقبة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، وجهه عمر – رضى الله عنه – إلى الشام قاضياً ، ومعلما ، فأقام بحمص ، ثم انتقل إلى فلسطين ومات بها فى الرملة ، وقيل فى بيت المقدس سنة ٣٤ عن ٧٢ سنة . سبل السلام جـ ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٧٣) رواه الشيخان – اللؤلؤ والمرجان – كتاب الإيمان ، باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ١٧ ص ٧

## تنزيه الله سبحانه عن الولد

حين توجه بنو إسرائيل إلى السيدة مريم أم عيسى – عليه السلام – بالاتهام ، أشارت إلى عيسى ، وقد كان إذ ذاك طفلا .

**﴿ قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟**

**قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام علىَّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً ﴾** (٧٤) .

وقد سبق أن عرفنا أن مجرد نطق الطفل الصغير كان تبرئة لأمه من الاتهام ، وأن أول صفة نطق بها لأهميتها وخطورتها أنه عبدالله ، فالله سبحانه الإله الخالق وعيسى مخلوق وعبد للخالق سبحانه ، ولكن حدث فى محيط النصارى أن قال بعضهم فى عيسى – عليه السلام – أنه الله ، وقال آخرون : أنه ابن الله ، وقال بعض ثالث : إنه ثالث ثلاثة ...تعالى الله عن ذلك علوا كثيراً .

وكان من تمام كلام عيسى – عليه السلام – وهو فى المهد ما قاله الله سبحانه على لسانه :

**﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾** (٧٥) .

وقد روى الشيخان فيما سبق عن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »**

---

(٧٤) سورة مريم الآيات من رقم ٢٩ إلى رقم ٣٣ .
(٧٥) سورة مريم الآية رقم ٣٦ .

وعلى الرغم من وضوح قضية الخلق منذ أن تكلم عيسى – عليه السلام – وهو فى المهد ، فإن القوم اختلفوا بشأن عيسى – عليه السلام .

قال الله تعالى بعد حكايته حديث المهد :

**﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾** (٧٦) .

فبينت الآية أن بنى إسرائيل صاروا أحزابا كل يزعم فى عيسى – عليه السلام – زعما باطلا ، وقد كفروا بهذه المزاعم التى لا تستند إلى دليل وبرهان ، والويل والعذاب لمن تجرأ على الله سبحانه ونسب له الولد حاشاه عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وناقشت الآيات المتفرقة فى القرآن الكريم تلك القضية ؛ قال الله تعالى على لسان هذه الأحزاب :

**﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدًّا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾** (٧٧) .

فأحزاب الكفر من بنى إسرائيل زعمت أن الله سبحانه اتخذ ولداً وقد رد الله سبحانه على هذا الزعم فى الآيات السابقة بعدة ردود :

– الرد على القضية وإبطالها بالكلية ، فهم قد جاءوا بشىء عظيم ، ومنكر من القول وزور وبهتان .

– ثم بين مقدار خطورة هذا الزعم الباطل ، بأن الكون كله ؛ من سموات وأرض وجبال ينكر هذا الزعم ، ويرفضه .

---

(٧٦) سورة مريم الآية رقم ٣٧ .

(٧٧) سورة مريم الآيات ، من رقم ٨٨ إلى رقم ٩٥ .

– وأن لا ينبغي لإله خالق أن يكون له ولد ، وإلا كان شبيهاً بالمخلوقين .

– وأنه يوم القيامة يأتيه كل امرىء بمفرده ، مسئولا عن نفسه ، وكل امرىء بما كسب رهين .

قال الله تعالى :

**﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه هو الغني ، له ما في السموات ، وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (٧٨) .**

ومن الأحزاب الكافرة من النصارى من زعم أن كلا من الله سبحانه وعيسى – عليه السلام – شيء واحد .

قال الله تعالى :

**﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح : يا بني إسرائيل ، اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (٧٩) .**

فقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك والكفر ؛ لادعائهم في عيسى – عليه السلام – ما نفاه هو عن نفسه .

وخرجت الأحزاب أيضا بكفر جديد فقد زعموا أن الآلهة ثلاثة .

قال الله تعالى :

**﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (٨٠) .**

وكفر النصارى بما زعموه بالتثليث ، وقد حذرهم الله سبحانه وتعالى منه صراحة في الآية السابقة ونهاهم عن قوله .

---

(٧٨) سورة يونس ، الآية رقم ٦٨ .

(٧٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٢ .

(٨٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٣ .

ثم دعاهم فى الآية اللاحقة إلى التوبة عنه ، والاستغفار منه ، قال تعالى :

**﴿ أفلا يتوبون إلى الله ، ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾** (٨٠) .

ثم بدأ يناقش عقولهم لعلهم يهتدون ، وذلك فى قوله تعالى :

**﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾** (٨١) .

فمظاهر البشرية بادية واضحة على عيسى – عليه السلام .

يأكل ويشرب ، كما تأكل أمه وتشرب ، وأنه رسول مثل الرسل السابقين – عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

**نزول عيسى – عليه السلام – قبل يوم القيامة :**

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

**« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المالُ ؛ حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا ، وما فيها »** ثم يقول أبو هريرة ، واقرءوا إن شئتم : **﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل يوم موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾** (٨٢) .

وقـال :

---

(٨٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٤ .

(٨١) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٥ .

(٨٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى – عليه السلام – رقم ٩٥ ، وصحيح البخارى . كتاب الأنبياء . باب نزول عيسى – عليه السلام ج ٤ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ وقال البخارى عقبه : تابعه عقيل ، والأوزاعى ، والآية من سورة النساء ١٥٩ .

**« كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم » (٨٣) .**

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

**« والذى نفسى بيده لَيُهِلَّنَّ ابن مريم بِفَجِّ الروحاء ، حاجًّا ، أو معتمراً ، أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا » (٨٤) .**

وعنه أنه قال :

**« لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا ، قالت الروم : خلوا بيننا ، وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله ، لا نخلى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم ، ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث ، لا يفتنون أبداً ، فيفتتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خَلَفَكُمْ فى أهلكم ، فيخرجون وذلك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج ، فبينما هم يعدون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذْ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم – عليه السلام – فَأَمَّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، فلو تركه لانـذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ( أى بيد عيسى ) فيريهم دمه فى حربته » (٨٥) .**

وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال :

---

(٨٣) نفس المصدرين السابقين . اللؤلؤ والمرجان رقم ٩٦ ، وعزاه ابن كثير أيضا إلى الإمام أحمد .

(٨٤) أخرجه مسلم . المختصر رقم ٦٦٣ باب فى التلبية بالعمرة والحج ج ٢ ص ١٧٦ وعزاه ابن كثير إلى أحمد .

(٨٥) أخرجه مسلم . المختصر ، باب فى فتح قسطنطينية رقم ٢٠٢٩ ص ٢٩٧ ج ٢ .

« لقيت ليلة أسرى بى ، إبراهيم ، وموسى ، وعيسى – عليهم السلام – فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجْبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ، ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رآنى ، حتى إن الحجر ، والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتى كافراً ، فتعال فاقتله ، قال : فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم ، وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ؛ قال : ثم يرجع الناس يشكونهم ، فأدعو الله عليهم فيهلكهم ، ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ، ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك ، أن الساعة كالحامل الْمُتِمّ ، لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلاً ، أو نهاراً » (٨٦) .

وفى ضوء النصوص السابقة يتبين لنا بالنسبة لعيسى – عليه السلام :

– أن عيسى – عليه السلام – اختصه الله سبحانه ، بالرفع إلى السماء حيا ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة يحكم بشريعة الإسلام .

– وأن بلوغ حكمه بشريعة الإسلام ، درجة كبيرة يكون من نتيجته الخير ، فيكون الأمن ، وإفاضة المال ، وإشاعة التكافل حتى لا يبقى فقير يريد مالاً ، وأن اهتمام المسلم بعبادة ربه سبحانه تبلغ درجة كبيرة .

---

(٨٦) الحديث بهذا النص أخرجه الإمام أحمد كما قال ابن كثير ، وأقول : إن معانى الحديث فيما رواه البخارى ، ومسلم بألفاظ أخرى . انظر اللؤلؤ والمرجان أرقام ١٨٣٠ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٥ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، وانظر مختصر مسلم أرقام ٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩ ، ٢٠٢٣ ، ٢٠٢٥ ، ٢٠٢٧ ، وفى الباب أحاديث أخرى كثيرة .

– وأن أهل الكتاب آنئذ يؤمنون به على أنه عبدالله ورسوله ، وأنه يكسر صليبهم ، ويقتل خنزيرهم .

– وأن عيسى – عليه السلام – وهو ينفذ شريعة الإسلام يؤدى الحج ، أو العمرة ، أو هما سويا .

– وأنه عليه السلام ، يقتل بعد نزوله كلا من المسيح الدجال والشيطان ، وأنه سيقود جيش المسلمين فى حربهم للكافرين . ويقاتل معه الصالحون من الأمة ، ويشترك الحجر والشجر في دلالتها على من تخفي وراءها من الكفار ، واليهود ، إلا شجر الغرقد فإنه شجر اليهود . كما أنه ينتصر بعون الله سبحانه على يأجوج ، ومأجوج .

– وأنه عليه السلام . يعتبر بذلك علامة من علامات الساعة ، كما قال تعالى عن عيسى بن مريم – عليه السلام :

**﴿ وإنه لعلم للساعة ، فلا تمترن بها ﴾** (٨٧) .

**عيسى – عليه السلام – فى السماء الثانية :**

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

**« أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل .... يضع حافره عند منتهى طرفه .... »**

وفى الحديث :

**« .... ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير ... »** (٨٨) .

---

(٨٧) سورة الزخرف ، الآية رقم ٦١ . قرئت بكسر العين ، وفتحها .

(٨٨) أخرجه مسلم . فى كتاب الإيمان ، باب الإسراء .. وفرض الصلوات ، رقم ٧٦ ص ٢٦ ج من مختصر مسلم .

وفى رواية له أيضاً :

**« ثم مررت بعيسى ، فقال : مرحبا بالأخ الصالح ، والنبى الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى »** (٨٩) .

وعن مالك بن صعصعة – رضى الله عنه – قال : قال النبى – ﷺ – :

**« بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان .... »**

وفى الحديث :

**« فأتينا السماء الثانية . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : من معك ؟ قال : محمد . قيل : قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبا به ، ولنعم المجىء جاء ، فأتيت على عيسى ، ويحيى ، فقالا : مرحباً من أخ ونبى ... »** (٩٠) .

وفى ضوء الأحاديث السابقة ، يتبين لنا بالنسبة لعيسى – عليه السلام – :

– أن عيسى – عليه السلام – بالسماء الثانية ، وقد التقى به النبى – ﷺ – ليلة الإسراء .

– وأن بصحبته يحيى بن زكريا – عليهم السلام – ابن خالته .

– وأنه هو ويحيى – عليهما السلام – قد رحبا بالنبى – ﷺ – ، ودعوا له بالخير .

– أن الأنبياء جميعاً إخوة يدعون إلى عقيدة واحدة هى عقيدة التوحيد .

---

(٨٩) أخرجه الشيخان اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء ، رقم ١٠٢ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٩٠) أخرجه الشيخان المصدر السابق رقم ١٠٣ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

– وأنهما قد أديا مهمة الحراسة على خير وجه من سؤال عن الداخل ، والإذن لمن يحمل تصريحاً بالدخول .

– وأن الأدب فى الحديث من شيم الأنبياء ، والصالحين كما ظهر فى السؤال ، والجواب ..

– وأن وجوده بالسماء تكريم له ، ورفعة ، وأن من يصعد به إلى السماء أيضاً تكريم له أيضاً ورفعة « ونعم المجىء جاء » .

**دروس ، وعبر :**

– الاعتقاد بأن رسل الله سبحانه قد اصطفاهم ، واختارهم ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فتعميق الإيمان بهم ، امتداد للإيمان بالله تعالى . وأنهم جميعاً يدعون إلى عقيدة واحدة ، هى عقيدة التوحيد . فلا يصح التفريق بين أحد من المرسلين – عليهم الصلاة والسلام .

– الاعتقاد بأن هؤلاء الرسل ، قد عصمهم الله سبحانه ، وحماهم ، ورباهم ، وصنعهم على عينه ، وأن حياتهم الأولى قبل البعثة حياة نظيفة ، بعيدة عن الدنس والريبة .

– وأن الارتباط بالمساجد صلاة فيها ، وخدمة لها دليل على إيمان المرء فامرأة عمران نذرت ما فى بطنها للمسجد ، والله سبحانه يقول :

**﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾**(٩١) .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

**« من غدا إلى المسجد أو راح ، أعد الله له فى الجنة نزلاً ، كلما غدا ، أو راح »** (٩٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

**« إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »** (٩٣) .

---

(٩١) سورة التوبة ، الآية رقم ١٨ .

(٩٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب المساجد ، باب المشى إلى الصلاة ، رقم ٣٩٠ ص ١٣٢ ، ورياض الصالحين رقم ١٠٥١ ص ٤٣٣ .

(٩٣) أخرجه الإمام أحمد ، وابن مردويه ، والحاكم فى المستدرك من حديث عبد الله بن وهب ، ابن كثير فى التفسير للآية السابقة .

وأخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن ، وفى سنده دراج أبو السمح ، وهو ضعيف =

– الدعاء للمولود بالبركة ، وإعاذته من الشيطان ، واختيار الاسم الطيب له من سنن الأنبياء والمرسلين ، ويلزم التأسى بهم ، والسير على منوالهم .

– الله سبحانه يهىء لعباده الصالحين من يكفلهم ، ويرعاهم ، ولا يضيعهم فقد هيأ لمريم من يكفلها ، وهو النبى الصالح زكريا ، وأنه سبحانه يرزقهم الرزق الحلال الطيب . قال تعالى :

﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ (٩٤) .

وتنزل هذا الرزق على مريم فى محرابها .

– التنافس فى أعمال الخير سمة من سمات عباد الله الصالحين . وهكذا تنافس الصالحون على كفالة السيدة مريم ، أيهم يكفل مريم .

– تعيين وصى على الصغير ، حفظ له ، وسنة من سنن المرسلين .

– منازل الصالحين فى الجنة بما يتناسب وأعمالهم فى الدنيا ، فمريم لما قدمت من جليل الأعمال من خير نساء الجنة فقد اكتمل إيمانها ، وحسن عملها كما أخبر بذلك المصطفى – ﷺ .

– للأعمال القيادية تكاليف ، وواجبات ، فبعد اصطفاء مريم أمرها ربها سبحانه : ﴿ **اقنتى لربك ، واسجدى ، واركعى مع الراكعين** ﴾ – وتكليف الصالحين بما يناسبهم من مراكز قيادية أداء للأمانة ، وتضييع الأمانة – بتوسيد الأمر لغير أهله – نذير بانتهاء الحياة الدنيا ، وعلامة من علامات الساعة .

– الاعتقاد بأن عيسى – عليه السلام – ولد من أم دون أب ، – ومع التأييد بالمعجزات ، التأييد أيضاً بالملائكة ، فقد أيد عيسى – عليه

---

= فى حديثه عن أبى الهيثم ، وهذا من روايته عنه . رياض الصالحين . باب فضل المشى إلى المساجد ص ٤٣٤ رقم ١٠٥٨ ، وهامشه ، وقريب من هذا المعنى أحاديث أخرى أكثر قوة ، وأصح سنداً . مثل الذى سبقه .

(٩٤) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ ، ٣ .

السلام – بروح القدس وهو جبريل – عليه السلام – وكذلك كان الأمر مع النبى محمد – ﷺ – وصحابته الكرام .

– الاعتقاد بأن عيسى – عليه السلام – قد بشر بالنبى محمد – ﷺ – وأن الإيمان بعيسى من كل مسلم جزء من الإيمان ، ومن لوازمه .

– على الداعية المسلم أن يختار معه من يعينه على الدعوة ، وأن يخصهم بالمزيد من الأعباء ، والمزيد من العلم ، وأن يكون حكيماً فى هذا الاختيار مثل اصطفاء الحواريين .

– الإيمان بأن الله سبحانه أنزل مائدة من السماء حسب طلب نبيه ورسوله ، ليزداد قومه إيماناً على إيمانهم ، وأن الهدف من المعجزة هو بعث الطمأنينة فى النفوس .

– التأدب مع الله سبحانه فى الدعاء ، والاعتقاد بأنه القادر على كل شىء ، ويظهر الفرق واضحاً بين عيسى – عليه السلام – والحواريين فى خبر المائدة كما سبق .

– الله سبحانه يجازى المرء حسب ما اتضح له من دليل وبرهان فإنزال المائدة مدعاة لمزيد من الإيمان ، فإذا ما أصاب الإيمان نقص بعد نزولها ، وبعد اتضاح الدليل ازداد عقاب المرء ، وليس كذلك الجاهل .

– الاعتقاد بأن عيسى – عليه السلام – لم يمت ، ولم يقتل ولم يصلب ، وأن الله سبحانه رفعه حيا إلى السماء ، بعد أن توفى أعماله فى الدنيا ، وأنه ينزل قبل يوم القيامة يحكم بشريعة الإسلام (٩٥) .

– وأنه عبد الله ، ورسوله ، وأن الله سبحانه الذى يخلق الإنسان من والدين

---

(٩٥) قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله – ﷺ – أنه أخبر بنزول عيسى – عليه السلام – قبل يوم القيامة إماما عادلا ، وحكما مقسطا .

قادر على أن يخلق دون أصل سابق مثل آدم – عليه السلام – ودون أب مثل عيسى – عليه السلام – ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً** ﴾ (٩٦) .

﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ (٩٧) .

– التأثر بالوضع الاجتماعي ، والأسرى ، خيراً ، أو شراً ، ولذا احتج القوم على مريم بأنها من أسرة صالحة غير سيئة ، وذلك قبل علمهم بمعجزة الحمل دون أب .

ولذا يجب تهيئة البيئة الصالحة لتربية الصغار ، واختيار الزوجة ذات الدين ، وتزويج من نرضى دينه ؛ حتى يتكون الجيل الإسلامي الصالح ، والقادر على حمل أعباء الدعوة .

– والاعتقاد بأن رسل الله سبحانه – مع دعوتهم للأصل الإيماني – يدعون أيضاً إلى التكامل ، والتراحم ، والبر ، وتسمو هذه الأعمال بسمو الأصل الإيماني في نفس المسلم .

– والاعتقاد بأن رسل الله سبحانه – بالإضافة إلى صفاتهم الخلقية – يتصفون باكتمال الهيئة ، والصورة ، والنظافة . ولذا يجب على من يتصدر الدعوة للناس ألا يغفل عن الأمر الثاني المظهري . وقد كان عيسى – عليه السلام – ممشط الشعر نظيفاً كأنه على الدوام خارج من استحمام .

– والاعتقاد بأن الله سبحانه، يؤيد رسله بالمعجزات ، ويختار منها ما اشتهر به القوم ، وكانوا فيه ماهرين ، مثل إحياء الموتى ، وقد اشتهر القوم بالمهارة في الطب .

---

(٩٦) سورة فاطر ، الآية رقم ٤٤ .

(٩٧) سورة يس ، الآية رقم ٨٢ .

– أن الله سبحانه يحفظ أنبياءه ، والصالحين من أمته ، وقد حفظ المسيح – عليه السلام – من كيد اليهود ، وتآمرهم عليه ، وسعيهم لقتله ، فرفعه إليه حيا .

– أن الناس قد انقسموا أصنافاً بالنسبة لعيسى – عليه السلام – أزكاهم هم المسلمون الذين يؤمنون بأنه عبدالله ورسوله ، وسينزل آخر الزمان قبل يوم القيامة .

– وأن أتباع الأنبياء يتسابقون فى الدفاع عنهم ، ويؤثرونهم عليهم .

– الاعتقاد بأن الله سبحانه قد تنزه عن الولد والشريك ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (٩٨) .

وأن النصارى بدعواهم البنوة كانوا كافرين ضالين مضلين .

– وأنه – عليه السلام – حين نزوله قبل يوم القيامة سيحكم بشريعة الإسلام ، فلا صليب ، ولا خنزير ويقتل الدجال ، ويأجوج ومأجوج .

– وأن الله سبحانه قد كرمه بوجوده فى السماء الثانية وقد التقى به النبى – ﷺ – ليلة الإسراء .

والله أعلم .

---

(٩٨) سورة الإخلاص .

# فهرس الأحاديث والآثار

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
| --- | --- |

( أ )

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
|---|---|

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
|---|---|
| أما لو أن أحدكم حين يأتى أهله ، يقول : | ٦٢٣ |
| امشوا نستنظر لجابر | ٦٩٧ |
| إن أبغض الرجال إلى الله ، الألد الخصم | ٥٨٢ |
| أن أحد الصحابة كان عنده ساحر | ٦٤١ |
| ان اقتلوا كل ساحر وساحرة | ٦٤١ |
| إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر | ٣٣ |
| إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل | ٥٣٠ |
| أنا أولى الناس بعيسى بن مريم | ١٩ |
| أنا سيد القوم يوم القيامة | ٤٥ |
| إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات | ٦٧١ |
| إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً | ٣٣ |
| إن الله خلق آدم من تراب | ٣١ |
| إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض | ٣٢ |
| إن الله رفيق يحب الرفق | ٣٨٨ |
| إن الله لم يهلك قوماً فيجعل لهم نسلاً | ٥٢٢ |
| إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين | ٢١٣ |
| انتدب لها رجل ذو عز | ١٦٧ |
| أنتم توفون سبعين أمة | ٤٢٢ |
| إن الحمد لله | ٩ |
| إن رجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين | ٤٨٠ |
| إن رسول الله - ﷺ - شاور حين بلغه اقبال أبى سفيان | ٥٤٣ |
| إن رسول الله - ﷺ - كان يتعوذ من أعين الجان | ٦٣٧ |
| إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه | ٣٨٨ |
| إن عفريتاً تفلت على البارحة | ٥٩٠ |

( ح )



( خ )



( د )



( ذ )

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
|---|---|

( ر )



( س )



( ش )



( ص )



( ض )

( ق )



( ك )

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
| --- | --- |



( ل )

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
|---|---|
| نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيرى | ١٣٣ |
| نهى النبى – ﷺ – عن ثمن الكلب | ٦٠٣ |
| **( هـ )** | |
| هذا سحر يؤثر ، أثره عن غيره | ٤٠٣ |
| هلا رددتموه إليّ ؟ | ٥٩٥ |
| هل بعثتم جارية تضرب بالدف | ٥٧٥ |
| هل تمارون في القمر ليلة البدر ؟ | ٤٨٥ |
| **( و )** | |
| وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار | ١٤٢ |
| والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم | ٦١٢ |
| والذي نفسي بيده ، ليهلن ابن مريم بفج الروحاء | ٧٢٧ |
| والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم | ٧٢٦ |
| والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك | ٣٧٩ ، ٤٠٢ |
| وكان زكريا نجاراً | ٦٥٦ |
| ولد لى غلام ، فأتيت به النبي – ﷺ – فسماه إبراهيم | ٦٨٣ |
| والله لقد أخذت من في رسول الله | ٤١٥ |
| ولم يكن لديهم حَبّ | ١٩٩ |
| وما أدرك أنها رقية ؟ | ٦٣٧ |
| ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد | ١٧٤ |

| مطلع الحديث أو الأثر | الصفحة |
| --- | --- |

( ى )

# فهـرس الموضوعات

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوعات | الصفحة |
|---|---|

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |

الموضوعات | الصفحة

| الموضوعات | الصفحة |
|---|---|
|  | |

| الموضوعات | الصفحة |
|---|---|

| الموضوعات | الصفحة |
|---|---|

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوعات | الصفحة |
|---|---|
| ( أ ) القيادة | ٥٩٥ |
| (ب) قصة الهدد – جندياً – وملكة سبأ : | ٥٩٨ |
| ١ – شجاعة أدبية | ٥٩٩ |
| ٢ – النبأ اليقين | ٦٠٠ |
| ٣ – وعى الجندى | ٦٠١ |
| ٤ – التحقق من الدعوى | ٦٠٢ |
| ٥ – الملكة تناقش أمر الكتاب | ٦٠٤ |
| ٦ – موقع الهدية فى نفس سليمان عليه السلام | ٦٠٧ |
| ٧ – العفريت الذى عنده علم من الكتاب | ٦١٠ |
| ٨ – الملكة فى الأرض المباركة | ٦١٤ |
| (جـ) تسخير الجن | ٦١٦ |
| ( د ) تسخير الريح | ٦١٩ |
| ( هـ) الجياد | ٦٢٠ |
| ● علمه بمنطق النمل | ٦٢٤ |
| ● موت سليمان عليه السلام | ٦٢٨ |
| ● الشياطين يعلمون الناس السحر | ٦٢٩ |
| ● السحر فى ضوء الكتاب والسنة : | ٦٣٤ |
| ( أ ) السحر لا يغير حقائق الأشياء | ٦٣٤ |
| (ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه | ٦٣٨ |
| (جـ) عقوبة الساحر | ٦٤٠ |
| ( د ) اتهام الكفار الرسل بالسحر | ٦٤٢ |
| ● قصة سبأ ( حضارة شعب ، إعراض عن شكر النعمة ، واغترار بها ، الحرمان من النعم لإعراضهم عن الحق ، وكانت آية ) | ٦٤٥ |
| ● دروس وعبر | ٦٤٩ |

| الموضـوعات | الصـفحة |
|---|---|

| الموضوعات | الصفحة |
| --- | --- |